دكتور

سمير نعيم أحمد

النظرية في علم الاجتماع

لـــــــداع ٢٠٠٧

الدكتور / قدري محمود حفني

ـهورية مصر العربية

النظريـــــة

فى

علم الاجتــماع

دراسة نقدية

دكتور

سمـير نعيم احمـد

رئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب ـــ جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة سعيد رأفت
جامعة عين شمس

القاهرة ١٩٧٧

مقدمة

إن الذى يكتب عن النظرية فى أى من العلوم الفيزيقية أو البيولوجية يقف عادة على أرض صلبة وممهدة ، فمعظم ما يكتب عنه متفق عليه تقريباً ،وحتى ذلك القدر البسيط من المعرفة غير المتفق عليها تماماً والتى تتشعب حولها الآراء يسهل حصره وتحديد نوع الأدلة اللازمة لحسم الخلاف حوله . وكلما مضى الوقت وتراكمت المعرفة العلمية إزدادت النظريات ثراء ورسوخاً وتكاملا وتم حسم الكثير من النقاط الخلافية لتظهر نقاط أخرى يتم حسمها وإضافتها للنظرية وهكذا . وتصبح مهمة من يكتب عن النظرية البيولوجية أو الفيزيقية أكثر سهولة ويسرا إذا كان بصدد تقديم هذه النظرية أو تلك لطلاب هذه العلوم أو كان بصدد تبسيطها وعرضها على الجمهور .

وعلى ذلك فإن الاختلاف بين مؤلف وآخر فى موضوع النظرية البيولوجية أو الفيزيقية يصبح إختلافاً فيما يتمتع به كل منهما من سمات شخصية تعينه على العرض المنظم والشيق والمقنع والمتكامل لهذه النظريات .

أما عالم الاجتماع الذى يقدم على الحديث عن النظرية فى علم الاجتماع فإنه يواجه منذ البداية بحشد هائل من الآراء ، لا المختلفة بل والمتضاربة أيضاً ، وتكون أصعب مهمة يواجهها أن يبحث عن نقاط الاتفاق بين علماء الاجتماع ، وعادة ما يجد أن زملاءه لم يتفقوا ليس على تفسيرات معينة لما يدرسونه من ظاهرات فقط ، ولكنهم حتى غير متفقين على تعريف لهذه الظاهرات التى يدرسونها بما فى ذلك أكثرها عمومية مثل « المجتمع » ، ذلك المفهوم الأولى الذى مازلنا نجد له عشرات التعريفات

المختلفة فى علم الأجتماع . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ولكنه يتعداه ليشمل الاختلاف حول كل شيء حتى حول تلك المسائل المنهجية والبديهية التى انتهى غيرهم من العلماء من الأتفاق حولها وحسمها بحيث كان فى إمكانهم (أى علماء الأجتماع) استخدامها جاهزة دون ما عناء . فها نحن نرى عالماً كبيراً من علماء الاجتماع يقول فى ستينات القرن العشرين :

« يتحدث معظم العلماء الاجتماعيين اليوم بحرارة عن فائدة النظرية ، ومع هذا فحينما نسعى للحصول على إجابة للسؤال « ما المقصود بالنظرية فى العلم الأجتماعى؟ نواجه بتعريفات متضاربة أو غامضة فى أحسن الأحوال » [١] ويمضى بعد ذلك فى تعداد وجهات النظر المختلفة لدى علماء الأجتماع حول معنى النظرية .

وقد كتب عالم الأجتماع الأمريكى روبرت مرتون Robert K. Merton ذات مرة يقول :

« يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية خمسة آلاف عالم إجتماع ، ولكل منهم علم الأجتماع الخاص به »، كما قرر عالم الأجتماع الأمريكى هيوجز E.C. Hughes فى المؤتمر الدولى الخامس لعلم الإجتماع أنه لا يوجد علم أجتماع واحد ، بل هناك علم اجتماع أمريكى ، وآخر سوفيتى ، وثالث يوغسلافى ، . . . وصينى . . . ألخ . [٢]

ويقول قطب آخر من أقطاب علم الأجتماع مبرراً الموقف ومخففاً من حدته :

---

(1) Gideon Sjoberg and Roger Nett : A Methodology for Social Research. (New York : Harper of Row, 1968.) P. 29.

(٢) أو سيبوف : قضايا علم الاجتماع . ترجمة سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة ر ادالمعارف ، ١٩٧٠) ص ٦٤ .

« هناك فى العلوم الطبيعية كالفيزياء أو الكيمياء - بوجه عام - نظرية واحدة فقط على مستوى عال من التجريد ، أو مجموعة من النظريات المرتبطة التى يكمل بعضها بعضا ، ولكن هذه العلوم قد وصلت إلى هذه المرحلة من النضج بعد أن مرت بمرحلة النظريات المتصارعة التى قد تتمثل فى نظريتين أو أكثر تتعايش معاً . ومازال الحال كذلك فى علم الاجتماع ، حيث لا يوجد اطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة ، أو اصطلاحات صادقة يتفق عليها علماء الاجتماع ، تسمح بعرض الوقائع المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادىء محددة ، بل إن علم الاجتماع قد تميز فى نموه بظهور مجموعة كبيرة وغير عادية من النظريات المتصارعة» .

وينطلق تيماشيف بعد ذلك ليطمئن القارىء ويعده بأن الاختلاف بين علماء الاجتماع آخذ فى التناقص والتقلص[1] .

ويعبر عاطف غيث عن الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر بقوله :

« تعددت المواقف النظرية فى علم الاجتماع الحديث ، حتى أصبحت معالجة موضوعاته من خلال موقف نظرى واحد ، مخاطرة كبيرة على حساب الوضوح والتحليل الصحيح ، بالاضافة إلى عدم التصور المتكامل للحقيقة الاجتماعية كما أن الانحياز الإيديولوجى يكون أمراً من الصعب تجنبه . ولهذا يميل عدد من الباحثين فى علم الاجتماع اليوم إلى تبنى نظرة متعددة الجوانب أو الالتزام بتعدد العوامل عند التفسير والتحليل[2] .

---

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها - ترجمة محمود عودة ومحمد الجوهرى والسيد الحسينى ومحمد على (القاهرة - دار المعارف ، ١٩٧٠) ص ١٦ .

(٢) عاطف غيث : الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر (الاسكندرية دار الكتب الجامعية ١٩٧٢) ص ١ .

هذه أمثلة قليلة جداً مما يقوله علماء الاجتماع عن الاختلافات فيما بينهم ونكاد نجزم بأن كل مرجع فى علم الاجتماع بوجه عام وعن النظرية فى علم الاجتماع بصفة خاصة يذكر صراحة أو ضمنا عدم إتفاق علماء الاجتماع حتى على تعريف أبسط المفهومات ، التى هى المادة الأولية فى بناء أى نظرية علمية .

هذه أول صعوبة يواجهها دارس النظرية فى علم الاجتماع — صعوبة تعدد النظريات — التى تحاول تفسير الظاهرات الاجتماعية . ويرتبط بهذه الصعوبات الأولية والرئيسية مجموعة من الصعوبات المتفرعة عنها أهمها أن كلا من النظريات الأساسية فى علم الاجتماع تضم داخلها إتجاهات مختلفة بعضها قد يكون قديماً والبعض الآخر قد يكون حديثاً ويرتبط كل من هذه الاتجاهات باسم عالم من العلماء أو أكثر . ومما يزيد الأمر تعقيداً أو صعوبة أن كل نظرية من النظريات الأساسية وكل إتجاه من الاتجاهات الفرعية داخله يضم حشداً هائلا إما من المفهومات والمصطلحات المختلفة التى تشير إلى نفس الشيء أو المفهومات والمصطلحات المتشابهة التى تشير إلى أشياء مختلفة . وتلك الصعوبة على جانب كبير من الأهمية لأنها تجعل عملية المقارنة بين النظريات بل مجرد عرضها بشكل واضح أمراً بالغ التعقيد .

وتتعلق الصعوبة الثانية والأساسية التى يواجهها دارس النظرية الاجتماعية بتصنيف هذه النظريات أو مسمياتها . فمثلما لا توجد نظرية عامة واحدة متفق عليها بين علماء الاجتماع لا يوجد أساس واحد لتصنيف هذه النظريات أو حتى لإطلاق مسميات عليها . ذلك أن تصنيف النظريات فى حد ذاته يعتمد على الإطار النظرى الذى يتبناه القائم بالتصنيف . ولنأخذ مثالا واحداً فى ذلك — حالة إميل دوركايم عالم الاجتماع الفرنسى الشهير — لقد صنفه دون مارتندال تحت ما أسماه بالنظريات

العضوية الوضعية [١] بينما صنفه كل مـــن تيماشيف [٢] وآبل [٣] تحت ما أسماه بعلم الاجتماع التحليلى ، وصنفه هاجدورن تحت النظريات البنائية وصنفه كوزر تحت ما أسماه بالنظريات الإجتماعية بينما يصنفه الماركسيون تحت النظريات المثالية . ولسنا بصدد حصر للتصنيفات المختلفة لدوركايم وهى كثيرة ، ولكننا نقدم للقارىء بعض الأمثلة القليلة على تعدد مسميات النظريات وأسس التصنيف . وينطبق هذا بالطبع على كافة أصحاب النظريات الاجتماعية .

أما الصعوبة الثالثة فى دراسة النظرية الاجتماعية فتتمثل فى اختلاف أسس تقيم النظريات الاجتماعية . فكل إتجاه نظرى يضع أسساً لتقيم النظرية الاجتماعية تنبع من المسلمات الأساسية التى يعتمد عليها ويختلف بالطبع عن أسس تقييم النظرية المستمدة من غيره من الاتجاهات .

ومثلما توجد نظريات مختلفة فى علم الاجتماع وأسس مختلفة لتصنيف النظريات وأسس مختلفة لتقييمها توجد أيضاً تفسيرات مختلفة لهذه الاختلافات جميعاً . فبعض علماء الاجتماع يرون أن هذه الاختلافات مرحلية وأنه مع تطور علم الاجتماع ونضجه سيتوفر لهذا العلم نظرية أساسية مثل بقية العلوم ، بينما يرى البعض الآخر أن هذه الاختلافات سمة لازمة لعلم الاجتماع وأن التعدد فى النظرية الاجتماعية يعكس طبيعة الظاهرات الاجتماعية المعقدة ، فكل موضوع من الموضوعات المختلفة التى يدرسها علم الاجتماع يحتاج إلى منظور يختلف عن ذلك الذى يحتاج إليه غيره .

---

(1) Don Martindale. Nature and Types of Saciological Theory. (London. Routledge — Kegan Paul. 1967).

(٢) نيقولا تيماشيف — المرجع السابق .

(3) Theodere Abel. The Foundation of Sociological Theory. (New York. Random House, 1970).

بينما يرى آخرون أن كل هذه الاختلافات المتعلقة بالنظرية الاجتماعية إنما تعكس مواقف إيديولوجية وسياسية لعلماء الاجتماع تعبر بدورها عن أوضاع إجتماعية واقتصادية وسياسية سائدة فى المجتمعات التى تنشأ فيها هذه النظريات . بل إن هناك من يرى أن هذه الاختلافات فى حد ذاتها لا تزيد عن كونها جهداً مقصوداً لتغليف الواقع الاجتماعى بالغموض وتصويره على أنه غير قابل للفهم من أجل إخفاء حقائق النظام الاجتماعى فى المجتمع الذى يعيش فيه علماء الاجتماع والمحافظة على هذا النظام .

ومن المؤكد أن كل من يتعرض لمهمة الكتابة فى النظرية الاجتماعية ولمهمة تدريسها قد شعر بوطأة هذه المشكلات جميعاً عليه . فبالاضافة إلى الجهد الخارق الذى لابد أن يبذله فى عملية الإلمام بكافة الاتجاهات النظرية وتفرعاتها فى علم الاجتماع وفى عملية المقارنة بينها والبحث عن نقاط الاختلاف والاتفاق بينها ودراسة المعانى المختلفة التى تضفيها كل نظرية على المفهومات التى تستخدمها ، أقول بالإضافة إلى ذلك كله عليه أن يبذل جهداً آخر فى محاولة عرض ما تم له إستيعابه وما توصل إليه من استنتاجات بطريقة منظمة ومنطقية (على الرغم من أن المادة موضوع دراسته ليست أصلا منظمة ولا منطقية فى معظم الأحوال) .

ويمكن أن نشعر بوطأة هذه المشكلات على المؤلف فى هذا الميدان من قراءتنا لمقدمات الكتب التى تتناول النظرية الاجتماعية من قول عالم الاجتماع الأمريكى الشهير «دون ماتندال» فى مقدمته لكتابه «طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية» :

« لا بد أن أعترف بأننى فى محاولاتى هذه لاستكشاف طبيعة وأسس الصور المختلفة من النظرية الاجتماعية وقدراتها التفسيرية كنت أسترشد بهدف واحد لاغير — أن أفهمها أنا أولا » (1)

(1) Don Martindale . opt. P.xi .

بيد أن هذه الصعوبات التى تحدثنا عنها لا يجب بحال أن تعوق المتخصص فى علم الاجتماع عن فهم طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية مهما كان موقفه من أى من هذه الانماط ، إذا كان يرغب حقاً فى فهم أى من الظاهرات الاجتماعية التى يتخصص فى دراستها أو فهم المجتمع الذى يعيش فيه بوجه عام .

إن أى باحث فى أى علم من العلوم لاغنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها أو فى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها وفى إختياره للمنهج وللأدوات التى سيستخدمها فى دراسته ، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها . ولكن أى نظرية سيختار من بين هذا الحشد من النظريات المتضاربة فى ميدان علم الاجتماع ؟ وعلى أى أساس تكون مفاضلته بين هذه النظريات ؟

إن هذا الكتاب محاولة للاسهام فى توضيح المعالم الأساسية للإتجاهات النظرية المختلفة فى علم الاجتماع وفى وضع أسس علمية للمفاضلة بين هذه النظريات تساعد الدارس والباحث على التعرف على نواحى القوة والقصور فى كل منها وإتخاذ موقف نقدى منها . وقد حاولنا تحقيق هذا الهدف عن طريق ما يأتى :

١ ـــ مناقشة معنى النظرية ودورها فى العلم بوجه عام ومحاولة تشخيص الوضع الراهن للنظرية فى علم الاجتماع والعوامل التى ترتبط بعدم وصول هذه النظرية إلى المستوى العلمى المطلوب .

٢ ـــ مناقشة وتحديد الأسس التى يمكننا على أساسها نقد وتقييم النظرية الإجتماعية والمقارنة بين النظريات المختلفة .

٣ — عرض الأفكار العامة والمسلمات الأساسية التى يركز عليها كل إتجاه من الإتجاهات النظرية فى علم الاجتماع بصورة واضحة مع تجنب مناقشة التفاصيل الفرعية التى تزيد من غموض الإتجاه وتجعل القارىء يضل سبيله بين متاهات هذه التفاصيل ، مع إحالة القارىء إلى المراجع التى يمكنه الاستزادة منها فيما يتعلق بكل إتجاه .

٤ — تطبيق أسس نقد وتقييم النظرية الاجتماعية على كل إتجاه واستخلاص مسلماته الأساسية ومناقشتها .

أما فيما يتعلق بأسلوب عرض الاتجاهات النظرية الأساسية فى علم الاجتماع فى هذا الكتاب فقد رأينا أن نبدأ بالنظريات الكلاسيكية ونناقشها ، نظراً لأنها تتضمن المسلمات الرئيسية التى ترتكز عليها كل الإتجاهات النظرية المعاصرة . وقد بينا خلال هذا العرض أنه على الرغم من بزوغ أسماء ومسميات جديدة فى ميدان النظرية الاجتماعية إلا أن ذلك لم يقدم جديداً يذكر فى هذا الميدان يمكن أن يضاف إلى أعمال العلماء الكلاسيكية ، وعلى هذا فإن النظريات الاجتماعية الحديثة لاتزيد عن كونها « صياغات جديدة لمسلمات قديمة » كما أسميناها . وقد ركزنا على بيان العلاقة بين المسلمات الأساسية التى يحتوى عليها كل إتجاه نظرى من جهة وبين التوجيه الايديولوجى لصاحب هذا الإتجاه والمضامين الايديولوجية له ، وما يشير إليه من إجراءات إجتماعية عمليه من جهة أخرى حتى يكون الدارس على وعى بالموقف السياسى الذى يتخذه عند إختياره لأى من الاتجاهات النظرية السائدة فى علم الاجتماع .

وتركيزنا على هذه العلاقة يستند على ما أثبته الكثيرون من علماء الاجتماع من عدم الحياد الإيديولوجى فى النظرية الاجتماعية منذ نشأتها وإرتباطها الوثيق بالموقف السياسى لصاحب النظرية .

ويجب أن نذكر في هذا المقام أن الخلفية الفكرية التي نعتمد عليها في عرضنا ومناقشتنا للنظرية الاجتماعية في علم الاجتماع مستمدة من المعرفة المتوافرة في ميدان علم إجتماع المعرفة بصفة عامة وعلم إجتماع علم الاجتماع Sociology of Sociology بصفة خاصة .

وأهم ما نركز عليه في هذا الصدد حقيقة أن المعرفة (والنظرية الإجتماعية إحدى صورها) تكون دائماً نتاجاً للظروف الاجتماعية والثقافية التي تظهر فيها ، وتعكس إلى حد كبير الموقع الاجتماعي للعالم وبخاصة الطبقة التي ينتمي إليها كما يقرر عالم إجتماع المعرفة كارل مانهايم .

ولكن على الرغم من أن هذه الحقيقة قد وجهتنا دائماً في عرضنا وفي تقييمنا للنظرية الاجتماعية إلا أننا لم نحاول أن نجعل من هذا الكتاب مؤلفاً في علم إجتماع المعرفة أو في علم إجتماع النظرية الإجتماعية . وبالمثل فإنه على الرغم من تسليمنا بأن الظروف التاريخية التي إرتبطت بظهور كل إتجاه نظري قد تركت بصماتها واضحة عليه فإننا لم نحاول أن نجعل منه كتاباً في تاريخ الفكر الاجتماعي ، فكل موضوع من هذين الموضوعين يتطلب مؤلفاً مستقلا يتناول بعمق وتفصيل وعن دراية تاريخ المجتمعات الغربية وتحليلا مستفيضاً للظروف الاجتماعية والإقتصادية والسياسية والفكرية التي ظهرت فيها هذه الإتجاهات ويربط بين التغيرات الاجتماعية من جهة وبين التغيرات أو التعديلات التي طرأت على النظرية الاجتماعية من جهة أخرى وتقديم الأدلة على إنتماءات وولاءات وأنشطة أصحاب هذه النظريات وإنعكاسها على نظرياتهم . وفوق هذا كله فإن مثل هذه المؤلفات تنطلق من التسليم بأن القارىء على علم كاف بالنظريات التي تؤرخ لها أو تحللها إجتماعياً .

إن محاولة الجمع بين الأهداف الثلاث (التحليل الاجتماعى للنظرية الاجتماعية والتأريخ للفكر الاجتماعى وعرض النظرية الاجتماعية بشكل واضح وتقييمها) فى مؤلف واحد لا يمكن أن ينجم عنه سوى عدم تحقيق أى منها بطريقة جديدة .

وأخيراً أود أن أقرر أنى قد استفدت كثيراً عند وضعى لهذا المؤلف من المناقشات المثمرة التى دارت بينى وبين طلابى بالجامعات المصرية (عين شمس والقاهرة والإسكندرية والمنيا) والأمريكية (جامعة سان فرنسيسكو) والعربية (الجزائر وقاريونس) أثناء تدريسى لهم مواد علم الاجتماع ومادة النظرية الاجتماعية لمدة تزيد على العشر سنوات سواء فى مرحلة الليسانس أو مرحلة الدراسات العليا كما أنى قد أفدت من مناقشة الزملاء من الأساتذة المصريين والأجانب الزائرين وطلاب الماجستير والدكتوراه لآرائى ومناقشتى لآرائهم أثناء جلسات السمنار الذى يعقد أسبوعياً بقسم الاجتماع بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩ .

وقد أتاحت لى فرصة زيارة جامعة Hull بالمملكة المتحدة خلال شهر ديسمبر ١٩٧٦ إمكانية الإطلاع فى مكتبتها على أحدث المراجع الأجنبية فى موضوع النظرية الاجتماعية ، وأتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور بونز Pons رئيس قسم الاجتماع بالجامعة والدكتور طلال أسد أستاذ الأنثروبولوجيا وأعضاء هيئة التدريس بالقسم على ما بذلوه من جهد وما قدموه من مساعدة .

ولابد أن أشيد هنا بالجهد القيم الذى قدمه أساتذة ورواد علم الاجتماع فى الجامعات المصرية فى شرح وتقديم النظريات الاجتماعية للقارىء العربى والذى يجد القارىء ثبتاً بمؤلفاتهم فى النظرية الاجتماعية فى آخر الكتاب وأرجو أن يكون هذا العمل امتداداً لإسهاماتهم .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أشكر كل من أسهم من الزملاء والأصدقاء فى إكمالى لهـــذا العمل سواء بالمناقشة أو المساعدة الفعلية ، وأخص بالذكر الأستاذ الصديق الدكتور عاطف حيث رئيس قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الإسكندرية لتشجيعه الدائم لى على الكتابة فى هذا الموضوع ولمناقشاته المثمرة معى للاتجاهات النظرية ولآرائه النقدية التى أثرت مجال علم الاجتماع فى مصر .

وأتوجه بالشكر للزميلين الصديقين مجدى حجازى المدرس المساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وشادية على قناوى المدرس المساعد بقسم الاجتماع بآداب عين شمس لمناقشاتهما البناء وحثهما الدائم لى لإكمال هـذا العمل ، والآنسة سهام نعيم أحمد على ما بذلته من مجهود كبير فى إعادة كتابة أصول الكتاب ومراجعة تجاربه وما أبدته من ملاحظات أثناء ذلك العمل .

كما أنه كان لزوجتى وبناتى هالة وهبة وسحر أكبر الفضل فى توفير الجو المناسب لإنجاز ذلك العمل وتحملن فى سبيل ذلك الكثير فلهن كل تقدير .

وإننى لآمل أن يسهم هذا العمل فى تحقيق بعض من الوضوح الفكرى فيما يتعلق بالنظرية الاجتماعية .

سمير نعيم أحمد

مدينة نصر فى ٢٣ / ٩ / ١٩٧٧

الباب الأول

طبيعة النظرية فى علم الإجتماع

الفصل الأول : طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم .

الفصل الثانى : النظرية الاجتماعية بين الواقع والممكن .

الفصل الثالث : أسس تقييم النظرية الاجتماعية .

الفصل الاول

طبيعة المعرفة العلمية ومكونات العلم

ليس من الممكن أن نفهم معنى النظرية العلمية ودورها فى العلم دون أن نفهم اولا معنى العلم ومكوناته ، لذلك فإننا سنبدأ دراستنا للنظرية الاجتماعية بمقدمة ضرورية نشرح فيها النقاط الآتية :

(١) معنى المعرفة العلمية .

(٢) مكونات العلم .

(٣) طبيعة النظرية العلمية وعلاقتها بغيرها من مكونات العلم .

وعلى ضوء هذه المقدمة نستطيع أن ننتقل للحديث عن النظرية الاجتماعية بوصفها صورة من صور النظريات العلمية .

(١) معنى المعرفة العلمية :

يمكننا القول أن المعرفة بصفة عامة عبارة عن نسق من المعانى والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التى يكونها الإنسان عن أى جانب من جوانب الكون الذى يعيش فيه[١] . ومع أن مصدر المعرفة دائماً هو الواقع، سواء

---

(١) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى — مكتبة وهبة . القاهرة ١٩٧٦

كان هذا الواقع فيزيقيا (جامداً) أو جيولوجيا (حيا) أو إجتماعيا ، إلا أن هناك دائما فرق بين معرفة تصور هذا الواقع تصويراً موضوعياً دقيقاً وبين معرفة أخرى تعكس هذا الواقع بصورة مخالفة لما هو عليه فعلا . والنوع الأول من المعرفة هو ما يطلق عليه المعرفة العلمية ، وهى تلك المعرفة التى اكتسبها الإنسان من خلال محاولاته الدائمة للسيطرة على الطبيعة (بجوانبها الفيزيقية والبيولوجية والاجتماعية) وإخضاعها لإرادته عن طريق عمله الجماعى والتى مكنته بدورها من التنبؤ بالظاهرات المختلفة والتحكم فيها . أما النوع الثانى من المعرفة (غير العلمية) فيتمثل فى المعرفة الميتافيزيقية التى تفسر ظاهرات الكون الطبيعية بقوى فوق طبيعية وفى المعرفة الأدبية والفنية التى تعكس ظاهرات الكون من خلال المشاعر الذاتية للأدباء والفنانين . ولكى نوضح هذه الأنواع الثلاثة من المعرفة (العلمية والميتافيزيقية والفنية) نضرب لذلك مثلا بإحدى الظاهرات التى يمكن أن تكون موضوعا لهذه الأنواع من المعرفة ولتكن الشجرة . المعرفة العلمية تحاول تصوير الشجرة بموضوعية بحيث تعطينا عنها صورة فكرية أقرب ما تكون إلى صورة هذه الشجرة فى الواقع . فعالم الحياة يصف لنا الشجرة بدقة بأجزائها المختلفة ويبين لنا كيفية نموها ويفسر لنا ما بين هذا الكائن الحى وبين التربة التى ينشأ فيها من علاقات ويشرح لنا العمليات (البيولوجية) أو (الحيوية) التى تتم بداخله — كعملية التمثيل الكلوروفيلى أو الضوئى .

وبناء على هذه المعرفة نستطيع أن نتحكم بنجاح فى هذه الظاهرة ، أى نستطيع أن نزرعها فى المكان المناسب والوقت الملائم ، ونستطيع أن نزيد من سرعة نموها عن طريق تزويدها بما تحتاج إليه فعلا من أسمدة أو مياه ، كما نستطيع أن نزيد من محصولها أو نحسن منه ... الخ . أما المعرفة الميتافيزيقية فإنها تمدنا بصورة عن

القوى فوق الطبيعة التى تتحكم فى هذه الظاهرة . ومن أمثلة هذه المعرفة ما كانت تتصوره الأقوام البدائية من أن كل شيء بالكون تسكنه روح هى التى تحدد سلوكه وكان هـــذا التصور يعرف بما يسمى بإحياء المادة Animism . وكانت وسيلة التحكم فى هذه الظاهرات تبعاً لهذا النوع من المعرفة وسيلة ميتافيزيقية أيضاً ، تتمثل فى إقامة طقوس معينة كالرقص لإرضاء هذه الروح حتى تفعل ما يريده الانسان . (مثلما كان يفعل قدماء المصريين فى طقوسهم لإرضاء النيل بإلقاء عروس البحر فيه حتى يأتى الفيضان) ويمكننا أن نقارن هنا بين درجة نجاح هذه الوسيلة من التحكم القائمة على المعرفة الميتافيزيقية وبين درجة نجـاح إقامة السدود كوسيلة للتحكم فى مياه النيل والقائمة على المعرفة العلمية .

أما المعرفة الأدبية أو الفنية فإنها تصور لنا نفس الظاهرة (الشجرة) من خلال مشاعر الأديب والفنان الذى يبرز لنا جوانب معينة منها ويضفى عليها معان لا توجد فيها ذاتها ولـكنها توجد فى عقل الانسان ، ولا تهدف هذه المعرفة إلى التحكم فى الظاهرة أو السيطرة عليها بقدر ما تهدف إلى تحقيق مشاعر إنسانية معينة نحوها أو إستمداد مشاعر منها (كالجمال مثلا) .

المعرفة العلمية إذا تتصف بصفتين أساسيتين أولهما أنها تصور الواقع تصويراً موضوعياً ، أى أنها تعكس هـــذا الواقع كما هو عليه ، ليس فى خصائصه الظاهرة فحسب ولـكن فى جوهره ، وثانيهـا أنها تمكننا من التعامل مع هـذا الواقع بكفاءة عن طريق التحكم فيه والسيطرة عليه . والعلم يستطيع التوصل إلى تصوير الواقع الذى يدرسه تصويرا موضوعيا لأن العلماء يستخدمون فى دراساتهم منهجا Method أو أسلوباً خاصا تم إكتشافه من خلال الدراسات العلمية المتعددة فى كافة المجالات

يعرف بالمنهج العلمى Scientific method ويتصف هذا المنهج بعدة خصائص — أهمها[1] :

أولا

الاعتماد على الأدلة التى يمكن التحقق من صدقها لقبول أو رفض أى حكم أو فكرة . والأدلة هنا تعنى الوقائع Facts التى يمكن لأى عالم مدرب على الملاحظة العلمية أن يلاحظها ويرتبها أو يقيسها أو يحصيها وأن يتأكد منها . وهذه الخاصية تحدد نوعية الظاهرات التى يدرسها العلم . فالعلم لا يدرس إلا تلك الموضوعات التى يمكن الحصول على أدلة محسوسة عنها أو بعبارة أخرى العلم لا يدرس إلا الأشياء التى لها وجود موضوعى فى الطبيعة .

وهذه الخاصية تجعل العلماء مرنين فى تفسيراتهم للظاهرات التى يدرسونها فإذا ما جدت أدلة تنفى ما سبق أن توصلوا إليه من تفسيرات فإنهم يرفضون هذه التفسيرات على الفور أو يعدلون منها . وعلى ذلك فليس فى العلم صدق أو حقيقة مطلقة Absolute truth ولكن الصدق دائما فى العلم نسبى relative ، فالعلماء لا يعتقدون أن هناك استنتاجات تصلح لكل زمان ومكان فى ظل كل الظروف . وجميع الاستنتاجات العلمية تخضع للتعديل بل وحتى للرفض إذا ما وجدت أدلة جديدة تستدعى ذلك . وهذا ما يفرق بين العلم والعقيدة .

والعلماء يحصلون على الأدلة عن طريق إجراء الملاحظات العلمية التى تختلف عن الملاحظات العادية فى أنها تتصف بعدة صفات — أهمها[2] :

---

(١) انظر فى ذلك : G. Sjoberg and R. Nett. opt. cit. pp. 23—28.
وكذلك : عماد الدين إسماعيل : المنهج العلمى وتفسير السلوك (القاهرة — النهضة المصرية — ١٩٦٢) ص ٤٠ — ٥٤ .

(2) Paul Horton and Chester L. Hunt : Sociology (New-York, Mc Grow Hill. 1964) pp. J0—16.

(١) الدقة : Accuracy

ونعنى بها أن العالم يتأكد دائماً من أن وصفه للأشياء التى يلاحظها مطابق لما هى عليه فى الواقع . فالعالم لا يقول مثلا أن « هذه الغابة مليئة بالأشجار الميتة » إلا إذا تأكد تماما بعد فحص جميع الأشجار أنها قد ماتت فعلا . كما أنه لا يقول « أن الأسر المصرية قد أصبحت الآن أقل حجما مما كانت عليه من قبل » ، ولكنه يحدد بدقة حجم الأسرة الآن وحجمها فى فترة سابقة محددة قبل أن يصدر هذا الحكم .

(ب) التحديد : Prceision

تتصف الملاحظة العلمية أيضا بالتحديد . وبينما تعنى الدقة صحة الملاحظة يعنى التحديد تعيين درجة معينة للشىء الملاحظ . فقولنا أن الغابة مليئة بالأشجار الميتة ملاحظة دقيقة إذا تأكدنا من موت الأشجار ، ولكنها ملاحظة غير محددة لأن كلمة مليئة غير واضحة . ولكننا إذا قلنا أن جميع أشجار الغابة ميتة أو أن ٩٠ ٪ منها ميتة لكانت ملاحظاتنا دقيقة ومحددة أيضا .

لذلك فإن العلماء يعتمدون فى ملاحظاتهم على « القياس » Mensnrement ويستخدمون لذلك مختلف المقاييس الدقيقة مثل الترمومتر لقياس درجة الحرارة والبارومتر لقياس الضغط ومقاييس الذكاء والشخصية والاتجاهات الاجتماعية .... الخ

(جـ) التسجيل الدقيق :

يلجأ العلماء دائما إلى تسجيل ملاحظاتهم بدقة حتى يمكن الرجوع إليها فيما بعد ومقارنتها بملاحظات غيرهم ، وهم لا يعتمدون على ذاكرتهم لما يمكن أن تحدثه من تشويه أو نقص فى دقة الملاحظات . وهم يستخدمون لذلك أجهزة التسجيل الدقيق فى مختلف المجالات .

(د) الموضوعية :

الموضوعية فى الواقع محصلة الصفات الأربع السابقة التى إذا توفرت كان وصف العالم للشيء المدروس أقرب ما يكون لما هو عليه فعلا وليس لما يرغب أن يكون . ولكن من حق العالم بعد أن يقدم هذا الوصف الموضوعى للظاهرة موضوع الدراسة أن يصدر عليه حكما ما بناء على ما هو متوافر لديه من معلومات أو بيانات ، وهذا الحكم بدوره يكون موضوعيا إذا كان يعتمد على الأدلة . فمن حق العالم مثلا بعد أن يصف سلوك الذباب أن يصدر حكما بأن الذباب ضار بصحة الإنسان وأن يحدد أساليب إبادته .

هذا عن الخاصية الأولى للمنهج العلمى ، وهى الاعتماد على الأدلة المستقاة من الملاحظة الدقيقة والمحددة والمنظمة والمسجلة بدقة والتى تتوفر فيها الموضوعية .

ثانيا :

التسليم بمبدأ الحتمية : Determinism

يسلم المنهج العلمى بأن جميع مظاهر الكون نتاج لعمليات أو أحداث طبيعية فكل ظاهرة لها تاريخ يتلخص فى الأحداث التى سبقت حدوث الظاهرة ، وبناء على ذلك فإن العلماء لا يقتصرون على وصف أى ظاهرة أو حدث ولكنهم يسعون دائما إلى اكتشاف العلاقات بين الظاهرة التى يدرسونها وبين ما سبقها من أحداث أدت إلى وقوعها . وتختلف الحتمية العلمية عن الحتمية الميتافيزيقية فى أن الحتمية العلمية تفتش عن مسببات الظاهرة فى الطبيعة بينما تفتش الحتمية الميتافيزيقية عن مسببات الظاهرة فى قوى فوق طبيعية . والتسليم بمبدأ الحتمية الطبيعية فى المنهج العلمى هو الذى أدى بعلماء الحيـــاة إلى اكتشاف مسببات الأمراض فى الجسم الانسانى أو فى البيئة الطبيعية (مثل الميكروبات) وبالتالى أمكن علاج هـذه

الأمراض بالأساليب العلمية الناجحة ، كما أن التسليم بمبدأ الحتمية الطبيعية هو الذى أدى إلى اكتشاف مسببات الفيضانات ، وبالتالى أمكن التحكم فيها بإقامة السدود. وجميع القوانين العلمية قد تم التوصل إليها نتيجة التسليم بهذا المبدأ .

ثالثاً :

التسليم بترابط ووحدة ظاهرات الطبيعة

يسلم المنهج العلمى بأن جميع ظاهرات الكون مترابطة ومتفاعلة مع بعضها البعض ، وبالتالى فإن على العلماء أن يكشفوا عن طبيعة هذا الترابط والتفاعل وأن يتوصلوا إلى القوانين التى تحكمه . وقد أمكن للعلماء استرشادا بهذا المبدأ أن يتوصلوا إلى الكثير من القوانين سواء فى مجال الظاهرات الجامدة (الفيزيقية) أو الظاهرات الحية (البيولوجية) أو الظاهرات الإنسانية الاجتماعية . فقانون الجاذبية ليس إلا تعبيراً عن تفاعل الأجرام السماوية . فالأرض ترتبط بغيرها من الكواكب فى المجموعة الشمسية كما أن المجموعة الشمسية ذاتها ترتبط بغيرها من التكوينات والمجموعات السماوية .

والكائنات الحية ترتبط ببعضها البعض ويتأثر كل منها بالآخر ويؤثر عليه ليس هذا فحسب ، ولكن هذه الكائنات جميعا ترتبط بالبيئة التى تعيش فيها وتتأثر بها وتؤثر عليها وليس أدل على وحدة وترابط جميع ظاهرات الكون مما تم للعلماء اكتشافه عن العلاقة بين الشمس (ظاهرة فيزيقية) والحياة . فالطاقة الشمسية تؤدى إلى ما يعرف بظاهرة التمثيل الكلوروفيللى فى النبات حيث يمتص النبات الكربون الذى يوجد فى ثانى أكسيد الكربون وينطلق الأكسجين الذى يتنفسه الانسان . وهكذا نرى أن النبات يمثل حلقة فى سلسلة التفاعلات بين الظاهرات

الفيزيقية والحية . فبدون الشمس لن يوجد النبات وبدون النبات لا وجود للإنسان أو لغيره من الكائنات الحية . وعلى هذا فإنه لكى نستطيع فهم أى ظاهرة فى الكون لا بد لنا من أن ندرس كل جوانبها وجميع العلاقات بين هذه الجوانب ليس هذا فحسب ولكن لا بد لنا أيضاً أن ندرس علاقة هذه الظاهرة بغيرها من الظاهرات .

رابعاً :

التسليم بأن هناك درجة من الاستمرارية أو الثبات النسبى والانتظام فى ظاهرات الكون . فالمنهج العلمى على الرغم من تسليمه بأن جميع ظاهرات الكون فى حالة تغير دائم ، إلا أن هذا التغير لا يحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية أو عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتاً نسبياً ، فما يحدث على نحو معين فى ظل ظروف معينة سوف يتكرر على نفس النحو تقريباً إذا توفرت نفس الظروف . ولذلك فإن العلماء يحددون مهمتهم بأنها البحث عن القوانين الثابتة نسبيا وراء ما هو متغير .

إن استخدام المنهج العلمى الذى يتصف بهذه الخصائص الأساسية الأربعة فى تحصيل المعرفة هو الذى يميز إذا بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية ، وعلى ذلك يمكننا تعريف العلم تعريفا مبسطا بقولنا « أنه المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمى » . وهذه المعرفة ذات طبيعة تراكمية وتمكن الانسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية ، ولكن ما هى مكونات هذه المعرفة ؟

٢ ـ مكونات العلم :[1]

رأينا أن المعرفة العلمية تختلف عن غيرها من أنواع المعرفة فى المنهج الذى يتبع فى التوصل إليها ، والذى يحدد بما يتضمنه من مسلمات طبيعة الظاهرات القابلة للدراسة العلمية من جهة (الظاهرات الطبيعية الخاضعة للملاحظة وذات الوجود الموضوعى المستقل عن إرادتنا) ويحدد من جهة أخرى كيفية دراسة هذه الظاهرات واستخلاص النتائج منها كما يقرر الهدف من هذه الدراسة . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن المعرفة العلمية تتكون من ثلاث عناصر رئيسية :

١ ـ ملاحظات منظمة دقيقة ومحددة وموضوعية لوقائع Facts فى الكون .

٢ ـ إجراءات تستخدم فى هذه الملاحظات (مثل القياس والتجربة) .

٣ ـ استنتاجات عامة من هذه الوقائع تبين العلاقات الترابطية والسببية بينها .

ومن الواضح أن المعرفة العلمية بعناصرها الثلاث هذه تختلف عن أى معرفة أخرى . فالمعرفة التى توجد لدى الناس العاديين والتى يكتسبونها من خلال تجاربهم اليومية إنما تتضمن أساساً الملاحظات التى يقومون بها للأشياء المحيطة بهم دون أن يدركوا العلاقات الجوهرية بين هذه الأشياء وبعضها البعض أو يكونوا استنتاجات عامة عنها . والمعرفة الميتافيزيقة والفنية والأدبية لا تزيد عن كونها تأملات فكرية لا تستند على ملاحظات منظمة ودقيقة وموضوعية لوقائع موجودة فى الكون أو بعبارة أخرى لا تستند على أدلة مستمدة من الواقع تخضع للاختبار والتحقق

---

(١) أنظر :

1—V. Afanasyv : Marxist Philosophy.

2—J.D.Bernal : Science in History.

3—C.Sjoberg : Methodology in Social Research.

من صدقها . والمعرفة العلمية وحدها هي التي تجمع بين الملاحظات المنظمة أو الموضوعية لوقائع الطبيعية وبين الاستنتاجات التي يصل إليها العلماء عن العلاقات الترابطية والسببية بين هذه الوقائع . وسوف نتحدث فيما يلي بالتفصيل عن عناصر المعرفة العلمية أو مكونات العلم والعلاقة الجدلية بين بعضها البعض .

تتكون المعرفة العلمية من جانبين : جانب حسي يسمى بالمعرفة الحسية أو العيانية Concrete ونعتمد فيها على الخبرة الحسيه التي تزودنا بها أعضاء الحس . وجانب منطقي أو عقلي يسمى بالمعرفة العقلية ، أو المجردة Abstract ونعتمد فيها على العقل أو وظائف المناطق العليا بالمخ .

وهذان الجانبان لا انفصال بينهما بأي حال من الأحوال ، ولكنهما يمثلان حلقتين متصلتين في سلسلة المعرفة العلمية ، ومن خـــلال تفاعلهما تتقدم المعرفة وتتطور .

الجانب الحسي : تبدأ المعرفه دائما بالخبرة الحسية فهي التي تزودنا بالخبرة المباشرة بموضوعات العالم الخارجي المحيط بنا والمستقل عنا . فأول انطباع عن العالم الخارجي يأتينا عن طريق أعضاء الحس فهي النافذة التي تدخل منها موضوعات العالم الخارجي إلى عقل الإنسان ، وأعضاء الحس جزء من الجهاز الحسي الذي يتكون من أعضاء الحس والأنسجة العصبية ومناطق الاحساس في المخ ، والمثيرات الخارجية التي توجد في العالم الخارجي تحدث تهيجات في عضو الحس تنتقل عبر الأنسجة العصبية إلى المخ لتتحول إلى إحساسات . فالمثير الصوتي مثلا يحدث تهيجات بالاذن تنتقل الى المناطق الحسية بالمخ لتصبح إحساسات صوتية والمثير الضوئي يؤثر على العين ويتحول إلى إحساسات ضوئية ، وهكذا بالنسبة لباقي الحواس . وبدون هذه الخطوة الأولى والأساسية تصبح المعرفة مستحيلة .

وهذه الإحساسات حين تصل إلى المناطق الحسية فى المخ لا تزيد عن كونها أشعة ضوئية مختلفة فى حالة الإحساسات الضوئية مثلا ولا يكون لها أى معنى، ولكن المخ يضفى عليها معنى، أى يحولها من إحساسات إلى مدركات Percepts مثل الشجرة أو المنضدة أو السبورة .. الخ فالادراك يعنى أضفاء معنى على مجموعة معينة من الإحساسات المباشرة. وهذه المدركات المباشرة قابلة للاستعادة فى المخ مرة أخرى بعد حدوثها وفى حالة غيابها . وفى هذه الحالة تسمى افكارا Ideas وأعضاء الحس تمكننا من إدراك موضوعات العالم المحيط بنا ولكن فى جوانبها الخارجية أو السطحية فقط فهى تمكننا مثلا من إدراك ضوء منبعث من لمبة كهربائية ، ولكنها لاتمكننا وحدها من معرفة أن هذا الضوء ناجم عن سيل من الالكترونات تتحرك بسرعة معينة . فالجانب الحسى من المعرفة على الرغم من أنه أساس كل المعرفة الإنسانية لا يمكننا وحده من التعرف على الطبيعة الداخلية للأشياء أى جوهرها ، أو بعبارة أخرى لا يمكننا وحده من التوصل الى القوانين . وهنا يأتى التفكير المجرد أو المنطقى ليلعب دورا هاما فى تعرفنا على جوهر الأشياء .

ويعتمد العلم على الجانب الحسى فى جمع المعلومات الموضوعية عن الظاهرات التى يدرسها . فالعلماء يقومون باجراء الملاحظات الدقيقة والمنظمة عن كافه الظاهرات التى يدرسونها ويعتمدون فى ذلك أساسا على خبرتهم الحسية بها ، وهم يلجأون الى وسائل شتى لزيادة دقة هذه الخبرة الحسية مثل استخدام الأجهزة الدقيقة التى لاتعنى شيئاً أكثر من كونها وسائل مساعدة لأعضاء الحس . فالترمومتر مثلا وسيلة مساعدة لإحساس اللمس والميكرسكوب والتلسكوب وسيلتان مساعدتان لإحساس النظر ، وسماعه الطبيب وسيلة مساعدة لإحساس السمع . وهكذا . . . ولكن المعرفة التى يستمدها العالم من هذه الخبرة الحية تصبح عديمة القيمة تماما اذا لم تستغل بعد ذلك استغلالا عقليا يساعد العلماء على النفاذ إلى جوهر الاشياء التى يدرسونها والتوصل إلى القوانين التى تحكمها .

الجانب العقلي أو المجرد Abstract فى المعرفة العلمية :

إن التفكير المجرد أو المنطق صفة يتصف بها الإنسان وحده من بين الكائنات الحية نظرا لما يتمتع به من جهاز عصبي معقد ومتطور . ويعتمد هذا التفكير على استخدام الرموز Symbol بينما يعتمد الجانب الحسى على استخدام الاحساسات التي ترتبط بالأشياء الملموسة المباشرة . والرمز عبارة عن فكرة توجد فى عقل الإنسان يشير بها الى أشياء ملموسة توجد فى العالم الخارجى . ولكن هذه الرموز تتدرج من الرموز البسيطة التى ترتبط مباشرة بأشياء خارجية الى رموز أكثر تعقيدا تشير إلى ما هو مشترك بين مجموعة من الأشياء . فرمز « السيارة » مثلا يشير إلى شيء معين ملموس أمامنا ، ولكن لفظ « وسائل النقل » يشير الى خاصية مشتركة بين مجموعة من الأشياء تبدو ظاهريا شديدة الاختلاف (الدواب — السيارات القطارات — الطائرات — السفن) ، وأول وأبسط شكل من أشكال الرمز هو « المدرك » الذى نصور به الشيء الذى نلاحظه فى عقلنا فى خصائصه الخارجية فقط . ولكن هناك اشكالا أخرى من الرموز المعقدة تساعدنا على تصوير الأشياء فى جوهرها ، وتعرف هذه الرموز بالمفهومات Concepts والمفهومات تشكل العناصر الرئيسية فى المعرفة العقلية أو فى النظرية العلمية . فأى نظرية علمية تتكون من عدد هائل من هذه المفهومات التى ترتبط مع بعضها البعض لتشكل متناسق فى شكل فروض أو قوانين أو تعميمات . أنظر مثلا إلى هذه العبارة : المعادن تتمدد بالحراره وتنكمش بالبرودة . تتكون هذه العبارة من مجموعة من المفهومات أو الرموز المترابطة التى تصور الخصائص الجوهرية لعدد لانهايه له من الأشياء التى تمت ملاحظتها باستخدام أعضاء الحس . ولنأخذ مفهوما واحد منها وليكن المعادن . هذا المفهوم فى حد ذاته مركب ويتضمن عددا من المفهومات الأخرى ، مثل الحديد والن[illegible]ب والألمنيوم . . . الخ ومفهوم الحديد يشير إلى مجموعة من المدركات التى

توجد فى الطبيعة (قطع من مادة معينة) ولكنه يركز على الخصائص الجوهرية لها ويهمل كافة الخصائص الثانوية أو السطحية مثل الأشكال المختلفة التى توجد عليها هذه المادة وبالمثل يشير مفهوم المعادن إلى الخصائص الجوهرية المشتركة بين أنواع شتى من المادة ويهمل الخصائص الثانوية أو السطحية لها مثل اللون أو الشكل .

والعلماء (وكذلك الإنسان بصفة عامة) يتوصلون الى المفهومات عن طريق عمليتين أساسيتين يتمان فى العقل هما . التحليل Analysis وهى العملية التى نقسم بها الظاهرة التى نلاحظها إلى عناصرها أو جوانبها المكونه لها من أجل فهم أهمية كل جانب فى الظاهرة واختيار الجوهرى منها والتأليف أو التركيب Synthesis وهى العملية التى نقوم فيها بتجميع أو تركيب الاجزاء أو العناصر الهامة فى الظاهرة سويا . فمفهوم « الإنسان » مثلا تم التوصل اليه عن طريق تحليل الخصائص أو الجوانب التى توجد لدى أفراد متعددين : مثل اللون وشكل الجسم والسن والنوع ومكان الاقامة والسلوك . . . ألخ . ثم اختيار أهم هذه الجوانب وأكثرها جوهريه والتى تميز بين الانسان وغيره من الكائنات الحية مثل التفكير أو اللغة أو العقل والقدرة على العمل ، ثم تركيب هذه الخصائص الجوهرية سويا وابتداع رمز يشير إليها هو « الإنسان » ، ونلاحظ هنا أنه قد تم إهمال الخصائص الثانوية والسطحية التى يختلف فيها بنوا البشر عن بعضهم البعض .

والمفهومات على الرغم من أنها نتاج للتفكير العقلى أو المجرد إلا أنها مستمدة أساسا من ملاحظة الواقع أو من الخبرة الحسية . وعلى ذلك فإنه كلما ازدادت خبرة الإنسان وتعمقت بالعالم المحيط به كلما ازداد عدد المفهومات لديه .

ونظرا لأن كل علم من العلوم يقوم بدراسة نوع معين من الظاهرات الطبيعية فإن لكل علم تصبح له مفهوماته الخاصة به . ولما كان العلم يتصف بالدقة فإن كل مفهوم

من المفهومات التى يستخدمها لابد أن يعرف بدقة عن طريق تحديد ما يشير إليه من العلاقات بين المدكات وبذلك يسهل الاتصال بين العلماء.

وكل أشكال المعرفة العقلية أو المجردة تتكون من مفهومات فى علاقات مترابطة فيما بينها. ومن هذه الأشكال:

١ — الأحكام أو القضايا:

وهى عبارة عن تقديرات أو تعبيرات عن أشياء تمت ملاحظتها وتتضمن مجموعة من المفهومات المترابطة، مثل قولنا: الشمس تشرق من جهة الشرق، أو يمر الكائن الحى بمراحل نمو مختلفة، أو تسقط الامطار شتاء.

٢ — الفروض:

وهى عبارة عن تقريرات عن علاقات محتملة بين ظاهرات أو أحداث مختلفة ولكن لم يتم التأكد منها بالأدلة القاطعة، مثال ذلك: «تصنيع الريف يؤدى الى انخفاض نسبة جرائم الثأر» — أو «توجد حياة فوق سطح المريخ». ويلاحظ هنا أن الفرض يتكون الى عدة مفهومات أيضا، كما أنه يكون دائما مستندا على ملاحظات عديدة سابقة ويدعونا الى إجراء مزيد من الملاحظات.

٣ — القانون:

يشير الى علاقة ثابتة بين متغيرين أو أكثر فى ظروف معينة، وهذه العلاقة قد أمكن التأكد منها بالأدلة. وهو مثل الفرض يتضمن نوعا من التعميم إلا أن التعميم فى حالة الفرض يكون احتماليا فإذا ما وجدت أدلة تؤكده تحول إلى قانون. ويعبر القانون عن نظام محدد من الروابط السببية والثابتة بين الظاهرات وعن العلاقات الجوهرية بينها والتى يتسبب فيها تغير بعض الظواهر فى تغير محدد لظواهر

أخرى . وتتخذ القوانين أشكالا مختلفة تتدرج من الشكل البسيط إلى الشكل المعقد . ويمكننا التمييز بين ثلاث أنواع من القوانين :

١ ــ القوانين النوعية أو الجزئية .

٢ ــ القوانين العامة التى تتعلق بمجموعات كبيرة من الظاهرات .

٣ ــ القوانين الكلية أو الشمولية التى تتعلق بالكون بأسره .

٤ ــ النظرية :

يمكننا تعريف النظرية بشكل عام بأنها نسق من المعرفة المعممة تفسر الجوانب المختلفة للواقع . وتختلف النظرية العلمية عن غيرها من النظريات فى أنها تخضع للتحقق من صدقها عن طريق الملاحظة الأمبيريقية (التجريبية) . وتمثل النظرية أعلى درجة من درجات التجريد Abstraction والتعميم Generalization فى العلم . وتفسر النظرية القوانين تماماً مثلما تفسر القوانين الوقائع Facts التى تمت ملاحظتها وتوجد العلاقة بينها . كما أنها تساعد العلماء فى نفس الوقت على اكتشاف قوانين جديدة أو وضع فروض لاختبار صدقها .

ويرى جدعون جوبرج فى كتابه مناهج البحث الاجتماعى[1] أن للنظرية العلمية ثلاثة أبعاد رئيسية :

١ ــ الشكل أو البناء المنطقى .

٢ ــ المضمون ، أى التعميمات المتعلقة بطبيعة الظاهرات التى تدرسها .

٣ ــ الافتراضات المتعلقة بالمنهج الذى يستخدم فى جمع الوقائع وطبيعة المادة التى يدرسها العلم .

(1) G. Sjoberg : opt. cit. pp.

وأى نظرية من ناحية الشكل أو البناء المنطقى تتكون حسبما يقول تيماشيف فى كتابه نظرية علم الاجتماع[1] من مجموعة من القضايا تتسق كل منها مع الأخرى وتنتظم بشكل معين يسمح باشتقاق تعميمات منها بطريقة استنباطية كما تسمح باستكشاف الطريق للملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة .

٣ — العلاقة بين الجانبين الحسى والعقلى فى العلم :

من عرضنا السابق لطبيعة الجانب الحسى والجانب العقلى فى العلم يتضح أن هذين الجانبين لا انفصال بينهما على الاطلاق وأن العلاقة بينهما دائماً علاقة جدلية . فالمفهومات والأحكام والقوانين والنظريات كلها قائمة فى الأساس على ملاحظات حسية لمعطيات الواقع المادى الذى يدرسه العلم ، كما أن هذه الجوانب العقلية جميعها ترشد العالم بعد ذلك عند إجرائه لمزيد من الملاحظات العلمية باستخدام أعضاء الحس ، وكلما تطورت المعرفة العقلية كلما أمكن للعلماء جمع حقائق جديدة ، وكلما جمعت حقائق جديدة كلما أدى ذلك إلى تطوير المعرفة العقلية والوصول إلى نظريات أكثر اتساعاً وشمولا وصدقا . ولما كانت النظرية العلمية هى أكثر عناصر الجانب العقلى من العلم تجريداً أو تعميما فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن أهم وظائف النظرية فى العلم .

يحدد ويليام جـــود Goode وبول هات Hatt فى كتابهما مناهج البحث الاجتماعى[2] وظائف كل من النظرية (الجانب العقلى) والوقائع (الجانب الحسى) فى العلم على النحو التالى :

---

(١) نيقولا تيماشيف — مرجع سابق ص .

(٢) Good and Hatt p. Methods in Social Research. (New York, Mc Graw Hill, 1952) pp. 8 — 12.

أولا : وظائف النظرية فى العلم :

١ — تحديد الإتجاه الأساسى للعلم عن طريق تحديد نوع المادة أو الوقائع التى يجب جمعها عن الظاهرة المدروسة . فلو كانت الظاهرة موضوع الدراسة مثلا هى كرة القدم ، فإن النظرية الاقتصادية سوف توجه العالم لجمع حقائق عن أنماط العرض والطلب التى تتصل بتسويقها فى الوقت الذى تحدد النظرية الكيماوية جمع حقائق عن تكوين الكرة من الناحية الكيميائية وتوجه النظرية الفيزيائية العالم نحو حقائق عن كتلة الكرة والضغوط المختلفة التى تؤثر على ثقلها وسرعتها . أما النظرية الاجتماعية فهى توجه العالم لجمع حقائق تتعلق بالأنشطة الاجتماعية المتصلة بالكرة ونوعية التنظيمات الاجتماعية الخاصة بهذا النشاط وهكذا .

٢ — تقديم إطار تصورى Conceptual Scheme يسترشد به العالم عند جمعه للحقائق . وهذا الإطار يساعد العالم على إدراك ما بين الوقائع من علاقات ويرشده إلى نوعية الوقائع التى يتعين عليه جمعها .

٣ — تلخيص الوقائع وتلخيص العلاقات بينها .

إن كل قانون وكل فرض بل وحتى كل مفهوم تتضمنه النظرية ليس إلا تلخيصا أو تكثيفا هائلا لعدد لا نهاية له من الملاحظات التى قام العلماء بإجرائها . فمفهوم الخلية الحية مثلا يلخص فى كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت عن شكل او صورة معينة من المادة ومفهوم الأسرة يفعل نفس الشىء ، والقوانين تلخص العلاقات المتعددة بين الظاهرات موضوع الدراسة ، والنظرية تلخص العلاقات بين القوانين ، وبدون عملية التلخيص والتنظيم هذه يتعذر تماماً الإلمام بمكتشفات العلم أو استنتاج أى شىء منها .

٤ — التنبؤ بالوقائع :

إذا كانت النظرية تلخص الوقائع وتقرر وجود نظام عام يربط بين الملاحظات التى يتوصل إليه العالم فإنها تصبح أيضا تنبؤات بما سيحدث فى المستقبل . فقولنا مثلا أن المعادن تتمدد بالحرارة يعنى فى نفس الوقت أنه إذ لم تترك مسافات مناسبة بين قضبان السكك الحديدية فإنها سوف تتقوس نظراً لتمددها . وقولنا أن البعوض ينقل مرض الملاريا يعنى فى نفس الوقت تنبؤا بأن نسبة هذا المرض ستقل إذا ردمنا البرك والمستنقعات التى يتوالد فيها البعوض . وهكذا .

٥ — تحديد أوجه النقص فى معرفتنا .

إننا لا نستطيع أن نعرف ما ينقصنا فى أى مجال الا إذا عرفنا أولا ما هو متوفر لدينا ، وإذا كانت المعرفة المتوفرة لدينا من الكثرة فإنه يصعب علينا أن نعرفها جيدا . ولما كانت النظرية تلخص وتنظم المعرفة المكتسبة فإنها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة وبالتالى ترشدنا الى الجوانب التى يجب أن نركز بحثنا عليها .

٦ — النظرية تقوم بمهمة ترشيد التطبيق :

أن الغاية النهائية للعلم هى التطبيق ، بمعنى أن العلماء يدرسون ظاهرات الكون ويحاولون التوصل الى القوانين التى تحكمها من أجل استخدام نتائج دراساتهم فى التعامل مع الطبيعة والسيطرة عليها . والنظرية العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التى اكتشفها العلماء تقوم بمهمة ترشيد أى توجيه التطبيقات العملية فى مجالات الحياة المختلفة . فقوانين الطفو مثلا ساعدت على بناء السفن ولظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات ، وهكذا .

والعلاقة بين الممارسة أو التطبيق من جهة وبين النظرية العلمية من جهة أخرى

علاقة متبادلة . فمحك صدق النظرية هو نجاح ما تشير اليه من تطبيقات عملية ، كما أن التطبيقات العملية والممارسة ، تدعو العلماء الى استكمال أو تعديل نظرياتهم .

ثانيا : وظائف الوقائع فى العلم :

إن النظرية (التى تمثل أعلى مراحل الجانب العقلى فى العلم) والوقائع (التى يمثل وصفها وملاحظتها الجانب الحسى فى العلم) يمثلان كما سبق أن ذكرنا وحدة عضوية . ولا وجود لأحدهما دون الآخر . فالمعرفة العقلية أو المجردة مستحيله دون معرفة حسية ذلك أن المعلومات التى تمدنا بها أعضاء الحس هى المادة الأولية أو الأساسية التى تتكون على أساسها المفهومات (العناصر أو المكونات الأساسية للمعرفة العقلية) كما سبق أن ذكرنا . كما أن المعرفة الحسية وحدها لا يمكن أكتسابها دون توجيه عقلى . فالمعرفة العقلية تضفى معنى أعمق على المعلومات التى تزودنا بها أعضاء الحس وتمكننا من معرفة جوهر الظاهرات التى ندرسها . ومثلما بينا دور النظريه فى العلم فإننا يجب أن نبين أيضا دور الوقائع فى العلم .

إن الوظيفة الأولى لملاحظة الوقائع هى المساعدة على تكوين النظرية ، فمن خلال الملاحظة الحسية للظاهرات يمكن تكوين المفهومات فالفروض فالقوانين فالنظريات . فالنظريه مستحيله دون ملاحظة حسية لوقائع الكون . ولكن يجب الا ألا ننسى أننا فى جمعنا للوقائع نسترشد دائما بما سبق صياغته من نظريات .

والوظيفة الثانية لملاحظة الوقائع هى تعديل أو إعادة صياغه النظرية ذلك أن عملية البحث العلمى عملية دائمة ومستمرة ، وا كتشاف وقائع جديدة يؤدى باستمرار الى تعديل النظرية أو إعادة صياغتها لكى تتلاءم مع الوقائع الجديدة التى تم اكتشافها .

أما الوظيفة الثالثة لملاحظة الوقائع فهى توضيح النظرية وإثبات صدقها ، فكلما

توصل العلماء إلى اكتشاف وقائع جديدة كلما أدى ذلك الى إثبات صحة النظرية .

وتتضح الوحدة العضوية بين النظرية أو المعرفة العقلية من جهة والوقائع أو المعرفة الحسية من جهة أخرى فى العلوم الطبيعية أكثر منها فى العلوم الاجتماعية ، فما زالت العلوم الاجتماعية تعانى من الانفصال بين الجانبين . وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عند تناولنا للنظريات الاجتماعية . وسنبين أسباب هذا الانفصال بين جانبي المعرفة العلمية فى العلوم الاجتماعية ونتائجه بالنسبة لهذه العلوم .

الفصل الثانى

النظرية الاجتماعية بين الواقع الممكن

إن ما سبق لنا الحديث عنه فيما يتعلق بمكونات العلم والعلاقة العضوية بين الجانبين الحسى والمعرفى والاعتماد المتبادل بين النظرية من جهة والوقائع من جهة أخرى إنما يمثل الصورة النموذجية أو المثالية للمعرفة العلمية بصورة عامة . ولكن هذه الصورة غير متحققة فى ميدان علم الاجتماع بصفة خاصة . وقد قرر عالم الاجتماع الأمريكى الشهير رايت ميلز فى كتابه « التصورات السوسيولوجية[1] » أن هذا العلم يوجد به انقسام وعدم تكامل بين المعرفة الحسية من جهة والمعرفة العقلية من جهة أخرى . فهناك بين علماء الاجتماع من يقتصر عملهم على مجرد جمع وقائع جزئية عن الحياة الاجتماعية دون أن يؤدى جمع هذه الوقائع إلى صياغة نظرية عامة عن المجتمع — ودون أن يسترشدوا فى جمع الوقائع بنظرية عامة . وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يقومون بصياغة نظريات عامة عن المجتمع تتصف بالصبغة التأملية أو المكتبية دون أن تعتمد هذه النظريات على وقائع تمت ملاحظتها والتأكد من صحتها . وقد أطلق رايت ميلز على الفريق الأول أصحاب اتجاه الامبيريقية أو التجريبية المجتزأة abstracted empiriciam وعلى الفريق الثانى أصحاب اتجاه النظريات المتضخمة grand theories وبين ميلز فى كتابه عقم الاتجاهين وكيف أن كلا منهما يؤدى إلى عرقلة نمو علم الاجتماع ويعوق الوصول إلى الفهم العلمى السليم للظاهرات الاجتماعية .

---

(1) Mills, C.W. The Sociological Imagination. (London, Oxford University Press 1969).

وقد كان من جراء ذلك ما نجـــده الآن فى ميدان علم الاجتماع من تعدد فى النظريات. وعلى عكس ما نجده فى العلوم الطبيعية من وحدة النظرية. وإذا كان أى علم من العلوم يتصف بالوحدة بين الجانبين الحسى والعقلى فإن هـذا الانقسام الواضح فى علم الاجتماع إنما يدل على أنه لم يبلغ فى الواقع بعد المستوى المطلوب. وأن نظرياته التى لا تدعمها الحقائق لا تزيد عن كونها تأملات فكرية ولا ترقى إلى مستوى النظريات العلمية. ولا يجب أن يتبادر إلى أذهاننا أن هناك استحالة فى الوصول إلى نظريات علمية فى ميدان علم الاجتماع. فذلك ممكن تماماً لأن الظاهرات الاجتماعية التى يدرسها هذا العلم ظاهرات طبيعية أى توجد فى الطبيعة ويمكن إخضاعها تماماً للدراسة بالمنهج العلمى وبالتالى يمكن الوصول إلى القوانين التى تحكمها وصياغة نظرية عامة عنها. ولكن عجز علم الاجتماع عن تحقيق ذلك حتى الآن يرجع إلى أسباب اجتماعية وأيديولوجية تناولها الكثيرون من علماء الاجتماع بالشرح وبالتفصيل وسوف نعرضها بعد أن نشرح الموقف الراهن للنظرية الاجتماعية.

معنى النظرية الاجتماعية :

تتفق النظرية الاجتماعية مع غيرها من النظريات العلمية من حيث بنائها ووظائفها فى العلم ولكنها تختلف عنها من حيث المضمون. فالنظرية الاجتماعية تهدف إلى تقديم تفسيرات وتصورات عامة للحياة الاجتماعية من حيث تطورها ونشأتها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من جوانب هذه الحياة بغيره من الجوانب، تماماً مثلما تهدف النظرية البيولوجية إلى تقديم صورة موضوعية عن نشأة الحياة وتطورها وعناصرها ومكوناتها والعلاقات بين جوانبها المختلفة. ومثلما يوجد فى علم الحياة، نظرية عامة عن الحياة بأسرها ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال هذه الحياة، يفترض أن يوجد فى علم الاجتماع نظرية عامة ونظريات نوعية عن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية.

وعلى الرغم من اختلاف علماء الاجتماع حول معنى النظرية الاجتماعية وأهدافها وحدودها إلا أن تحليل النظريات الاجتماعية فى الماضى والحاضر يدل كما يقرر تيماشيف[1] على أنها تدور حول عدة تساؤلات عامة وأساسية أهمها :

(١) ما المجتمع وما الثقافة ؟

(٢) ما الوحدات الأساسية التى ينبغى أن نحلل المجتمع والثقافة إليها ؟

(٣) ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ؟

(٤) ما العوامل التى تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما ؟

(٥) ما علم الاجتماع وما مناهجه الملائمة ؟

ويحدد رايت ميلز ثلاثة أسئلة رئيسية يجب أن تحـــاول النظرية الاجتماعية الإجابة عليها :[2]

(١) ما طبيعة البناء الاجتماعى للمجتمع الكلى ؟ وما هى مكوناته الأسياسية وكيف ترتبط هذه المكونات بعضها ببعض ؟ وكيف يختلف هذا البناء عن غيره من الأبنية ؟ وما الدور الذى يلعبه أى عنصر داخل هـذا البناء ذاته بالنسبة لبقاء هذا البناء وبالنسبة لتغيره ؟

(٢) ما موضع هـذا المجتمع فى التاريخ الإنسانى ؟ وما هى آليات تغيره ؟ وما موضع هذا المجتمع فى تطور الإنسانية ككل وما الدور الذى يلعبه فى ذلك ؟ وكيف يؤثر أى عنصر ندرسه على الفترة التاريخية التى يتحرك فيها وكيف يتأثر بها . وما هى الخصائص الجوهرية لهذه الفترة ؟ وكيف تختلف عن غيرها من الفترات ؟ وما هى خصائصها المميزة فى العملية التاريخية ؟

---

(١) نقيولا تيماشيف : نظرية الاجتماع — مرجع سابق ص ١٨

(1) Mills, C. W. Opt. cit. pp

(٣) ما هي نوعيات الرجال والنساء التي لها السيادة في هذا المجتمع في تلك الفترة ؟ وما هي النوعيات التي في سبيلها إلى السيادة ؟ كيف يتم اختيارهم وتكوينهم وتحريرهم أو قمعهم ؟ وكيف يزداد وعيهم أو كيف يتم تزييف هذا الوعي حتى يصابون بالتبلد بدلا من الحساسية ؟ ما أشكال الطبيعة الإنسانية التي يفصح عنها السلوك الذي نلاحظه في هذا المجتمع وفي هذه الفترة ؟ وما مغزى كل عنصر تقوم بدراسته في المجتمع بالنسبة للطبيعة الإنسانية ؟ .

ويرى رايت ميلز أن هذه الأسئلة هي التي اهتم بها أفضل علماء الاجتماع عند معالجتهم لأي مسألة اجتماعية . فهي تمثل المحاور الأساسية لدراسة الإنسان والمجتمع ذلك أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية المبدعة هي الانتقال من منظور إلى آخر ، أي من المنظور السياسي إلى السيكولوجي ومن دراسة أسرة واحدة إلى دراسة الميزانيات القومية في بلدان العالم ، ومن المدرسة إلى الجيش ومن صناعة البترول إلى الشعر المعاصر . إن صاحب النظرية يجب أن يتمتع بالقدرة على أن يربط بين أكثر المسائل عمومية وبين أكثرها شخصية وفردية وأن يكتشف العلاقة بين الاثنين .

من ذلك نرى أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية هي التصوير الموضوعي (أي المستند على الإدلة) للعلاقات المتبادلة بين جوانب النشاط الاجتماعي للناس بوصفهم أعضاء في مجموعات اجتماعية تتفاعل مع بعضها البعض داخل تكوينات اقتصادية اجتماعية أكثر وأشمل (مثل التكوين الاجتماعي والاقتصادي الاقطاعي أو الرأسمالي أو الاشتراكي)، والتطور التاريخي لهذه التكوينات وتتضمن القوانين التي تحكم الحياة الاجتماعية في بنائها ووظيفتها وتطورها والقوانين الخاصة التي تحكم كل جانب من جوانبها على حده .

واقع وإمكانية النظرية الاجتماعية :

ولكن هل توصل علم الاجتماع إلى مثل هذه النظرية ؟ الإجابة بالنفى . وهل من الممكن الوصول إليها ؟ الإجابة بالإيجاب ، فقد سبق أن ذكرنا أن الظاهرات التى يدرسها علم الاجتماع ظاهرات طبيعية تخضع للدراسة العلمية المنهجية وبالتالى فمن الممكن الوصول إلى نظرية علمية صادقة عن المجتمع مثلما هو الحال بالنسبة للعلوم الأخرى التى توفرت فيها هذه النظرية مثل علم الحياة وعلم الفيزياء .

ولكن لماذا لم يتم التوصل إلى هذه النظرية العلمية فى ميدان علم الاجتماع على الرغم من مرور حوالى ١٧٠ عاماً على اكتساب دراسة المجتمع عنوان العلم ، وعلى الرغم من أن التفكير فى المجتمع قديم قدم البشرية ؟

لكى نستطيع الإجابة على هذا السؤال علينا أن نتوقف قليلا لندرس الظروف الفعلية التى تحيط بالعلم وتشجعه على التطور أو تعرقل تطوره . ذلك أن العلم قد وجد دائماً فى مجتمع وكانت بينه وبين هذا المجتمع علاقات تأثير متبادل . ولكى نوضح الظروف الفعلية التى تعوق تطور النظرية الاجتماعية وتعوق وصولها إلى فهم موضوعى ومتكامل للظاهرات الاجتماعية يجب أن نشير إلى الظروف الاجتماعية الفعلية التى عاقت تطور العلوم الفيزيقية والبيولوجية من قبل وإلى ما طرأ على هذه الظروف من تغير أدى إلى تطور ونمو هذه العلوم ثم ننتقل إلى التعرف على الظروف الاجتماعية المرتبطة بنشأة علم الاجتماع وكيف تشجع هذه الظروف على عرقلة نمو النظرية الاجتماعية أو على نموها[1] .

يدلنا التاريخ على أن المكتشفات العلمية الجديدة فى ميادين العلوم الفيزيقية

(١) أنظر فى ذلك :

J. D. Bernal : Science in History. (New-York. Howthorn Books. 1965) .

والبيولوجية كانت تلقى فى أوربا أشد المعارضة والمقاومة مما أثر على تقدمها وأعاق نموها لفترة طويلة من الوقت ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما تعرض له عالم الفلك والرياضة والطبيعة الإيطالى الشهير جاليلى جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢ م) من سجن وأضطهاد من جانب محاكم التفتيش الكاثولوكية التى نشطت فى أوربا وخاصة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت مهمتها اكتشاف الكفرة ومعاقبتهم بالتعذيب والسجن والإعدام حرقاً ، وقد أجبرت هذه المحاكم التفتيشية الكاثوليكية جاليليو على إنكار ما نشره فى إحدى مقالاته عام ١٦٣٢ يؤيد فيه نظرية مؤسس علم الفلك الحديث نيكولا كوبرنيكس (١٤٧٣ — ١٥٧٣) بأن الشمس هى المركز وأن الأرض تدور حولها . لقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية فى ذلك الوقت متحالفة مع الإقطاع الأوربى وكانت تسيطر على عقول الناس وتنشر بينهم الخرافات التى تتفق ومصالح الاقطاع ، ولهذا كانت تحارب العلم والفكر العلمى فى كافة صوره لأن هذا الفكر كان سيسقط الفكر الزائف الذى كانت الكنيسة والاقطاع يروجانه . وكانت الكنيسة تدرك أن كشف الأكاذيب والخرافات وفضح زيف الفكر الذى تروج له من شأنه أن يؤدى إلى الإطاحة بمصالحها ومصالح الاقطاع . ولكن مع قدوم عصر التنوير ومع ما طرأ على المجتمع الأوربى من تحول من مجتمع زراعى اقطاعى إلى مجتمع صناعى رأسمالى ومع ما حدث من ثورات بورجوازية أهمها الثورة الفرنسية ، ونظراً لحاجة الرأسمالية الناشئة إلى العلم والمكتشفات العلمية من أجل تطوير التكنولوجيا رزيادة الانتاج وتحسينه وتحقيق المزيد من الأرباح — كل ذلك أدى إلى تشجيع العلم والعلماء الطبيعين على الانطلاق والتقدم والنمو المتزايد ، لدرجة أن ما حققه العلم الطبيعى خلال القرن الواحد من الزمان يفوق ما حققته البشرية خلال تاريخها الطويل بكثير .

كانت دراسة الظاهرات الفيزيقية والبيولوجية اذا دراسة علمية والوصول إلى القوانين التى تحكمها والتنبؤ بها والتحكم فيها ممكنة دائما ولم تكن مستحيلة ، ولكن واقع العلوم الفيزيقية والبيولوجية فيما قبل عصر التنوير والثورة الصناعية كان يتناقض تماما مع هذه الإمكانية ، ولكن مع تغير الظروف الاجتماعية الفعلية (والتى ساعد العلم أيضا على تغييرها) أمكن ان تتحول هذه الامكانية إلى واقع فعلى وحققت العلوم الفيزيقية والبيولوجية تقدما مذهلا فى كافة المجالات .

ترى هل هناك وجه شبه فى ذلك بين العلوم الفيزيقية والبيولوجية من جهة والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى ؟ بعبارة أخرى هل هناك ظروف اجتماعية حالت وما زالت تحول دون انطلاق العلوم الاجتماعية وتقدمها وكشفها عن قوانين الحياة الاجتماعية والتوصل إلى نظريات اجتماعية صادقة ؟

الإجابة على ذلك بالإيجاب قطعا فهناك ظروف اجتماعية حالت وما زالت تحول دون تقدم العلوم الاجتماعية .

معوقات تطور النظرية الاجتماعية :

من هذه الظروف أن اهتمامات المجتمعات بصفة عامة كانت تنصب أولا على البيئة الطبيعية لكى يستطيع الإنسان أن يحافظ على بقائه وأن يتغلب على العوامل التى تهدد هذا البقاء ، وبالتالى فان اهتمام الانسان أنصب أولا على داسة البيئة الطبيعية ولذلك تطورت العلوم الفيزيقية قبل تطور العلوم الاجتماعية ، إن الحاجات الفعلية والمادية المباشرة للمجتماعات الانسانية أدت الى أن تولى هذه المجتماعات اهتماماتها الى السيطرة على البيئة الطبيعية أولا .

وقد ظهرت العلوم الاجتماعية تباعا واستقلت عن الفلسفة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنها فى رأى الكثيرين ظهرت منذ البداية كعلوم زائفة ليست

مهمتها الحقيقة كشف الحقائق الاجتماعية والوصول الى فهم علمى لها بقدر ما كانت مهمتها إخفاء هذه الحقائق أو تشويهها لسبب بسيط هو أن الرأسمالية الناشئة كانت ترى من مصلحتها كشف الحقائق فيما يتعلق بالكون المادى لاستغلالها فى الانتاج الرأسمالى وتطويره ، ولكن لم يكن من مصلحتها كشف الحقائق الاجتماعية لأن من شأن ذلك أن يكشف أيضا عن استغلالها للطبقات العاملة ، ذلك الاستغلال البشع الذى صوره الكثير من الأدباء والمفكرين فى ذلك الوقت . ومثلما احتضنت الكنيسة والإقطاع العلماء الفيزيقيين والبيولوجيين الذين يشوهون الحقائق المتعلقة بالكون المادى بما يتفق وأفكارهم ومصالحهم واضطهدت كل من حاول مهاجمة هذه الأفكار وتقديم فهم علمى حقيقى للكون المادى احتضنت الرأسمالية المفكرين الاجتماعيين (أمثال اوجست كونت وهربرت سبنسر وماكس فيبر وباريتو) لأنهم أخذوا على عاتقهم مهمة ترويج مبادىء وأفكار الرأسمالية [١] . ولما كان الجو السائد آنذاك هو الجو العلمى فقد أضفوا على أفكارهم الصفة العلمية وتشبهوا بالعلوم الطبيعة فى دراساتهم من أجل إكساب هذه الأفكار قوة أكبر فى الاقناع ، كما حاربت الرأسمالية الأفكار العلمية الاجتماعية واضطهدت كل من يروجون لها

---

(١) يجمع الكثير من المؤلفين على أن نشأة النظرية الاجتماعية كانت نشأة محافظة ومضادة لفلسفة التنوير فى أووبا وأنها سخرت لخدمة البورجوازية وبترير سيطرتها السياسية والاقتصادية . أنظر فى ذلك :

Irving Zeitlin : Ideology and the Development of Sociological Theory (Prentic-Hall, New-Delhi, 1969).

Robert Nisbet : The Sociological Tradition. London, 1970.

T. B. Bottomore : Sociology as Social Criticism. London, George Allen & Uniwin. 1975.

وبالعربية أنظر :

د. عبد الباسط محمد حسن . علم الاجتماع (القاهرة . مكتبة غريب ١٩٧٧)

وأجبرت البعض منهم على إنكارها بل ونفى الصفة العلمية عنها . ولكن مثلما لقيت العلوم الفيزيقية والبيولوجية دفعة قوية مع تغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومثلما ساهمت نفس هذه العلوم فى احداث هذه التغيرات يحدث نفس الشىء الآن بالنسبة للعلوم الاجتماعية . فمع زيادة وعى وقوة الطبقة العاملة فى البلدان الرأسمالية ومع إدراك المثقفين والعلماء للتغيرات التى تطرأ على المجتمع الرأسمالى ومع زيادة قوة وفعالية الحركات الثورية داخل هذه البلدان وفى البلدان المستعمرة ومع انكشاف زيف الفكر الذى تروجه الرأسمالية — مع ذلك كله بدأت فى أواخر الستينات من القرن العشرين تيارات واتجاهات جديدة فى علم الاجتماع تصارع من أجل التقدم العلمى الحقيقى لعلم الاجتماع بل للعلوم الاجتماعية بأسرها وإلى كشف الحقائق والقوانين الاجتماعية وإلى استخدام هذا الفهم العلمى فى إحداث تغيرات تقدمية فى المجتمع من أجل صالح الانسان، واتخذت هذه التيارات لنفسها تسمية جديدة هى الراديكالية . فهناك الآن علم الاجتماع الراديكالى وعلم النفس الراديكالى ، وعلم الإجرام الراديكالى .... الخ ومثلما هاجمت العلوم الفيزيقية والبيولوجيا (الراديكالية) فى القرون الماضية الفكر الخرافى الذى كان يسود هذه العلوم ودعت الى تغيير جذرى فيه بناء على ماتوفر لها من معلومات وحقائق عن الكون المادى ، تدعو هذه العلوم الاجتماعية الراديكالية إلى إحداث تغير جذرى فى مضمون ومسلمات العلوم الاجتماعية بل وإحداث تغيرات جذرية فى بناء المجتمع بأسره . وتلقى هذه التيارات العلمية الجديدة مقاومة شديدة من جانب الرأسمالية ومن جانب العلماء الذين يدافعون عنها ، ولكن هذه المقاومه وذلك الاضطهاد الذين يتعرضون له يختلفان فى أساليبهما عما كان سائداً فى عصور ماقبل النهضة ويتخذ أشكالا مختلفة منها استخدام المؤسسات العلمية ذاتها كوسيلة للضغط والارهاب .

ونحن نعلم أن الباحث العلمى يحتاج لمصادر لتمويل بحوثه ، وهذه المصادر إما أن تكون الحكومات أو المؤسسات الإقتصادية والصناعية التى تملك المال فى المجتمعات الرأسمالية . وموقف الحكومات والمؤسسات فى هذه البلدان موقف معروف ومحدد ، فهى تقوم بتمويل البحوث العلمية وتشجيع العلماء الذين تؤدى جهودهم إلى فائدة سريعة ومباشرة لها ، وعملية تمويل العلم أصبحت فى العصر الحديث أشبه ما يكون بالإستثمار ، بحيث نجد الآن فى معظم البلدان الصناعية أقساماً للأبحاث العلمية داخل الشركات الكبيرة والمصانع تستخدم العلماء وتنفق عليهم ، بل إن الجامعات ومراكز البحوث فى الولايات المتحدة مثلا تحصل على ميزانية تمويل البحوث العلمية فيها من الشركات الكبيرة سواء فى شكل أموال أو هبات أو منح دراسية لإعداد العلماء أو تأتى من الحكومة .

ولو قارنا الأموال التى تصرف على إجراء البحوث العلمية الفيزيقية والبيولوجية والاجتماعية فى البلدان الرأسمالية التى نشأت فيها العلوم الإجتماعية أساساً لوجدنا أن الغالبية العظمى من هذه الإموال توجه إلى العلوم الفيزيقية ثم البيولوجية وأخيراً العلوم الاجتماعية ، بل وتقدم هذه الأموال إلى فروع معينة من العلوم الطبيعية أكثر من غيرها لأن لها تطبيقات استثمارية أو حربية أكثر من غيرها ، يتضح ذلك من ازدهار بحوث استخدام الذرة فى الحرب أكثر من بحوث استخدامها فى السلم ، ونجد نفس الشىء فى العلوم البيولوجية حيث نجد أموالا هائلة تنفق على استخدام الميكروبات فى الحروب بينما لا ترصد مثل هذه الأموال لعلاج الأمراض المستعصية . أما الأموال التى ترصد للبحوث الاجتماعية فإنها توجه فى معظمها لتلك البحوث الجزئية التى تخدم الجهات الممولة بشكل مباشر ، ومن أمثلتها بحوث الرأى العام حتى يمكن التأثير عليه لصالح الجهات السياسية والاقتصادية وبحوث الروح المعنوية للعمال من أجل جعلهم يقدمون إنتاجا أكثر لأصحاب الأعمال فى

مقابل الأجر الذى يحصلون عليه ، ولكن من يحاول أن يجرى بحوثاً لكشف الحقائق الاجتماعية الأخرى لا يجد أى تشجيع بل ربما طرد من عمله أو حرم الامتيازات التى يتمتع بها زملاؤه "الذين يعملون فى خدمة النظام وتزييف الواقع فى أذهان الناس بأسم العلم . ولنأخذ "مثالا على ذلك ظاهرة التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية . من غير المعقول أن يشجع أصحاب مزارع القطن الكبيرة بحثاً يمكن أن يكشف عن الاستغلال البشع الذى يتعرض له الزنوج من جانب أصحاب الأعمال البيض "وعن "الظروف "السيئة التى يعيش فيها هؤلاء الناس ، بل إنهم سوف يسارعون إلى تمويل أى "أبحاث "سيكولوجية تبين أن سبب تدهور حالة الزنوج أو الطبقة العاملة بصفة عامة يرجع إلى نقائص عقلية أو ثقافية فيهم أنفسهم .

إن تطور علم الإجتماع فى الطريق العلمى وتقدمه فهما موضوعيا للحياة الاجتماعية ليس فى صالح الرأسمالية ولذلك فإنها تعمل بشتى الأساليب على تعطيل تطوره وعلى تزييف الحقائق الاجتماعية بل ويتولى (علماء الاجتماع) الموالون للنظام الرأسمالى مهمة الترويج لفكرة أن الظاهرات الاجتماعية لايمكن أبدا دراستها دراسة علمية حقيقية مثل غيرها من الظاهرات وأنه لا يمكن الوصول إلى قوانين اجتماعية ولا يمكن للإنسان أن يتحكم فى مسار المجتمع ، ولا يمكن أن توجد نظرية "اجتماعية "عامة واحدة وأنه لابد من وجود نظريات متعددة تعكس الآراء المختلفة للعلماء الاجتماعيين .

وتأتى الأدلة على ذلك من داخل المجتمعات الرأسمالية ذاتها ومن علماء الإجتماع الشباب المتمردين على علم الاجتماع التقليدى أو ما أصبحوا يطلقون عليه علم الاجتماع المزيف أو علم الاجتماع الرجعى أو المحافظ أو علم اجتماع النظام Establishment Sociology

وهناك الآن تيارا قويا فى علم الاجتماع فى كل من الولايات المتحدة الامريكية ودول أوربا الغربية يسمى « علم الاجتماع الراديكالى » وفيما يلى وصف لعلم الاجتماع التقليدى قدمته مجموعة من المتخصصين فى علم الاجتماع أطلقت على نفسها اسم «حركة تحرير علم الاجتماع فى أمريكا» .

« إن علم الاجتماع يرتبط ارتباطا وثيقا بالأجهزة الحاكمة ويعبر عن مصالح القوى المسيطرة فى المجتمع الأمريكى ويتضح ذلك من القيم والمعتقدات السائدة بين علماء الاجتماع ومن ولائهم لهذه الأجهزة .

وعلى الرغم من ادعاء علماء الاجتماع لصفة الحياد إلا أنهم يقومون بإجراء بحوث لصالح التنظيمات القوية فى المجتمع ويمدونها بالمعرفة التى يحتاجون اليها للسيطرة على مشكلاتهم . وهم يضعون خبرتهم تحت تصرف النظام ويجعلون تطور علم الاجتماع يسير فى الاتجاه الذى تحدده احتياجات الذين يمولونهم . وتحت ستار الحياد فشل علم الاجتماع فى أن يسهم بأى شكل فى فهم مشكلات الفقراء والضعفاء وفى مساعدتهم على التغلب على سيطرة ذوى النفوذ والقوة عليهم .

إن علماء الاجتماع حاولوا أن يضفوا على أنفسهم الصبغة العلمية عن طريق تطوير أساليب وطرق البحث العلمى ولكن على حساب المضمون كما قدموا نظريات علمية ولكنها تخلو من المعرفة الحقيقية بالمجتمع . إن علماء الاجتماع قد تجاهلوا دراسة المشكلات الحقيقية للمجتمع الأمريكى ، وكل من حاول ذلك وأهتم بدراسة الواقع كان يواجه بالنبذ ونفى صفة العلمية عنه .

إن النظريات الاجتماعية الرجعية والليبرالية تبالغ عن عمد فى إظهار أن المجتمع تسوده حالة من الاتفاق والإجماع وتدعو إلى المحافظة على ذلك وتهمل حقيقة وجود الصراع بين مصالح المجموعات المختلفة فيه ، وتدعو إلى التفاهم والصبر والنية

الحسنة لحل أى مشكلات فيه ، وذلك لا يمت للعلم بصلة . إنه لايزيد عن كونه ضراعة ولا يصور الواقع بل يعبر عن آمال الطبقة الاجتماعية التى يمثلها علماء الاجتماع .

إن علم الاجتماع تحت تأثير وهم الابتعاد عن الصراعات الدائرة فى المجتمع تخلى عن مسئوليته فى أن يكشف حقيقة القوى الاستغلالية فى المجتمع ، وأصبحت الطبيعة الرجعية للحكومة الأمريكية خارج نطاق البحث الاجتماعى ولكن السكوت على وضع مايعنى الرضا عنه ، وعدم كشف هذا الوضع يعنى تأييده »[1].

وفى كتاب صدر عام ١٩٧٠ بعنوان « علم الاجتماع الراديكالى[2] » يتناول مجموعة من علماء الاجتماع الراديكاليين شرح أسباب تخلف علم الاجتماع فى أمريكا وفشله فى تحقيق امكانية الفهم العلمى للمجتمع ، وأهم هذه الأسباب خضوع علم الاجتماع لسيطرة الرأسمالية والاحتكارية وقيامه بدور الدفاع عن هذا النظام وتبريره ويدعو هؤلاء العلماء إلى التمرد على ذلك الوضع وإلى استخدام المنهج العلمى فى فهم المجتمع وكشف القوانين التى تحكمة وإلى مناقشة ونقد الآراء التى يروج لها علماء الاجتماع التقليديين المستفيدين من النظام والمدافعين عنه .

نتبين مما سبق أن الدراسة العلمية للظاهرات الاجتماعية والوصول إلى نظرية اجتماعيه عامة أمور ممكنة تماما ولكن هناك ظروف وعوامل تعوق وتعرقل نمو وتطور العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة وهذه الظروف

---

(1) Sociology Liberation Movement Handbill, 1968, in Paul Horton and Gerald R. lesli : Studies in the Sociology of Social Problems, New-York. Appleton-Century-Crafts. 1971 pp.18—19

(2) J.D Colfax and Jack Roach (ed.) Radical Sociology New-York. Basic Books.

اجتماعية وتشبه الظروف التى كانت تعرقل نمو وتطور العلوم الفيزيقية والبيولوجية قبل عصر الثورة الصناعية . ولكن هذه الظروف ليست أبدية ، أى أنها تتغير . ومثلما تطورت العلوم الفيزيقية والبيولوجية فى أوربا مع ظهور قوى اجتماعية جديدة من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالكون المادى فإن العلوم الاجتماعية فى سبيلها إلى التطور فى الاتجاه العلمى الحقيق مع ظهور وتعاظم القوى الاجتماعية الجديدة التى من مصلحتها كشف الحقائق المتعلقة بالحياة الاجتماعية وهذه القوى هى القوى الشعبية والمثقفين المستنيرين الذين يهمهم كشف الحقيقة والدفاع عنها .

أهمية دراسة النظرية الاجتماعية :

سبق أن ذكرنا أن العلم يتكون من جانبين أساسيين هما الجانب الحسى والجانب العقلى وتحدثنا بالتفصيل عن مكونات الجانبين وعن العلاقة الوثيقة والمتبادلة بينهما . ورأينا أن الصورة النموذجية لأى علم هى تلك التى لاتنفصل فيها النظرية عن الوقائع بمعنى أن تضم النظرية كل الوقائع التى تم إكتشافها وتربط بينها وتضفى عليها معنى وتخرج منها بمجموعة من التعميمات العامة المترابطة ، وفى هذه الحالة تصبح النظرية موجها للباحثين عند جمعهم لوقائع جديدة تسهم فى إثراء النظرية وتطويرها .

وأى باحث فى أى علم من العلوم لاغنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها ، وفى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها ، وفى اختياره للمنهج وللأدوات التى سيستخدمها فى دراسته ، فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته بحيث تأتى غير مترابطة ثم يعجز فى النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها . وهنا أريد أن أتوقف قليلا لأشرح أهمية دراسة « النظريات الاجتماعية » بالنسبة لطالب علم الاجتماع .

إن الهدف الرئيسى لطلاب علم الاجتماع من دراستهم هو فهم المجتمع الذى يعيشون فيه ومحاولة الإسهام فى تطوير الحياة الاجتماعية فيه . وهم يدركون أن فهمهم للمجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدراسة الفعلية لجوانب الحياة الاجتماعية والتعرف عليها ، ولكن المجتمع الذى نعيش فيه ونريد أن نفهمه يضم عددا لانهاية له من الوقائع الاجتماعية Facts وكل منها يمكن أن يكون موضوعا للدراسة : خذ مثلا بعض النماذج لما يمكنك أن تفكر فى دراسته : عادات الناس فى مختلف الأحياء والقرى المتعلقة بالتعامل الاجتماعى فى كافة صوره مثل أسلوب التحية بين فئات الناس (الأكبر والأصغر سنا ، النساء ، والرجال) ملابس النساء ملابس الرجال ، العلاقات بين الطلبة والطالبات فى الجامعة ، كيفية ركوب الناس للمواصلات وتعاملهم فيها ، العلاقات بين العاملين وبعضهم البعض ، أشكال الاستهلاك بين فئات الناس ، والانحرافات بين الشباب ، الجريمة المخدرات ، البغاء القيم ، وضع المرأة فى المجتمع ، الفقر ، الاستغلال ، الرشوة . . . الخ الأشياء لاحصر لها ، ولكن أى هذه الموضوعات أولى بالدراسة ولماذا ندرسها وبأى كيفية ؟ .

لكى تستطيع حتى أن تختار أيا من هذه الموضوعات لا بد أن يوجد لديك تصور عام عن المجتمع الذى توجد فيه ، أى لا بد أن يكون فى ذهنك هدفاً ما لهذه الدراسة ، ولا بد أن تكون لديك طريقة لدراسة ما تختاره من موضوعات وفوق هذا كله لا بد أن تكون على علم بجهود من سبقوك إلى التفكير فى ذلك وما توصلوا إليه من نتائج ، وما وقعوا فيه من أخطاء حتى تستطيع تجنبها . أى أنك لا تستطيع أن تبدأ أبدا من نقطة الصفر ، وإلا فإنك لن تضيف له جديداً أبدا . والعلم بصفة عامة ذو طبيعة تراكمية Accumulative بمعنى أن كل دارس يضيف له شيئاً جديداً إعتماداً على معرفته بما توصل إليه من سبقوه . وهذه المعرفة توجد دائماً فى الكتب

ليس على شكل حشد هائل من المعلومات المتفرقة ولكن على شكل استنتاجات عامة ونظريات . وأى باحث جاد لا بد أن يبدأ أولا بقراءة هذه المعرفة المتوفرة وإلا فإنه سيتخبط فى بحثه ويجمع معلومات ليكتشف بعد ذلك أن غيره قد توصل إلى جمعها أو أنها عديمة القيمة كما أنه قد يصل إلى إستنتاجات يتضح له أنه قد ثبت خطؤها من زمن بعيد لأن الأسلوب المتبع فى دراستها كان خاطئاً . مثال ذلك أنه لو حاول بعض منكم أن يدرس مشكلة مثل الجريمة دون أن يقرأ شيئاً من النظريات عنها وعن المجتمع فإنه قد يكون معرضاً لخطر أن ينصرف جهده لجمع معلومات عن آباء وجدود أو شجرة عائلة المجرمين على فرض أن هذا السلوك وراثى وبعد فترة طويلة يكتشف أنه منذ زمن بعيد درس باحثون كثيرون هذا الفرض وصاغوا نظرية حوله (مثل نظرية لومبروزو) ثم أتى بعدهم باحثون آخرون أثبتوا أن المنهج الذى أتبعوه فى هذه الدراسة كان خاطئاً من الناحية العلمية وأعادوا الدراسة مرة أخرى بمنهج جديد أثبت بما لا يدع مجالا للشك خطأ هذه النظرية تماماً — وبالتالى لم تعد ما سميت بالنظرية البيولوجية فى تفسير السلوك الأجرامى تعتبر نظرية علمية . وكذلك ثبت خطأ النظرية الاجتماعية التى كانت تستند عليها ، وهى الداروينية الاجتماعية أو النظرية البيولوجية أو العضوية فى تفسير المجتمع (مثل نظرية هربرت سبنسر) . معرفتك إذا بهذه النظريات تجنبك الوقوع فى الخطأ الذى وقع فيه من سبقوك إلى الدراسة وتوجهك إلى إختيار متغيرات أو وقائع أخرى غير الوقائع البيولوجية لكى تربط بينها وبين السلوك الإجرامى ، مثل المتغيرات السيكولوجية، والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية ... الخ . ولكن ما ينطبق على المتغيرات البيولوجية ينطبق أيضاً على هذه المتغيرات الأخرى . فهناك من درسوا كل هذه المتغيرات وصاغوا نظريات حولها وهناك من فندوا هذه النظريات وتلك الدراسات وبينوا

أوجه النقص والخطأ فيها. ولو أنك أغفلت الاطلاع عليها أيضاً لوقعت مرة أخرى في نفس الخطأ.

إن الطالب الذي يدرس العلوم الفيزيقية والبيولوجية (في كليات العلوم والهندسة والطب والصيدلة ... الخ) لا يبدأ أبداً بالدراسة المباشرة لواقع الظاهرات التي في مجال تخصصه، ولكنه يبدأ بدراسة النظريات المتعلقة بها. فطالب الطب لا يبدأ بدراسة الأمراض وعلاجها، ولكنه يبدأ بدراسة نظرية الحياة في علم البيولوجيا ويدرس وظائف الأعضاء ويدرس الكيمياء والفيزياء وتكوين وبناء الكائن الحي (في التشريح) ... الخ ويمثل ذلك بالنسبة له الخلفية الفكرية والعلمية التي توجهه بعد ذلك في كل دراساته وتطبيقاته العملية. صحيح أنهم يدرسون له فقط كل ما ثبتت صحته ولا يدرسون له ما كان يوجد من نظريات أو أفكار خاطئة منذ مئات السنين، ولكنهم يدرسون له أيضاً وجهات النظر المختلفة التي لم تحسم بعد في علمهم المعاصر. فإذا ما وجدت الأدلة الكافية على صدق إحدى وجهات النظر أو التفسيرات فإن التفسيرات الخاطئة لا تستبعد من الدراسة ولكنها تظل تذكر كتحذير من الوقوع في خطأ تبنيها حتى تستبعد تدريجياً بمرور الوقت وبرسوخ التفسير الصحيح.

ولكن هذه العلوم كما نعلم استقرت منذ زمن بعيد. أما العلوم الإجتماعية فإنها بالمقارنة لها حديثة النشأة وهي مازالت في مرحلة مشابهة لمرحلة نشأة العلوم الفيزيقية والبيولوجية والتي كان يسود بها الكثير من النظريات المتضاربة وكان على دارس هذه العلوم أن يدرس كل هذه النظريات ويناقشها لكي يسهم في كشف الحقيقة ويثبت صدق أو خطأ كل منها.

الموقف الآن بالنسبة لعلم الاجتماع شبيه بالموقف بالنسبة للعلوم الفيزيقية والبيولوجية من قبل حوالي الخمسمائة عام : نظريات متعددة ومتضاربة وفي كثير من الأحيان تقدم كل منها تصوراً عاماً للمجتمع يختلف عن الأخرى وتركز كل منها

على جوانب منه تختلف عن الجوانب التى تركز عليها غيرها وتقدم جميعها تفسيرات مختلفة لمنشأ الحياة الاجتماعية وجوهرها وتغيرها وعلاقة مكوناتها ببعضها البعض ، وتستخدم كل منها مفهومات تختلف عن الأخرى وتشير إلى أسلوب أو منهج للبحث خاص بها . وحصيلة ذلك كله أن كيفية دراسة أى باحث للواقع الاجتماعى سوف تعتمد على النظرية التى يتبناها .

من هنا تأتى أهمية دراسة كل من هذه النظريات ومناقشتها — وسوف تظل هذه الدراسة والمناقشة مستمرة ومفيدة حتى يتم جمع الأدلة الكافية على خطأ أو صواب كل منها أو على الأقل ما يحتويه كل منها من عناصر بحيث يتم فى النهاية الوصول إلى نظرية اجتماعية عامة واحدة قابلة للإضافة إليها وأثرائها بكيفية تراكمية مثلما هو الحال بالنسبة للنظرية البيولوجية أو الفيزيائية .

إننا ندعو دائماً إلى استيعاب كل النظريات الاجتماعية بدون استثناء وإلى أعمال العقل فيها ومناقشتها ونقدها ، فيجب أن نتمتع دائماً بالقدرة على التفتح الفكرى على جميع الاتجاهات ، وليس هناك ما هو أخطر على علمنا وعلى مجتمعنا من الانغلاق على فكر واحد ومن أن نصبح أسرى قوالب جامدة ومن إلزام أبنائنا باستظهار آراء نفرضها عليهم ونعطل بها ملكة التفكير والنقد عندهم .

الفصل الثالث

أسس تقييم النظرية الاجتماعية

يختلف الموقف النظرى فى العلوم الطبيعية عنه فى العلوم الاجتماعية بصفة عام وفى علم الاجتماع بصفة خاصة ، فنى العلوم الطبيعية كعلم الحياة مثلا يوجد واقع بيولوجى له وجود موضوعى مستقل عن العالم الذى يبحثه (ظاهرات الحياة) من جهته ومن جه أخرى نظرية عامة تصور هذا الواقع فى جوهره وتضم القوانين التى تحكم تغيره وتطوره، كما توجد نظريات نوعية أوفرعيه تصور كل جانب من جوانب هذا الواقع على حدة (مثل نظريات وظائف الأعضاء أو التشريح أو الأجنة) ولكنها تستند على النظرية العامة وتستمد منها مسلماتها الأساسية . ولم يعد هناك تعدد فى النظريات العامة فى العلم الطبيعى الواحد بل أصبحت هناك نظرية واحدة ثبتت صدقها بالأدلة الأمبيريقية وأصبحت مهمة العلماء تطويرها والإضافة إليها وإستخدامها فى تفسير كافة الأحداث التى تدخل ضمن نطاقها . أما فى علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية فإنه على الرغم من وجود واقع إجتماعى له وجود موضوعى مستقل عن العالم الذى يبحثه (الظاهرات الاجتماعية) فإننا نجد نظريات عامة متعددة كل منها يقدم تصويراً لهذا الواقع يخالف ذلك الذى تقدمه غيرها . بالتالى فإننا سنجد تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الاجتماعية الواحدة . وهنا يواجه أى دارس لهذه النظريات بموقف حتمى يتعين عليه فيه أن يقارن بين هذه النظريات المختلفة ويختار من بينها ما يرى أنها الأصلح أو أنها الأكثر إقناعاً . إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييما لكل منها على حدة ، فعلى أى أساس يتم هذا التقييم ؟

فى أحيان كثيرة يلجأ دارسوا النظريات الاجتماعية إلى تقييم هذه النظريات والمفاضلة بينها على أسس غير علمية ، ويتعاملون مع هذه النظريات كما لو كانت سلعاً أو أشياء مما تقابلهم فى حياتهم اليومية يعتمد إختيارهم لأحدها دون الأخرى على المزاج الشخصى أو مدى جاذبيتها الإنفعالية . فبعضهم يتبنى نظرية ما لأنها الأكثر رواجاً أو إنتشاراً فى ذلك الوقت مثلما يشترى سلعة ما لأنها « الموضة » أو لأن كل الناس المرموقين يشترونها . وبعضهم يتبنى نظرية أخرى لأن أشخاصاً معينين يثق فيهم ويحترمهم (كالأساتذة مثلا) يتبنونها . والبعض الآخر يتبنى نظرية ثالثة لأنها تبدو بسيطة واضحة أو حتى لأنها تبدو عميقة غامضة يصعب على الآخرين فهمها ! [1] كما أن بعض دارسى النظريات الاجتماعية يتبنى نظرية ما لأنها ظهرت فى الغرب الذى يحبه لا فى الشرق الذى يكرهه أو العكس ! ولا يندر أن تقابل شخصاً ما له وزنه فى علم الاجتماع يقر لك صراحة أنه يرفض حتى مجرد قراءة نظرية معينة لأنها رأسمالية أو لأنها إشتراكية أو لأنها أجنبية ومستوردة ولا يقبل إلا نظرية محلية حتى ولو كانت قديمة وعفى عليها الزمن !

ولكن . . . هل هكذا يجب أن نفاضل بين النظريات فى العلم ؟ هل قبل العلماء نظرية أينشتاين لأنها الأكثر رواجاً أو لأنها أكثر بساطة أو تعقيداً أو لأنها ظهرت فى أمريكا لا فى الهند؟ وهل رفضها علماء فى أى مكان لأنها لم تنبع من بلادهم؟ بالطبع لا . . . لقد قبلت نظرية أينشتاين عن النسبية بعد أن تمت المقارنة بينها وبين النظرية السابقة عليها وتقييم كل منهما على أسس موضوعية وإختبار صدق كل منهما ، وهكذا الحال بالنسبة لكل النظريات العلمية الأخرى . إن أحداً لم يعد يثير الآن بالنسبة

---

(١) أنظر فى ذلك مؤلف رايت ميلز « التصور السوسيولوجى » وبخاصة عند حديثه عن موقف دارسى النظريات الاجتماعية من نظرية تالكوت بارسونز.

للنظريات العلمية فى العلوم الطبيعية أسئلة كتلك التى يثيرها أحيانا المشتغلون بالعلوم الاجتماعية مثل هل تصلح هذه النظرية لتفسير واقعنا المحلى الذى يختلف عن الواقع الذى ظهرت لتفسيره ؟ لأن الجميع يدرك الآن أن هناك نظريات عامة تنطبق على الظاهرة الطبيعية أينما كانت وتضم القوانين العامة التى تحكمها ونظريات نوعية تنطبق على كل نوع من هذه الظاهرات دون غيره . فالنظرية العامة عن الحياة تنطبق على كل الكائنات الحية بلا إستثناء أينما كانت ووقتما كانت . ولكن هناك قوانين نوعية لا تنطبق إلا على النبات (مثل التمثيل الكلوروفيللى) وقوانين أخرى لا تنطبق إلا على الإنسان وهكذا . والمفروض أن ينطبق نفس الشيء على النظريات الاجتماعية . فلا بد أن توجد نظرية عامة تنطبق على الظاهرة الإجتماعية بوجه عام وتقدم تصوراً عاماً عنها ، ثم على ضوء هذا التصور العام توجد نظريات نوعية تقدم تفسيرات خاصة لكل ظاهرة إجتماعية على حدة .

وعلى ذلك فإن تقييمنا لأى نظرية إجتماعية عامة يجب أن يتحدد على أسس علمية وموضوعية لا على أساس الأهواء الشخصية أو أفكار غير العلمية . كما أن قبولنا أو رفضاً لأى من هذه النظريات لا بد أن يكون بناء على دراسة مستفيضة لها ثم تطبيق الأسس العلمية للتقييم عليها . ولكننا يجب أن نشير هنا إلى ضرورة الاهتمام بالمبادىء العامة التى ترتكن عليها النظرية أكثر من إهتمامنا بتفاصيلها عند تقييمنا لها ذلك أن تفاصيل كل نظرية مستمدة من هذه المبادىء العامة . وإغفال المبادىء العامة للنظرية والاهتمام بتفاصيلها يؤدى إلى التخبط العشوائى فى التقييم ، وهذا ما نجده فى الكثير من الدراسات النقدية للنظريات الاجتماعية :

إن أول مهمة يجب أن نواجهها عند دراستنا لأى نظرية إجتماعية هى أن نتعرف عليها ونستخلص المبادىء العامة أو الافتراضات أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها هذه النظرية . يلى ذلك إخضاع هذه المبادىء أو المسلمات للفحص الدقيق

ومناقشة مدى صدقها والتساؤل عن الأدلة التى تؤكدها أو تنفيها . ويساعدنا على الكشف عن صدق أو زيف هذه المسلمات محاولة التعرف على التحيزات الإيديولوجية والسياسية التى تتضمنها النظرية من جهة وما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية من جهة أخرى . أى أنه يتعين علينا عند تقييمنا لأى نظرية أن نثير أربعة تساؤلات أساسية نحاول الإجابة عليها :

١ ــ ما المبادىء أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها النظرية الاجتماعية .

٢ ــ ما الأدلة على صدق هذه المبادىء أو خطئها ؟

٣ ــ ما المضمون الإيديولوجى والسياسى للنظرية ومامدى تأثيره على المبادىء العامة أو المسلمات الأساسية للنظرية .

٤ ما الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا سلمنا دون مناقشة بمسلماتها الأساسية .

ولكى أوضح العلاقة بين هـــذه التساؤلات الأربعة أضرب مثالا بالنظرية العنصرية التى روجت لها ألمانيا النازية، علماتها عن تفوق الجنس الآرى على غيره من الأجناس البشرية . إن هذه النظرية كانت تستند على مسلمة أساسية مؤداها أن هناك خصائص بيولوجية موروثة لدى كل جنس من الأجناس البشرية تحدد بشكل أبدى تفوقه أو تخلفه الحضارى ولا سبيل إلى تغيرها . وكان علماء البيولوجيا الألمان يحاولون تقديم أدلة زائفة على صدق هذه المسلمة ولكن البحوث البيولوجية أثبتت أن ليس هناك أى « مورثات genes » ترتبط بالتحضر أو التخلف مثلما توجد مورثات ترتبط بلون البشرة مثلا ، كما أن الدراسات التاريخية والحضارية المقارنة أثبتت أن كثيراً من الأجناس التى تعتبرها النظرية العنصرية متخلفة كانت لها

حضارات أرقى بكثير جداً من حضارات تلك الأجناس التى تعتبرها النظرية أرقى من غيرها . (كانت الحضارة الفرعونية دليلا على زيف هذه الإدعاءات ، ففى الوقت الذى كانت مصر الفرعونية تقيم حضارة راقية مازالت حتى الآن مصدراً لحضارات العالم كانت شعوب أوربا تحيا حياة بدائية جداً) . وهكذا اتضح أن المسلمة الأساسية التى إستندت عليها النظرية العنصرية عن الإنسان تنفيها الأدلة الامبيريقية . فإذا ما حللنا هذه النظرية من ناحية مضمونها الايديولوجى لوجدنا أنها ذات مضمون إستغلالى ، فهى لم تكن سوى محاولة لتبرير إستعمار دول معينة لشعوب العالم عن طريق إستغلال العلم والتستر وراءه . والإجراءات العملية التى تشير إليها هذه النظرية كانت ببساطة تسليم الشعوب والأقوام المستعمرة والمستغلة بالأمر الواقع وقبول الخضوع لسيطرة القوى الاستعمارية بوصفه قضاء وقدر هذه الشعوب الذى لا مفر منه ولا سبيل إلا تغييره طالما أن أساسه بيولوجى. إن هذه النظرية العنصرية لو كانت قد قبلت دون مناقشة لأدت إلى استمرار الإستعمار . ولكن مناقشة مسلماتها الأساسية وتحليل الأدلة على صدقها والبحث عن أدلة تنفيها مع الكشف عن مضمونها الإيديولوجى وأهدافها العملية أدت إلى رفضها تماماً فى الأوساط العلمية والشعبية وإلى إستبدالها بنظرية علمية صحيحة مؤداها أن جميع أجناس العالم لا تختلف عن بعضها فى استعداداتها البيولوجية وأن ما يوجد بينها من إختلافات حضارية يرجع إلى ظروف تاريخية وبيئية يمكن تعديلها وتغييرها .

ولكن دعاة العنصرية والاستعمار والاستغلال لجأوا بعد أكتشاف زيف هذه النظرية من الناحية البيولوجية إلى العلوم الاجتماعية وصاغوا نظريات مشابهه عن الوراثة الاجتماعية والحضارية حاولوا بها أن يوهموا شعوب العالم أن هناك شعوباً متخلفة بالضرورة بحكم تراثها الحضارى والاجتماعى الذى يفرض عليها هذا التخلف كما قسموا الناس داخل المجتمع الواحد إلى فئات متخلفة حضارياً وسيكولوجياً

واجتماعياً وفئات متقدمة لها الحق فى السيطرة على المتخلفين وتوجيه أمورهم وتاريخ العلوم الاجتماعية مليء بهذه المسلمات ويكفى أن نشير إلى نظريات الصفوة فى علم الاجتماع وإلى نظريات الذكاء فى علم النفس (مثل نظرية أيزنك فى إنجلترا وجنسن فى الولايات المتحدة) . ولا بد لدارس النظرية الاجتماعية أن يخضعها للمناقشة والتحليل مستخدماً نفس أسس التقييم التى أستخدمت فى مناقشة وتحليل النظرية البيولوجية العنصرية . وسوف نعرض فيما يلى لأسس التقييم هذه بالتفصيل(١)

أولا : الافتراضات أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها النظرية :

ونعنى بالإفتراضات أو المسلمات تلك الأفكار التى تعتبر محوراً أساسياً تدور حوله النظرية وقد يخضعها صاحب النظرية للمناقشة ويقدم أدلة عليها أو قد يقدمها على أنها مسلمات لا تقبل الشك ، وقد تكون هذه الأفكار المحورية ظاهرة ومعبراً عنها بوضوح فى النظرية وبالتالى يسهل مناقشتها أو قد تكون كامنة أو خافية وبالتالى يصبح علينا أن نبذل جهداً فى إستنتاجها من خلال النظرية وإخضاعها للمناقشة . وقد

---

(١) أستخلصنا أسس تقييم النظرية الاجتماعية من دراستنا لمجموعة من المؤلفات لعدد من العلماء المتخصصين فى النظرية الاجتماعية ونقدها مثل :

(1) C. Wright Mills : Sociological Imagination .
(2) G. Sjoberg : Methodology in Social Research .
(3) Alvin Gouldner : The Coming Crisis of Western Sociology
(4) D. Kolfax and J. Roach : Radical Sociology .
(5) Ian Taylor et al : Radical Criminology .
(6) G. Osipov : Sociology .
(7) V, Afanasyev : Marxist philosophy .
(٨) س.ى بوبوف : نقد علم الاجتماع البورجوازى المعاصر .

أنظر تفاصيل المراجع بقائمة المراجع بآخر الكتاب .

أطلق آلفن جولدنر على هذه الإفتراضات تسمية ، الافتراضات الخلفية Background assumptions ، بينما أسماهـــا جـــدعون جوبرج ، الإفتراضات الرئيسية Basic assumptions ، وعادة ماتعكس هذه الافتراضات التوجيه الإيديولوجى لصاحب النظرية وإنحيازاته الاجتماعية . كما أن هذه الإفتراضات التى تتضمنها النظرية سوف تؤثر على أى باحث يجرى دراسات عن أى ظاهرة إجتماعية . وقد سبق لنا الحديث عن العلاقة بين النظريات والبحث فى ميدان العلم .

يقرر جوبرج أن النظريات الاجتماعية المختلفة مثل البنائية ـ الوظيفة والتفاعل الرمزى والوضعية والماركسية تتضمن جميعها إفتراضات معينة عن الواقع الاجتماعى وعن طبيعة الإنسان وعن علاقة العالم بالمادة التى يدرسها وأن هذه الافتراضات ترتبط جميعها ببعضها البعض منطقياً إلى حد ما .

ولما كان أى باحث فى ميدان الظاهرات الاجتماعية يتبع بالضرورة نظرية ما حتى ولو عن غير وعى ، فإن هذه النظرية بما تتضمنه من إفتراضات أساسية حول تلك الموضوعات السابق ذكرها سوف تؤثر عليه فى جميع خطوات بحثه ، إبتداء من إختياره للمشكلة موضوع البحث وإختياره لأدوات جمع البيانات حتى تفسيره المادة التى سيجمعها مهما كان مجال دراسته ،

وقد صنف جوبرج هذه الافتراضات الأساسية إلى خمس فئات أساسية هى :

(١) إفتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعى .

Assumptions about social reality

(٢) إفتراضات خاصة بطبيعة الإنسان وقدراته

Assumptions abut the nature of man and his potentialitiy .

(٣) إفتراضات خاصة بعلاقة الباحث بالظاهرات الاجتماعية التى يلاحظها .

Assumptions concerning the observers relationsuips to observed social phenomena .

(٤) إفتراضات خاصة بمستوى النظرية

Assumptions Concerning ihe Jevel of theory.

(٥) إفتراضات خاصة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية .

Assumptions about causal or explanatory variablses.

وفيما يلى شرح لكل نوع من هذه الإفتراضات الأساسية التى تحدد مضمون النظرية الاجتماعية .

أولا : الإفتراضات الخاصة بطبيعة الواقع الاجتماعى :

تعتبر هذه الإفتراضات من أهم موجهات النظرية الاجتماعية . ويمكن مناقشة هذه الإفتراضات على أساس عدة أبعاد فرعية :

١ — التغير أو الثبات فى الواقع الاجتماعى .

٢ — التكامل أو الصراع .

٣ — المادية أو المثالية .

٤ — وحدة الملاحظة والتحليل الأساسية (الفرد أو الجماعة) .

(أ) الإفتراضات المتعلقة بالتغير أو الثبات فى النظام الاجتماعى :

هناك بين علماء الإجتماع من يؤكدون أن الواقع الاجتماعى فى حالة تغير دائم وأن النظام الاجتماعى ليس ثابتاً ولكنه يكون دائماً فى حاله تكوين .

وفى مقابل هذا الافتراض نجد فريقاً آخر من علماء الاجتماع يرون أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات وإستقرار . وهذا الإتجاه الأخير هو السائد فى علم الاجتماع المعاصر فى الغرب .

ويرتبط بهذا الافتراض المتعلق بالتغير أو الثبات افتراضات متعارضة فيما
تتص بقدرة الانسان على السيطرة على بيئته . فأصحاب الاتجاه الأول (الثبات)
ون أن الإنسان لايفعل أكثر من أن يستجيب للنظام القائم (أى يتلاءم معه)
ما أصحاب الإتجاه الثانى (التغير) فيسلمون أن فى وسع الإنسان أن يغير دائماً
ن بيئته .

(ب) الافتراضات المتعلقة بالتكامل أو الصراع :

يرى أصحاب النظريات التى تفترض مسبقا أو تسلم بفكرة التكامل من أمثال
الكوت بارسونز أن الإنسان يسعى بطبعه إلى الاتساق والتعاون وأنه يتجنب
لتوتر والصراع . ووجهة النظر هذه تتناقض تماما مع وجهة نظر علماء آخرين من
مثال كارل ماركس وزيميل ، الذين افترضوا أن الإنسان فى حالة صراع دائم مع
بعضه البعض. ومن المؤكد أن وجهة النظر الأخيرة هذه سوف تؤدى بالباحث إلى
تحليل النظام الإجتماعى بطريقة مختلفة تماما عن تلك التى يتبناها علماء الاجتماع
لذين يؤكدون على التكامل والتعاون . كما أن الباحث فى هذه الحالة سوف يتبنى
فى الغالب المنطق الجدلى فى تحليلاته وسوف يهمل تماما فكرة التوازن على عكس
أصحاب الافتراضات التكاملية .

(ج) الإفتراضات المتعلقة بالمادية أو المثالية :

على الرغم من أن العلماء الفيزيائيين (علماء الطبيعة) يعتمدون كلية على افتراض
الأساس المادى للواقع فإن العلماء الإجتماعيين مازالوا يجدون صعوبة فى التسليم
بأن العالم المادى هو الواقع النهائى . وقد كان الماركسيون هم الذين قدموا التفسير
المادى للواقع .

وهناك جدل شديد بين علماء الإجتماع حول هذا الموضوع . ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن بعض علماء الاجتماع قد يسلمون بالأساس المادى للواقع الاجتماعى ولكنهم لايسلمون بفكرة الصراع . كما أن معنى الأساس المادى يختلف من عالم لآخر . فعلماء الاجتماع فى ميدان الإيكولوجيا البشرية يعتبرون الأساس المادى هو التكنولوجيا والبيئة والسكان ، بينما يعتبر علماء الإجتماع الماركسيين أن هذا الأساس يتمثل بصفة رئيسية فى القوى الانتاجية وعلاقات الإنتاج فى المجتمع .

وهناك فريق آخر من علماء الإجتماع يتبنون فكرة الثنائية (أى المادية والمثالية فى آن واحد) مثل علماء الإجتماع الظواهراتيين أو الفينومينولوجيين ومنهم الفرد شوتز ، حيث يرون أن الواقع ليس هو العالم المادى أو نسق المفهومات لدى الفرد ولكنه الرابطة بين الأثنين .

(د) الإفتراضات الخاصة بالوحدة الأساسية للدراسة — الفرد أو المجموعة:

مازال هناك خلاف أساسى بين علماء الإجتماع حول هذه النقطة ويتمثل الخلاف فى ذلك الجدل الدائر بين فهومانز وبارسنز . فومانز يرفض فكرة المجموعة أو النسق الإجتماعى كوحدة أساسية للتحليل ، ويتفق معه فى ذلك كثير من العلماء فهم يعتقدون أن الكل (أو المجموعة) ليست أكثر من مجرد مجموع أجزائها . بينما يرى الآخرون، ومن بينهم بارسونز أن الكل هو وحدة الدراسة وأنه يختلف عن مجرد مجموع الأجزاء .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك موقف الماركسين المادى الجدلى اللذين يختلفون عن هذين الفريقين من حيث أنهم يرون العلاقة الجدلية بين الكل والجزء كما يؤكدون فى نفس الوقت على الأساس المادى والتاريخى للواقع الإجتماعى .

ثانياً : الإفتراضات الخاصة بطبيعة الإنسان وقدراته :

يرتبط هذا الإفتراض الأساسي إرتباطاً وثيقاً بالإفتراض الخاص بطبيعة الواقع الإجتماعي .

فهناك من العلماء الاجتماعيين من إفترض أن الإنسان وأفعاله غير منطقية فالذين يقبلون الفكر الفرويدى مثلا يعتقدون أن الإنسان قد خلق مجتمعاً يعمل دائماً على كبت حوافزه البيولوجية ، فقد رأى فرويد أن الإنسان تدفعه دوافع وحوافز خفية لا يمكن فهمها إلا إذا تعمقنا لاشعوره . وعلى هذا فإن المقابلات التى كان يجريها فرويد فى دراساته كانت تعتمد على إفتراض أن الإنسان فى جوهره غير عقلانى أو غير منطقى . ولكن فرويد من جهة أخرى قد حاول بوصفه عالماً أن يفرض طابعاً عقلانياً على أفعال الإنسان غير العقلانية (أى قدم تحليلا عقلانياً لذلك) .

وهناك فريق آخر من العلماء يخالف هذا الرأى ويرفض التسليم بهذه الفكرة الفرويدية ويرى أن الإنسان كائن عقلانى . وقد سلم «تالكوت بارسونز» بذلك فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى» ولكنه عاد فتأثر بفكر فرويد عن الطبيعة اللاعقلانية للإنسان فى كتاباته اللاحقة .

كما أن هناك من بين العلماء الاجتماعيين من يسلمون بفكرة توماس هوبز الفيلسوف الانجليزى التى مؤداها أن الإنسان شرير بطبعه وأنه يهدف دائماً إلى تحقيق مصلحته على حساب الآخرين ، بينما يسلم غيرهم بأن الإنسان يرغب دائماً فى التضحية بمصالحه من أجل الصالح العام (مثل سوروكين) .

وأخيراً نجد من بين علماء الاجتماع أولئك المتشائمون وأولئك المتفائلون فيما يتعلق بقدرة الانسان على تحسين وتطوير ذاته وبيئته . فالوضعيون مثلا لا يسلمون

بأن الإنسان يستطيع التحكم فى بيئته ، بينما يرى أصحاب نظرية التفاعل الرمزى (مثل بلومرومبد) أن الإنسان قادر على تحسين ذاته والماركسيون يحاولون التوفيق وبين فكرة حتمية السلوك الانسانى من جهة وبين فكرة قدرة الإنسان على إعادة تشكيل بيئته من خلال الجهود الثورية من جهة أخرى .

ثالثاً : الإفتراضات الخاصة بعلاقات العالم بالظاهرات الاجتماعية التى يدرسها :

يضع كل عالم إجتماعى بعض الإفتراضات التى تكون عادة ضمنية فيما يتعلق بعلاقة الباحث بالواقع الاجتماعى . فهناك فريق من علماء الاجتماع يفترضون أن القائم بالملاحظة قادر على أن يعزل نفسه عما يلاحظه وأنه يستطيع أن يجرى ملاحظاته مستقلا عن الواقع الذى يدرسه وهذا الاتجاه هو الذى يتبناه المنطقيون الوضعيون لكن هناك فريقاً آخر يرى أن القائم بالملاحظة يؤثر فى الواقع الاجتماعى ويتأثر به بدوره . وهناك فريق ثالث يرى أن القائم بالملاحظة (أى الباحث) يؤثر ويتأثر بالنظام الاجتماعى الذى يدرسه ولكنه يستطيع عن طريق جعل هذه العلاقة المتبادلة تتخذ طابعاً موضوعياً أن يمارس درجة من السيطرة على هذه العلاقة وبالتالى يستطيع أن يحقق درجة عالية من الموضوعية التى يسلم الامبيريقيون بها ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها ومن المؤكد أن هذه الافتراضات سوف تؤثر هى الأخرى على كل خطوات البحث الاجتماعى ، فالباحث الذى يرى إمكانية عزل نفسه عن الظاهرة سوف يهمل دراسة نفسه كمتغير فى الظاهرة التى يدرسها أما الباحث الذى يسلم بعكس ذلك فإنه سيجعل نفسه موضوعاً للدراسة أثناء دراسته لأى ظاهرة .

رابعاً ـ الإفتراضات المتعلقة بمستوى النظرية :

مازلنا نجد فى ميادين علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان جدلا واسعاً حول ما إذا كان يجب على العالم أن يستخدم فى بحثه فروضاً بسيطة أم يستخدم إنساقا نظرية مجردة أو كبيرة أو يلجأ إلى النظريات متوسطة المدى .

ويرتبط مستوى النظرية الذى يستخدمه العالم بتصوره لنمو المعرفة الإنسانية فالباحثون الذين يتبعون الاتجاه الاسبيريقى المحدود يعتبرون المعرفة شيئاً يتراكم جزءاً فوق جزء وأن عناصر هذه المعرفة سوف تتجمع على المدى البعيد فوق بعضها البعض لكى تكون النظرية ، وفى مقابل ذلك الاتجاه نرى علماء آخرين مثل سوروكن الذى يقرر فى كتابه « الديناميات الاجتماعية والثقافية » أن المعرفة لا يمكن أن تتجمع إلا عن طريق إطار نظرى كبير ومن خلال هذا الإطار تمتزج عناصر المعرفة مع بعضها البعض فى كل متكامل له معنى .

وهناك فريق ثالث يمثله « روبرت مرتون » يتخذ موقفاً وسطاً بين الاتجاهين يرى أن على الباحث أن يسترشد بنظرية متوسطة المدى ، أى عن نظرية كل نوع من الظاهرات على حدة وليس مجرد فروض متفرقة كما يرى الأمبيريقيون ولا نظرية ضخمة كما يرى سوروكن وبارسونز .

ويختلف الماركسيون عن هؤلاء جميعاً فى وجهة نظرهم عن طبيعة المعرفة فهم يرون أن الخبرة الحسية هى أساس كل المعرفة الإنسانية بالواقع وأن الإنسان من تحليله لخبرته هذه تحليلا عقلياً يستطيع أن يصل إلى جوهر وحقيقة الأشياء التى يلاحظها ويصوغ معرفته هذه على شكل قوانين ونظريات عامة توجهه وترشده لجمع مزيد من الوقائع عن العالم المحيط به ، وكلما توفرت له وقائع جديدة إستطاع أن يعدل من هذه النظرية ويطور فيها ، ويرى الماركسيون أن النظرية العلمية عن المجتمع لا يجب أن تكون مادية فحسب ولكن لا بد أن تكون تاريخية أيضاً .

كما أنهم يرون أن النظرية التى تضم القوانين العامة ترشد العالم دائماً إلى إكتشاف القوانين الخاصة المتعلقة بظاهرات معينة وتؤدى هذه القوانين الخاصة بدورها إلى

إكتشاف قوانين عامة تؤدى بدورها إلى تعديل القوانين القائمة . وبذلك كله يسترشد العالم بنظرية أعم عن طبيعة الفكر أو الوجود وهى بالنسبة لهم المادية الجدلية . وهناك دائماً علاقة جدلية بين النظرية والواقع .

خامساً : الافتراضات المتعلقة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية :

تعكس طبيعة المتغيرات التى يستخدمها الباحث فى تفسيره للظاهرات التى يدرسها إفتراضاته الأساسية عن طبيعة الواقع الاجتماعى ومستوى التنظير ، أى أنها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بكل المتغيرات السابق الحديث عنها .

وتعتمد صياغة الباحث للمتغير أو المتغيرات التفسيرية على ميدان بحثه بالطبع ، سواء كان هذا الميدان أنساق الشخصية أو الانساق الاجتماعية أو الأنساق الثقافية وكذلك العلاقات المفترضة بين أنماط الظاهرات الاجتماعية .

ولكن ميدان دراسته ذاته يعكس إلى حد بعيد مفهوم العالم عن الطبيعة الأساسية للواقع الاجتماعى . فالماديون سوف يفسرون التغير الاجتماعى على أساس متغيرات مثل وسائل الانتاج بينما يفسر المثاليون ذلك على أساس متغيرات أخرى مثل القيم أو الأفكار .

ويستخدم علماء الاجتماع فى العادة واحداً أو أكثر من المتغيرات الآتية كمتغيرات مستقلة (تفسيرية) :

(١) المتغير التاريخى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين وخاصة علماء الأنثروبولوجيا أن كل ثقافة لها قوانينها الخاصة وعلى ذلك فإنه لا يمكننا فهم أنماط الانساق الثقافية إلا إذا إعتبرناها وحدة كلية لها إمتدادها الزمنى . وهذا الافتراض الذى يؤكد على

اعتماد الحاضر على الماضى يفرض على الباحث الأسلوب التاريخى فى البحث وإلى حد ما يفرض عليه أيضاً أن يتبنى إطاراً نظرياً تطورياً لكى يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل .

(٢) المتغير الاقتصادى أو التكنولوجى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين أن العوامل الاقتصادية والتكنولوجية هى التى تحدد كافة الظاهرات الاجتماعية ولذلك فإننا نرى كثيراً منهم يتخذون من الثورة الصناعية متغيراً أساسياً يفسرون به التغير المستمر فى أبنية المجتمعات . ويعتقد بعض الكتاب أن العامل الاقتصادى متمايز من الناحية التحليلية عن العامل التكنولوجى ويؤكد بعضهم على متغير أو آخر من الاثنين :

ومن جهة أخرى يرى الماركسيون أن أساليب الإنتاج تتضمن كلا من العوامل التكنولوجية والاقتصادية ولكنهم يعطون أهمية أكبر للعوامل الاقتصادية ولكن يجب أن نضع فى إعتبارنا أن العوامل الاقتصادية والتكنولوجية يمكن أن تعتبر ذات أساس مادى كما هو الحال فى النظرية الماركسية أو ذات أساس مثالى كما هو الحال فى النظريات المثالية ، فالمثاليون يميلون إلى النظر إلى التكنولوجيا بوصفها نسقا من الأفكار والمعرفة التى يمكن بواسطتها التعامل مع الموضوعات المادية .

(٣) متغير القيم الثقافية

يميل معظم الاجتماعيين إلى إفتراض أن هذا المتغير هو أهم المتغيرات التى يمكن بواسطته تفسير الفروق بين المجتمعات ، فقد اعتمد ماكس فيبر على نسق القيم والمعتقدات بوصفه نسقا تفسيريا فى تفسيره للعلاقات بين الدين والنسق الاقتصادى فى مختلف قطاعات العالم الاجتماعى .

ويفعل تالكوت بارسنز نفس الشىء فى دراسته للظاهرات الاجتماعية ، وبذلك

يقف موقفاً مخالفاً تماماً لموقف العلماء الاجتماعيين الذين يعطون الأولوية للعوامل المادية .

٤— متغير القوة الاجتماعية :

يعتقد كثير من العلماء الاجتماعيين وبخاصة علماء الاجتماع المتأثرين «بوسكا» و«بارتيو» و«ميشلز» أن القوة الاجتماعية يمكن أن تستخدم كمتغير يفسر التغييرات البنائية التى تطرأ على الانساق وقد أستخدم ماركس القوة كمتغير تفسيرى لكى يدعم به وجهة نظره عن أهمية وسائل الانتاج ، كما أستخدمه فيبر لكى يدعم به وجهة نظره عن أهمية القيم الثقافية .

٥— متغيرات تفسيرية أخرى :

وهناك متغيرات أخرى كثيرة يستخدمها علماء الاجتماع وخاصة الامبيريقيون منهم لتفسير للظاهرات الاجتماعية التى يدرسونها مثل حجم السكان والحضرية والسن والنوع والأسرة والبيرقراطية و . . . . . الخ ويختلف علماء الاجتماع فيما بينهم فيما يتعلق باستخدامهم لهذه المتغيرات حسب درجة العمومية أو التخصيص فى مستوى التنظير الذى يستخدمون هذه المتغيرات على ضوئه .

هذه هى فئات الافتراضات الأساسية التى قدمها جدعون جوبرج بوصفها من أهم المحددات النظرية لكل خطوات البحث الاجتماعى . ويجب ان نشير هنا مرة أخرى الى الترابط بين جميع هذه الافتراضات بعضها البعض فى نسق متكامل يشكل فى النهاية الإطار النظرى للباحث . فإذا كان الباحث ماديا جدليا مثـــلا فإنه سيبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى مادى وأن هذا الواقع فى حالة تغير مستمر وأن التغيرات الكمية تؤدى الى تغيرات كيفية وأن هذا الواقع يتضمن دائما صراعا بين الأضداد ، وهذا الصراع هو القوة المحركة التاريخ حيث ينجم عنه كيف جديد يدخل فى صراع مع ضده لينجم عن ذلك كيف آخر وهكذا . كما أنه سوف يعتبر وحدة الدراسة الإساسية والمتغير التفسيرى الرئيسي هو التكوين

الاقتصادى الاجتماعى (إقطاعى — رأسمالى — اشتراكى مثلا) وسوف يركز بصفة أساسية أيضا على دراسة كافة الظاهرات الاجتماعية . من منظور تاريخى دون يجعل الفرد أبدا وحدة الدراسة الأساسية أو المتغير التفسيرى كما أنه سيجعل الحالات النفسية والقيمية والثقافية متغيرات تابعة وليست متغيرات مستقلة .

كذلك سوف يفترض منذ البداية أن الانسان قادر على تغيير واقعه الاجتماعى أو بعبارة أخرى دفع عجلة التغير إلى الأمام فى اتجاه التطور الاجتماعى حسب القوانين المادية التاريخية وذلك عن طريق فهمه لهذه القوانين وعن طريق عمله الثورى وسوف يفترض هذا الباحث المادى الجدلى أيضا أن الباحث يستطيع أن يؤثر على الظاهرة موضوع الدراسة حتى أثناء دراسته لها فالباحث والظاهرة يدخلان سويا فى علاقة جدلية بالضرورة وسوف يسترشد هذا الباحث فى كل خطوات بحثه بنظرية عامة عن الكون والمجتمع ويستمد من النظرية فروضه الجزئية التى يخضعها للدراسة .

ويختلف ذلك الباحث بالطبع عن باحث آخر وضعى يسلم بافتراضات مخالفة تماما لتلك التى يسلم بها المادى الجدلى . فالباحث الوضعى سوف يبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعى فكرى أو قيمى أى مثالى ، حتى ولو أتخذ محورا لدراسته بعض المتغيرات التى تبدو مادية مثل التكنولوجيا أو الاقتصاد فإنه سيضفى عليها مضمونا فكريا بوصفها نسقا من الأفكار أو المعتقدات وليس بوصفها أشياء مادية كما أنه سيميل الى النظر إلى الواقع الاجتماعى على أنه فى حالة من السـكون والتكامل والاستقرار وسيجعل وحدة دراسته التى يركز عليها الفرد أو المجموعة الصغيرة . كما أنه سيميل إلى افتراض أن الباحث منفصل تماما عن الظاهرة التى يدرسها وأنه لا بد أن يكون محايدا تماما عند دراسته لها (وذلك ما تعرض للكثير من النقد على أساس انه مناف للواقع) ، ولن يستخدم الباحث الوضعى نظرية عامة يسترشد

بها فى دراسته أو بتعبير أدق لن يعترف بأنه يسترشد بنظرية عامة بل سيدعى أنه يهدف فقط إلى مجرد الوصول إلى فروض جزئية يمكن التحقق من صدقها بالتجريب وأن النظرية تمثل بالنسبة له نهاية المطاف وسيهمل مثل ذلك الباحث المتغيرات التاريخية والمادية ويهتم بتغيرات جزئية أو فرعية ذات طبيعة مثالية .

ثانيا : المضمون الايديولوجى للنظرية :

على عكس مايدعيه علماء الاجتماع المثاليين لاتخلو نظرية اجتماعية من مضمون إيديولوجى كما سبق أن أوضحنا . وإذا ماعدنا الى الافتراضات الأساسية السابق الحديث عنها وإلى ماسبق أو شرحناه عن العلاقة بين النظرية والايديولوجيا لوجدنا أن كلا من الافتراضات التى تتضمنها النظرية ذات بعد إيديولوجى واضح.

وسوف نناقش هذا المضمون الإيديولوجى عندعرضنا للنظريات المختلفة ولكن يجب أن يكون فى أذهاننا ونحن ندرس هذه النظريات بعض الأسئلة التى تدلنا على هذا البعد الايديولوجى مثل :

(١) ماالمجموعات الاجتماعية التى يؤكد صاحب النظرية بطريقة صريحة أو ضمنيه عن مصالحها ؟

(٢) ما المجموعات التى يؤكد صاحب النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع ؟

(٣) أى نظام اجتماعى — اقتصادى يصوره صاحب النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية ؟

(٤) ما الجوانب التى يركز عليها صاحب النظرية اهتمامه ويبرزها وما الجوانب التى يتغافل عنها أو يتجاهلها فى الحياة الاجتماعية ؟ ولمصلحة من فى المجتمع يتم هذا الإبراز أو التجاهل ؟

ثالثا : الأدلة الواقعية على صدق الاستنتجات النظرية

سبق أن ذكرنا أن النظرية التى لاتستند على وقائع أو أدلة مستمدة من الواقع لاتزيد عن كونها مجرد تأملات عقلية غير علمية ولذلك فإن أى أحكام أو استنتاجات تتضمنها النظرية يجب لكى نقبلها أن تكون مدعمة بالأدلة .

فإذا أصدر صاحب نظرية ما (مثل باريتو أوموسكا) حكما بأن الحكام يمثلون صفوة المجتمع وأنهم يكونون مزودين بخصائص ومهارات فطرية أو موروثة تؤهلهم لحكم بقية أفراد المجتمع ، أو أن هناك أجناسا بشريه أرقى من غيرها وبالتالى فمن حقها أن تسيطر على غيرها ، وجعل هذا الحكم محورا لنظريته فإننا لابد أن نتساءل هنا عن الأدلة الواقعية على ذلك . وأن نفتش عن أدلة أخرى تؤكد أو تنفى هذا الاستنتاج .

ويمكننا فى هذا المثال أن نهدم هذا الحكم والنظرية المرتبطة به كلها إذاما استطعنا أن نثبت أن الصفوة الحاكمة لاتتميز عن غيرها من بقية مجموعات المجتمع إلا فى سيطرتها على مصادر الثروة فى المجتمع ، أنه إذا انتقلت هذه السيطرة إلى مجموعة أخرى ظل يفترض لفترات طويله طبقا لهذه النظرية أنه تنقصها هذه المهارات (مثل الطبقة العاملة) فإننا فى هذه الحاله نستطيع أن نرفض النظرية بأسرها لأنها تستند على أدلة صادقة .

وكذلك الحال بالنسبة لأحكام أخرى أقيمت عليها النظريات الجغرافية مثل نظرية « مونتسكيه » الذى قرر أن سكان المناطق الباردة يختلفون بالضرورة عن سكان المناطق الحارة فى عقائدهم وخصائصهم النفسية ونظمهم الاجتماعية وأن الطقس والبيئة الجغرافية يلعبان الدور الحاسم فى تحديد شكل المجتمع .

لقد اتضح من المقارنات الواقعية بين مختلف المجتمعات أن هذا الحكم يفتقر إلى الأدلة الواقعية بل أن هناك كثيراً من الأدلة التى تنفيه .

رابعا : الأجراءات العملية التى تشير اليها النظرية

يجب علينا عند قراءتنا لأى نظرية ان نحاول دائما أن نستنتج منها الإجراءات التى توجهنا إليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة : ولو عدنا إلى مثال النظريات الجغرافية لنترجمها إلى إجراءات عملية لوجدنا أنها تعنى مباشرة أن سكان المناطق الحارة سوف يظلون على ما هم عليه من صفات مهما حاولوا تغييرها . فبما أن الطقس ثابت فإن حالة هذه المجتمعات لابد أن تكون أيضا ثابته وبالتالى فلا أمل لديهم فى التفكير فى أن يصبحوا مثل سكان المناطق الباردة .كما أن نظرية الصفوة توحى لنا أيضاً بأن على جميع الناس أن يخضعوا لهذه الصفوة لأنها هى الأقدر على الحكم وتسيير دفة المجتمع ، والعلماء الذين يفترضون أن المجتمع فى حالة اتزان وتكامل وينفون فكرة الصراع فيه إنما يدعون الناس إلى المحافظة على حالة الاتزان المفترضة هذه ويحذرونهم من الثورة أو التمرد على أى أوضاع جائرة قائمة لأن من شأن ذلك الإضرار بكيان المجتمع .

والعلماء الذين يفترضون أن قدرات الانسان على تغيير واقعه الاجتماعى محدودة يدعون الناس إلى قبول الواقع الاجتماعى كما هو عليه والى أن يرضى كل إنسان بقدره ونصيبه وألا يسعى الى تغيير هذا الواقع .

تلخيص

يتعين علينا فى دراستنا للنظرية الاجتماعية أن نتبع الخطوات التالية : ـ

أولا : قراءة وفهم واستيعاب هذه النظرية بكافة أبعادها

ثانيا : استخلاص المسلمات الأساسية التى ترتكز عليها كل تفاصيل النظرية .

ثالثا : إثارة التساؤلات الآتية والحصول على إجابات عليها من النظرية ذاتها

١ ـ كيف تصور النظرية الواقع الاجتماعى بشكل عام ؟

هل تؤكد أن أساس هذا الواقع مثالى (القيم والأفكار والمعتقدات الخ) أم تؤكد أن أساسه مادى (كيفية انتاج أفراد المجتمع لمستلزمات معيشتهم وكيفية توزيع عائد هذا الإنتاج ونوعية العلاقات المترتبة على ذلك) . ؟

ـ هل تؤكد أن الواقع الاجتماعى فى حالة ثبات وتوازن أم تؤكد أنه فى حالة صيرورة وتغير دائمين ؟

ـ هل تؤكد أن التغير ضرورى لاستمرار المجتمع أم تؤكد أنه مخل ببقاء المجتمع ومهدد لاستمراريته ؟

ـ هل تؤكد أن المجتمع تسوده دائما (ويجب أن تسوده حالة من التكامل والاتفاق الاجماعى بين أفراده بغض النظر عما بينهم من اختلافات وبغض النظر عن طبيعة النظام الاجتماعى الاقتصادى أم أن هناك فيه حالة من الصراع بين المجموعات لاختلاف مصالح كل منها داخل النظم الاجتماعية التى تخلق التفاوت بين المجموعات .

ـ هل تؤكد على أن وحدة دراسة الواقع الاجتماعى هى الفرد أم المجموعة أم المجتمع الكبير ؟

١ ـ كيف تصور النظرية طبيعة الإنسان ؟

ـ هل تصور الإنسان على أنه قادر دائما على تغيير واقعه الاجتماعى أم تصوره على أنه محكوم بهذا الواقع وليس عليه إلا أن يتلاءم معه .

ـ هل تصور الإنسان على أنه كائن منطق عقلانى أم على أنه غير عقلانى ؟

ـ هل تصور الإنسان على أنه أنانى بطبعه أم على أنه إجتماعى ؟

٣ — كيف تصور النظرية علاقة العالم بالظاهرات الاجتماعية التي يدرسها ؟

— هل تسلم بأن العالم جزء من الظاهرات التي يدرسها يؤثر فيها ويتأثر بها في نفس الوقت أم تسلم بأنه منعزل عنها .

— هل تسلم بأن هدف العلم الاجتماعي دراسة الظاهرة من أجل تغييرها وتطويرها أم من أجل الإبقاء عليها والحفاظ على وضعها ؟

٤ — ما مدى الشمول في النظرية ؟

— هل تقدم تصورا عاما عن المجتمع الإنساني بأسره ؟

— هل تقدم تصورا عاما عن نوع معين من المجتمعات ؟

— هل تقتصر على تقديم تصور عن أنواع معينة من الظاهرات ؟

٥ — ما هي نوعية المتغيرات التي تعتمد عليها النظرية في تفسير الظاهرات الاجتماعية المختلفة ؟ .

— هل هي متغيرات تاريخية ؟

— هل هي متغيرات مادية (اقتصادية مثلا)

— هل هي متغيرات مثالية (الأفكار والقيم)

— هل هي متغيرات جغرافية وطبيعية ؟

٦ — هل تميز النظرية بين القوانين العامة (أو الأحكام العامة) التي تنطبق على المجتمع الإنساني ككل وبين القوانين النوعية التي تنطبق على كل نوع من أنواع المجتمعات وكل مرحلة من مراحل تطورها أم تقوم بالتعميم من نوع واحد على الإنسانية ككل ؟

٧ — ما المضمون الإيديولوجى للنظرية ؟

— ما النظام الاجتماعى الاقتصادى الذى تصوره النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية ؟

— ما المجموعات الاجتماعية التى تدافع النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها؟

— ما المجموعات التى تؤكد النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع ؟

— ما الجوانب التى تبرزها النظرية وما الجوانب التى تتغافل عنها أو تتجاهلها فى الحياة الاجتماعية ؟

— ما موقف صاحب النظرية السياسى وما الأدلة على إنتماءاته وولاءاته الاجتماعية ؟

٨ — ما الأدلة الواقعية على صدق المسلمات والاستنتاجات التى تتضمنها النظرية ؟

— هل هناك أدلة تاريخية على صدقها وما هى ؟

— هل هناك أدلة من علوم أخرى تؤكدها ؟

— هل اتبع المنهج العلمى فى الوصول إلى هذه الأدلة ؟

— هل تدعونا النظرية للتفتيش عن الأدلة ومناقشتها أم تقدم لنا أفكاراً باعتبارها حقائق لا تقبل المناقشة ؟

— هل الأدلة التى تقدمها النظرية على صدق مقولة ما كافية وهل توجد أدلة مناقضة ؟

٩ — ما الاجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا استرشدنا بها فى التطبيق أو فى رسم السياسات الاجتماعية ؟ هل تشير علينا بالحفاظ على الوضع القائم فى

المجتمع وعلى نوعية العلاقات القائمة بين المجموعات الاجتماعية فى المجتمع الواحد وبين المجتمعات (المتقدمة والمتخلفة مثلا) دون إحداث تغييرات فى البناء الاجتماعى أم تدعونا إلى تغيير هذا الواقع وتطويره ؟ هل تدعونا إلى أن نرسم سياساتنا الاجتماعية بحيث نعمل على جعل الإنسان يتكيف ويتلاءم مع الواقع الذى تصوره على أنه ثابت ، أم تدعونا إلى تغيير الواقع ليتلاءم وحاجات الإنسان . بعبارة أخرى هل الإجراءات التى تدعونا إليها النظرية ذات طبيعية محافظة Conservative أى تهدف إلى إبقاء الوضع على ما هو عليه أم هى إصلاحية ليبرالية Liberal تدعونا إلى إحداث تغييرات ثانوية طفيفة أم أنها ثورية هدفها خلق أوضاع جديدة تماماً ومتطورة ؟

إن إجابتنا على هذه التساؤلات بعد إستيعابنا لأى نظرية إجتماعية ندرسها هى التى تساعدنا على إتخاذ موقف محدد منها . وفى رأينا أن هذه التساؤلات تمثل المعايير العلمية ، وقد أثارها علماء إجتماع يتصفون بسعة الأفق والقدرة على التفكير النقدى الإيجابى ومساعدتهم على أن يقدموا إسهامات مفيدة لعلم الاجتماع حظوا بتقدير وإحترام المشتغلين بهذا العلم . ومن أمثلة هؤلاء العلماء : « رايت ميلز » وجدعون جوبرج وآلفن جولدنر وزايتلين وروبين بلاكبورن .

كلمة أخيرة أود أن أذكرها بهذا الصدد . دراستنا للنظرية الاجتماعية بصفة خاصة ولعلم الاجتماع بصفة عامة يجب أن تكون موجهة بهدف أساسى هو مستقبل مجتمعنا . فهل الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية الاجتماعية تدعونا إلى تغيير واقع هذا المجتمع وتطويره للحاق بركب التقدم أم أنها تصرف إنتباهنا عن هذا الهدف وتكرس حالة التخلف والتبعية التى تعانى منها مجتمعات العالم الثالث . هل النظرية الإجتماعية إذا طبقنا عليها المعايير العلمية الصحيحة للتقييم نظرية علمية فعلا أم أنها لاتزيد عن كونها سلاحاً إيديولوجياً يتخفى وراء ستار العلم ؟

الباب الثـــاني

النظريات الـكلاسيكية ونقدها

الفصل الرابع : أوجست كونت

الفصل الخامس : إميل دوركايم

الفصل السادس : ماكس فيبر

الفصل السابع : فلفريدى باريتو

الفصل الثامن : كارل ماركس

الفصل الرابع

وضعية كونت وسكونية المجتمع

قليلون هم الذين ما زالوا ينكرون أو ربما لا يعلمون الموقف السياسى لأوجست كونت وتحيزاته الطبقية الايديولوجية وإرتباط ذلك الموقف الايديولوجى له بما صاغه من نظرية عامة عن المجتمع الإنسانى. ولكن كثيرون هم الذين ما زالوا غير قادرين على إدراك أن أفكار كونت الإيديولوجية التى ألبسها لباس العلم الاجتماعى مازالت هى ذاتها التى تشكل لب وجوهر علم الاجتماع التقليدى فى الغرب مهما أتخذت من أساليب وصور نظرية متنوعة قد تجعلها تبدو للنظرة السطحية مغايرة لأفكار كونت . وسوف نحاول فى هذا الفصل إبراز موقف كونت الإيديولوجى وإنعكاساته على نظريته بما تضمنته من مسلمات أساسية وما تشير إليه من إجراءات تطبيقية ، ثم نكشف فى الفصول التالية عن تطابق مسلمات كونت النظرية مع مسلمات غيره من علماء الإجتماع الكلاسيكيين ومع مسلمات علماء الإجتماع التقليدين المحدثين فى الغرب .

الموقف الإيديولوجى لأوجست كونت :

إن كل من تعرض من المؤلفين فى النظرية الإجتماعية لأوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) لم يستطع ، حتى ولو أراد ، أن يتجنب الإشارة لموقف كونت الإيديولوجى ذلك أنه كان من الصراحة والوضوح بحيث لم تخل أى من كتاباته من دليل عليه .

إن اهتمام كونت بالنظرية الاجتماعية ، بل إن اختراعه اسم « علم الاجتماع » قد نبع من دوافع سياسية أكثر منها علمية أو فكرية بحته . وفى ذلك يقول نيقولا تيماشيف :

« لقد روع كونت بالآثار الهدامة للثورة الفرنسية ، شأنه فى ذلك شأن كثير من فلاسفة هذه المرحلة ، وبخاصة الفلاسفة الاجتماعيين أمثال بونال وجوزيف دى ميستر . كما روعته الفوضى التى ترتبت على تقويض الجماعات الاجتماعية الوسيطة بين الأسرة والدولة بالقوة ، ولذلك كان إصلاح المجتمع هو شغل كونت الشاغل منذ البداية ، وكان ذلك هو الهدف الرئيسى فى حياته . ولما كان العلم الجديد بذلك غير متاح وغير قائم ، فقد كرس جهوده لخلقه [1] .

علم الاجتماع إذا كان بالنسبة لكونت هو الركيزة التى يجب تطويرها والاعتماد عليها لإصلاح المجتمع ، ففى أى اتجاه كان كونت يريد الإصلاح وما دور علم الاجتماع فى ذلك ؟ يمكننا أن نستدل على نوايا كونت من خطاب كتبه إلى نيقولا قيصر روسيا قال فيه :

« إن الثورة الجماعية للمفكرين المحدثين ضد كل أشكال السلطة السابقة قد خلقت بالتدريج لدى كل فرد ميلا معتاداً لعصيان العقل للقلب مما يؤدى إلى القضاء على كل نظام إنسانى . وهكذا فإن الغرب بأسره يتجه نحو الشيوعية الهمجية التى تسحق فيها الحرية الحقيقية تحت وطأة المساواة المهينة والمخزية » [2] .

وقد أرفق كونت بهذا الخطاب نسخة من كتابه « الفلسفة الوضعية » وأيد فى خطابه ديكتاتورية الحاكم وعبر عن اقتناعه بأن أسلوب الحكم الديكتاتورى هو المناسب للقيام بإصلاحات تنقل روسيا إلى المجتمع الوضعى .

---

(١) نيقولا تيماشيف . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(2) Stern, Bernard J. Historical Sociology (New York, Citadel Press. 1959). p. 196.

ولم تكن الشيوعية التى يخشاها كونت هى مجرد النظام الاجتماعى الذى تنادى به الماركسية أو الفكر الاشتراكى ولكن كل شىء وكل فكر تحررى بورجوازى . ففلسفة التنوير أعتبرت شيوعية ونظام الإصلاح المالى البورجوازى أعتبر شيوعياً ودفاع الشخص عن نفسه مستخدماً عصا إذا هوجم ببندقية نظر إليه على أنه من شرور الشيوعية ، والنظام البرلمانى الديمقراطى نظر إليه على أنه مساواة مهينة ومخزية . لقد انضم كونت إلى زعماء الثورة المضادة للثورة الشعبية فى فرنسا وسخر نفسه فى خدمتهم .

لقد عارض كونت كما يقرر مؤرخ علم الاجتماع الأمريكى برنارد سترن Bernard Stern النظام البرلمانى وهلل للإنقلاب الذى قاده الديكتاتور لويس بونابارت . وقد أعلن كونت سعادته بالنظام الديكتاتورى بقوله : « إن جمهوريتنا قد انتقلت من المرحلة البرلمانية التى لا تناسب إلا انجلترا فى المرحلة الانتقالية التى تمر بها ، إلى المرحلة الديكتاتورية ، وهى التى تمثل النظام الأوحد المناسب لفرنسا مع العلم بأنه نظام مناسب أيضاً لغيرها من البلدان الكاثوليكية كما نرى فى أسبانيا . لقد تخلينا عن أوهام الدستورية وليس هناك من سبيل آخر للقضاء على الثورة سوى إقامة تحالف فعال بين النظام والتقدم »[(١)] .

ولم يكن كونت معادياً للإشتراكية والديمقراطية فحسب ولكنه كان أيضاً شديد العداء لأبسط حقوق العمال فى إقامة روابط أو نقابات أو منظمات سياسية تدافع عن حقوقهم وتحقق العدالة الاجتماعية ، ودعى إلى إعادة البناء الروحى للطبقة العاملة Spiritual Construction حتى يمكن إعادة بناء المجتمع ، ولذلك رأى أن التربية هى الوسيلة الأساسية للاصلاح الاجتماعى .

---

(1) Stern, Ibid. p. 197.

لقد أيد كونت إقامة النظم الديكتاتورية وقمع أى حركات راديكالية ولكنه قرر فى نفس الوقت أن التربية يجب أن تكون الوسيلة الأساسية لإصلاح المجتمع ، فالاستمالة فى رأيه خير من العنف لأنه كان يدرك أن العنف من جانب السلطة سوف يولد عنفاً لدى الجماهير وفى ذلك يقول كونت : « إن الهدف الجوهرى للسياسة العملية يجب أن يكون تجنب الثورات العنيفة التى تنشأ عن العقبات التى توجد فى طريق تقدم الحضارة واختزال هذه الثورات إلى مجرد حركات أخلاقية». ورسم كونت الطريق لتجنب الثورات العنيفه بقوله : « يجب أن نعرف بأكبر درجة من الدقة الاتجاه الفعلى للحضارة حتى نستطيع أن نجعل سلوكنا السياسى متفقاً معه وحتى يمكن تجنب الصدام مع الطبقات الحاكمة ومنع أى خطر يمكن أن يلحق بنظام الملكية الخاصة » .

وقد اتخذ كونت موقفاً عدائياً من الإيديولوجيات الثلاث الرئيسية السائدة فى عصره وهى الليبراليه والاشتراكية والشيوعية ، وبذل كل جهده للحد من انتشارها ، فقد رفض منذ البداية الليبرالية الفلسفية بكل متضمناتها ومقتضياتها السياسية والاقتصادية رغم أن المظاهر الاقتصادية لهذه الحركة كانت تنادى بضرورة رفع القيود والحواجز المفروضة على الحياة الاقتصادية لإتاحة الفرصة لظهور الحوافز الفردية التى تساعد على النجاح . كذلك وقف موقف المعارضة السافرة الصريحة من الشيوعية التى كان يعتبرها إيديولوجية لا أخلاقية ، ودخل فى حوار عنيف مع الاشتراكية انتهى به إلى رفضها لأنها تقف موقف العداء من المجتمع البورجوزاى وتحاول تغييره عن طريق الثورة وليس عن طريق التوعية أو عن طريق التغير التدريجى البطىء . وهذا معناه فى آخر الأمر أن أوجست كونت يرى أن المجتمع الإنسانى يعيش على التنظيم أكثر مما يعيش على الإيديولوجيات وأن أفضل صورة

الحياة الاقتصادية والسياسية هى بالتالى الرأسمالية وبالذات الرأسمالية الأوربية[١].

وعلى الرغم من أن أوجست كونت قد دعى إلى إنشاء علم جديد لدراسة المجتمع أسماه علم الاجتماع إلا أنه كان طوال حياته وفى كل مؤلفاته رجل أخلاق وداعية إيديولوجية أكثر منه عالما، بل إن بعض المؤلفين اعتبروه مدعيا للنبوة وأنه اعتبر نفسه نبيا للإنسانية يبشر بدين جديد هو الوضعية. وقد وصفه دانكان متيشل فى قاموس علم الإجتماع بقوله : « فيلسوف ورجل أخلاق وعالم إجتماع فرنسى »[٢]. وصور كونت علماء الإجتماع بصورة القساوسة أو قساوسة الدين الجديد للبشرية ووضع ترتيبا هرميا لهم يشبه التدرج فى الكنيسة الرومانية، بل إنه تعدى هذا كله إلى حد تسمية أيام السنة بأسماء قديسين وضعيين وحدث ذلك بعد إصابته بالاضطراب العصبى الشديد فى سن الثامنة والعشرين.

ومن الثابت تماما أن أفكار كونت النظرية التى حاول أن يصبغها بالصبغة العلمية لم تنفصل أبداً عن أفكاره العملية أو الإجراءات التى كان يريد أن تتبع فى المجتمع « لقد كانت النظرية ترتبط عنده دائماً أبداً بالفعل أو بإجراءات اجتماعية، لقد كان، مثل غيره من أنبياء باريس، شخصاً ملتزما تماماً يعرف جيدا ما يريد أن يكون عليه المستقبل ويرسم صورة هذا المستقبل بأكبر قدر ممكن من التفاصيل الدقيقة »[٣].

---

(١) أحمد أبو زيد. العلوم الإنسانية والصراع الإيديولوجى. مجلة عالم الفكر - المجلد الثانى - العدد الثانى ١٩٧١ ص ٤٥٠.

(2) Duncan Mitchel : A Dictionary of Sociology. Routledge & Kegan Paul. London. 1968.

(3) Robert W. Friedrichs ; A. Sociology of Sociology. The Free Press. New-York. 1970. pp. 70—71.

ومع هذا فإن علم اجتماع كونت أو ما أسماه علم الاجتماع الخالص Pure Sociology (١) هو الذى أصبح علم الإجتماع الأكاديمى أو علم الاجتماع السائد فى الجامعات فى أوربا الغربية والذى وصل إلى قمة تطوره التنظيمى فى الولايات المتحدة الأمريكية(١) وسوف يتبين لنا عند عرضنا لأقوى الاتجاهات النظرية الحديثة فى علم الاجتماع ، وبخاصة الوظيفية ، التشـــابه الشديد بينها وبين أفـكار كونت الأساسية .

ولكن كيف ترجم كونت آراءه السياسية وموقفه الإيديولوجى المنحاز تماماً للديكتاتورية وللرأسمالية المستبدة إلى نظرية اجتماعية يدعم بها هذه الآراء ويبرر بهـا النظام الذى ارتأى أنه أصلح نظام للبشرية ؟

أولا : المنهج والفلسفة الوضعية Positive philosophy :

إن أول من استخدام لفظ الوضعية هو هنرى كونت سان سيمون Hreni Conte de Saint Simon وكان يعنى به استخدام الطريقة العلمية وتطبيقها على الفلسفة ، وقد تبنى أوجست كونت هذا اللفظ وصاغ حوله نظرية فلسفية اجتماعية عامة انتشرت على نطاق واسع فى بلدان العالم العربى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين .

وقد رأى كونت أن الوضعية تمثل الأساس الذى يجب أن ترتكز عليه كل محاولات التنظيم الاجتماعى للقضاء على الفوضى الاجتماعية (التى تتمثل فى الحركات النقدية) التى كانت توجد فى أوربا فى عصره من وجهة نظره . ولفظ الوضعية

---

(1) Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology. Heinemann. London, 1971, p. 111.

Positivism يعنى الإيجابية أو إتخاذ موقف إيجابى مما هو قائم فى المجتمع وليس موقفا نقديا أو رفضا أو سلبا لهذه الأوضاع القائمة كما يفعل المفكرون النقديون. وهنا نرى أول ترجمة لإيديولوجية كونت إلى مبادىء نظرية. فهو بتبنيه الفلسفة الوضعية أو الإيجابية قد أقر مبدأ النظر إلى الواقع الاجتماعى القائم نظرة إيجابية وقبوله على ما هو عليه واستبعد منذ البداية أى محاولة لنقده أو لتغييره. وهذا الواقع هو التنظيم الاجتماعى الرأسمالى القائم على الملكية الخاصة وعلى الحكم المطلق (١).

وقد رفض كونت أن ترتبط النظرية الاجتماعية بأى فلسفة نقدية أو سلبية، كما رفض أن يولى أى اهتمام للاقتصاد السياسى كأساس لفهم المجتمع، ورأى أن أى معارضة للحقائق الاجتماعية الواقعة يجب أن تمحى من المناقشة الفلسفية. وقد خالف كونت فلاسفة عصر التنوير الفرنسيين الذين كانوا يقيسون العمل الإنسانى أو الفاعلية الإنسانية بمقياس حقيقة تعلو على النظام الاجتماعى القائم أى بتنظيم إجتماعى لا يوجد بوصفه واقعا بل يوجد بوصفه هدفا والذين رأوا أن الناس يمكنهم تغيير أشكال الحياة الحالية التى يعشون عليها. وبدلا من ذلك رأى كونت أن النظام الاجتماعى القائم هو وحده الذى يمثل الحقيقة وأن وظيفة علمه الجديد هى مجرد تسجيل حقائق هذا النظام وبذلك كانت نظرية كونت الوضعية منذ نشأتها دفاعا إيديولوجيا عن مجتمع الطبقة الوسطى كما كانت تحمل بذور تبرير فلسفى للنزعة التسلطية وعودة لإلغاء العقل والتشهير به (٢) وأكد كونت بفلسفته

(1) Irving Zeitlen. Ideology and Development of Sociological Theory. Prentice-Hall, 1969. p. 36.

(٢) هربرت ماركيوز. العقل والثورة. ترجمة فؤاد زكريا. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة. ١٩٧٠ ص ٣٢٧ — ٣٢٩.

الوضعية فكرة عجز الإنسان عن تغيير عالمه الإجتماعى وذلك بسلب ملكة النقد عنده وجعله أسير الواقع الذى يعيشه وإصراره على حرمانه من إعمال عقله وتصور واقع آخر مستقبلى يقيس عليه واقعه الحاضر .

ويرى هربرت ماركيوز الفيلسوف الأمريكى أن وضعية كونت تشترك مع فلسفات الثورة المضادة لعصر التنوير فى عنصر أساسى هو رفض القول بأن الإنسان قادر على تغيير نظمه الاجتماعية وإعادة تشكيلها وفقاً لإرادته العاقلة . ومن أبرز فلاسفة الثورة المضادة بونال Bonaled ودمستر De Maistre . فقد أراد بونال أن يثبت أن الإنسان لا يستطيع أن يضفى تركيباً معينا على المجتمع الدينى أو السياسى ، تماماً كما لا يستطيع أن يعطى الجسم وزنا أو المادة امتدادا ورأى أن تدخل الإنسان لا يؤدى إلا إلى منع المجتمع من بلوغ تركيبه الطبيعى . كما أراد دمستر أن يبين أن العقل الإنسانى لا يزيد سعادة الدول أو الأفراد شيئاً وأن هذا العقل لا جدوى منه على الإطلاق ومن الواجب قمع أى روح ثورية بنشر تعاليم أخرى تقول أن للمجتمع نظاما طبيعياً ثابتا ينبغى أن تخضع له إرادة الإنسان[1] .

لقد روج كونت فى فلسفة الوضعية لفكرة القوانين الثابتة التى تحكم الظاهرات الاجتماعية تماماً مثلما تحكم الظاهرات الطبيعيةوالبيولوجية .

ونحن نؤكد على حقيقة أن وظيفة الفلسفة بوجه عام هى الكشف عن القوانين العامة والثابته نسبياً التى تحكم الكون وأن وظيفة العلم الإجتماعى هى الكشف عن القوانين العامة والثابتة نسبياً التى تحكم المجتمع . ولكننا فى نفس الوقت نرى أن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٠ .

كونت قد خلط عن قصد بين ثبات القوانين والظاهرات التي تحكمها القوانين وقدم مفهوماً غير علمي على الإطلاق للقانون . فالقانون العلمي في أساسه قاعدة للتغير وليس للثبات في الظاهرة التي يتناولها . ولولا تغير الظاهرات لما كانت هناك بنا حاجة لأى قوانين . فقانون تمدد المعادن مثلا قانون ثابت ، ولكن ليس معنى ذلك أن حالة المعادن ثابتة ، وهذا القانون ليس سوى قاعدة لكيفية تغير حالة المعادن بتغير الظروف التي تؤثر عليها (مثل درجة الحرارة) . والحقيقة أن هذا القانون هو وسيلتنا في التحكم والسيطرة على الظاهرة التي يحكمها وتغييرها وفقا لإرادة الإنسان . أما كونت فقد استغل إعجاب الناس بالقوانين الطبيعية وجهلهم بها في نفس الوقت في إيهامهم بأن هناك قوانين ثابتة للمجتمع مما يعنى أن المجتمع ثابت وبالتالي ليس علينا إلا الإستسلام للواقع الذى نعيشه مهما كنا غير راضين عنه ، وبدلا من أن نغير منه علينا أن نغير من أنفسنا لتتلاءم معه ، وهذا التغير يمكن أن يحدث عن طريق التربية الأخلاقية . وبذلك خرج كونت كلية على الروح العلمية التي ادعى أنه يدعو إليها ، بل إن الأمر وصل به في أواخر أيامه إلى اللاعقلانية الكاملة الميتافيزيقية وإلى أن تتحول فلسفة كونت الوضعية إلى مذهب دينى يشتمل على عبادة واسعة النطاق لأسماء ورموز وعلامات .

وقد ذكر كونت في مؤلفيه الأساسيين ، دروس في الفلسفة الوضعية (١٨٣٠ - ١٨٤٢) ومذهب في السياسة الوضعية (١٨٥١ - ١٨٥٤) صراحة وفي أكثر من موضع أن فلسفته الوضعية هي السلاح الوحيد القادر على محاربة القوة الفوضوية وهي وحدها التي يمكن أن تنجح في إمتصاص النظرية الثورية الشائعة . «والحق أنه ندر أن نجد في الماضي فلسفة تطالب بمثل هذا الإلحاح وبمثل هذه الصراحة بأن تستخدم في حفظ السلطة القائمة ، وحماية المصالح الموجودة من كل هجوم ثورى»(١)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣١

إن فلسفة كونت الوضعية التى أقام عليها علم اجتماعه كانت شديدة الوضوح فى دفاعها عن الوضع الاجتماعى القائم وفى تبريرها لمشروعية سيطرة القوى الإجتماعية الرأسمالية على المجتمع ، وربما كان هذا سبباً من أهم الأسباب التى أدت بالعلماء الاجتماعيين فيما بعد إلى التخلى عنها وتقديم صور بديلة لها تعتمد على نفس مسلماتها ولكن تخفى الإرتباطات القويه بين النواحى الإيديولوجيه والنواحى المنهجية منها وهذا ما نشاهده فيما يعرف بالإتجاه الأمبريقى الحديث فى علم الإجتماع - ذلك الاتجاه الذى يزعم أصحابه أنهم محايدون تماماً من الناحية الإيديولوجيه ولكنهم فى نفس الوقت يتبعون مبادىء كونت فى دراستهم للمجتمع وأهمها التأكيد على الأهميه القصوى لملاحظة الوقائع وتسجيلها والابتعاد عن التأمل والتفكير فيها. «وقد أراد كونت من إحلاله الملاحظة محل التأمل تأكيد النظام بدلا من الخروج عليه وهو بذلك قد نقل مصدر اليقين من الذات المفكرة إلى الذات المدركة حسياً وفى هذا المجال تمدنا الملاحظة العلمية باليقين ، وتتراجع الوظائف التلقائية للفكر ، على حين أن وظائفه السلبية المتلقية تصبح لها مكانة الصدارة .(١)

وفلسفة كونت الوضعيه بإلغائها للذات المفكرة ودعوتها المنهجية إلى أن يكون موضوع الفلسفة والعلم الاجتماعى هو الواقع القائم بحيث يصبح مجال الملاحظة الحسية تتنافى فى رأينا تماماً مع كل دروس التاريخ ومبادىء العلم . فالحضارة الإنسانية بأسرها ما كانت لتتقدم وتتطور لولا إعتماد الإنسان على ذاته المفكرة القادرة على تصور مستقبل أو وضع آت لا وجود له بعد والسعى إلى تغيير الواقع القائم ليتطابق مع الصورة المستقبلية . لقد تصور الإنسان مثلا أنه قادر على تحدى الجاذبية الأرضية والتحليق فى الفضاء كالطيور فى وقت لم يكن يمكنه فيه ذلك وظل هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦

الحلم يراوده وظل يبحث ويدرس ويجرب حتى استطاع أن يحيله إلى واقع فعلى ، وتصور الإنسان أنه قادر على بلوغ القمر حتى حول هذا الحلم إلى واقع ، ولو أن الإنسان قد ظل أسير ملاحظاته الحسية للواقع الطبيعى ولم يتخيل واقعاً آخر مغايراً له ، أى لو لم يكن لديه مقياس آخر يقيس عليه واقعه لما حقق أى تقدم علمى أو حضارى بل لا نقرض الجنس البشرى مثلما إنقرضت حيوانات أخرى كثيرة لا تملك القدرة على التصور والتخيل . وما حدث بالنسبة للواقع الطبيعى حدث أيضاً بالنسبة للواقع الإجتماعى . إن النظام الإجتماعى الذى يدافع كونت عنه ويطالب العلم بالإقتصار على دراسته وملاحظته ويحرم على المفكرين تصور نظام آخر غيره هو نفسه قد جاء نتيجة تصوره قبل أن يكون له وجود ونتيجة كفاح مرير وتضحيات بالغة من أجل تحقيقه ، فلماذا إذا تتوقف قدرة العلم والإنسان على تصور المستقبل وعلى تغيير الواقع عنده ؟ لقد أصبح من الثابت أن أوجست كونت وغيره من الوضعيين قد أرادوا للإنسان ذلك لأنهم (كانوا يريدون أن تظل السيادة فى المجتمع للرأسمالية الصناعية ولذلك فإنهم وضعوا فلسفتهم أو علمهم فى خدمتها ورأوا أن الوظيفة الأساسية للمعرفة العلمية هى المساعدة على تطوير الرأسمالية الصناعية والحفاظ على نظام الملكية الخاصة .) (1)

ثانياً علم اجتماع كونت وسكونية المجتمع :

حدد أوجست كونت موضوع علم الاجتماع « أو الفيزياء الاجتماعية » كما كان يسميه من قبل بأنه دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس الأسلوب الذى تدرس به الظواهر الفلكية والطبيعية والبيولوجية على إعتبار أن هذه الظواهر تخضع كلها لقوانين طبيعية ثابتة . ولكن الظواهر الاجتماعية عند كونت لم تكن تعدو الظواهر

(1) Herman and Julia Schwendinger. The Sociologists of the Chair. Basic Books. New-York. 1974.

الفكرية أو العقلية فى المجتمع . وعرف علم الإجتماع فى مؤلفه « الفلسفة الوضعية » بأنه دراسة ظواهر العقل الإنسانى والأفعال الإنسانية الناتجة عنه . وبذلك أخرج كونت الواقع المادى الاجتماعى من نطاق دراسة علم الاجتماع . والأفكار بالنسبة لكونت هى التى تحكم العالم وتجعله منظماً أو هى التى تحيله إلى حالة من الفوضى والحالة الفكرية هى التى توجه وتحدد كل ما عداها من صور الحياة الإجتماعية . ورأى كونت أن جوهر العملية التاريخية هو تطور الفكر . وبناء على ذلك قدم ما أسماه بقانون المراحل الثلاث The law of the three Stages (١) ومؤدى هذا القانون أن العقل الإنسانى يمر بمراحل ثلاث : المراحل الأولى وهى ما أسماها بالمرحلة اللاهوتية Theological وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق نسبتها إلى قوى أو كائنات غير منظورة لها خصائص تشبه خصائص الانسان . والمرحلة الثانية هى ما أسماها بالمرحلة الميتافيزيقية Metaphysical وهى تلك التى يفسر فيها العقل الظاهرات عن طريق قوى مجردة مثل الطبيعة . والمرحلة الثالثة هى ما أسماها بالمرحلة الوضعية positive وهى التى يقنع فيها الانسان بملاحظة الظاهرات وإستخلاص الروابط التى توجد بين بعضها سواء فى وقت معين أو مع مرور الوقت .

« وقد أقام كونت مجموعة من الارتباطات — خلال مناقشته المطولة لنمو طليعة الإنسانية ، وهى أكثر المجتمعات تقدماً — بين المراحل العقلية الأساسية ومراحل تقدم الحياة المادية للإنسان ونموها ، وأشكال الوحدات الاجتماعية ، وأنماط

---

(1) Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought. Penguin Books: England. 1965. p. 65—66.

النظام الاجتماعى ، والمشاعر الغالبة أو السائدة ، ويمكن وضع هذه الارتباطات على النحو التالى[١] :

	المرحلة العقلية	المرحلة المادية	نموذج الوحدات الاجتماعية	نموذج النظام	نموذج المشاعر
١	اللاهوتية	العسكرية	الأسرة	منزلى	المحبة والتعلق
٢	الميتافيزيقية	التشريعية	الدولة	جمعى	الاحترام والتوقير
٣	الوضعية	الصناعية	الإنسانية	عالمى	الإحسان والخير

وهكذا نرى أن افتراض كونت عن طبيعة الواقع الاجتماعى افتراض مثالى idealist بمعنى أنه يرى أن الفكر أو الحالة العقلية هى التى تحدد ما عداها من كافة صور الحياة الاجتماعية ، فالفكر اللاهوتى يجعل النظام العسكرى هو السائد ويجعل من الأسرة نموذجاً للوحدة الاجتماعية ويحدد نوعية المشاعر . وإذا تأملنا الجدول السابق لوجدنا أنه يخلو تماماً من أى إشارة إلى طبيعة الحياة الاجتماعية الإنتاجية كما وجدنا خلطاً كبيراً فى المفهومات . فالمرحلة الصناعية التى صاحبت الوضعية سبقتها مرحلة تشريعية ومرحلة عسكرية ، وكأن كونت يجعل من المرحلة الصناعية أيضاً مرحلة سياسية بينما لا يبين إرتباط المرحلة التشريعية أو العسكرية بأى نوع من أنواع النشاط الإنتاجى .

والمرحلة الوضعية عند كونت هى نهاية المطاف فى تاريخ البشرية وهى تتصف بكل ما هو خير وجميل ففيها العلم والصناعة والإنسانية والعالمية والإحسان والخير ولا يخفى هنا أيضاً تقدير كونت للماضى الذى كان يتصف بالاحترام والتوقير والمحبة والتعلق .

---

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سبق ذكره ص ٤٢٠ .

لقد تحول تاريخ البشرية جمعاء عند كونت إلى تاريخ أفكار ومشاعر ثم أصيب هذا التاريخ بالجمود والتوقف عند القرن التاسع عشر ولم يعد أمام الإنسانية هدف تصبو إليه إلا المحافظة على ما وصلت إليه والتحسين منه ، فليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وقد سلم كونت بأن مجتمعات البشرية لم تسر فى نفس هذا الخط من التقدم بنفس الدرجة ولكن حدث تفاوت فيما بينها فى بلوغ المرحلة الوضعية أو الصناعية والدول الأوربية هى التى وصلت إلى هذه المرحلة ، وفسر ذلك تفسيراً عنصريا إذ أنه قد افترض أن الأجناس البشرية تتفاوت فيما بينها من الناحية العقلية وأن الجنس الأبيض هو أرقاها ولهذا فقد سبق غيره من الأجناس فى الوصول إلى المرحلة الوضعيـة .

« ولقد كان تفسير كونت التاريخ على أساس مضاد للمادية عاملا على تيسير مهمته . فهو قد احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة بأن التقدم هو قبل كل شىء تقدم عقلى ، وهو النمو المستمر للمعرفة الوضعية . غير أنه أفرغ فكرة عصر التنوير هذه من مضمونها المادى بقدر ما استطاع ، وبذلك التزم بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وهو أن يستعيض بحركة عقلية ضخمة عن القلاقل السياسية العقيمة ... ففكرة التقدم عند كونت تستبعد الثورة ، والتغيير الكلى لنسق الظروف الموجودة . ولا يعود النمو التاريخى إلا تطوراً متوافقاً للنظام الاجتماعى فى ظل قوانين طبيعية ثابتة »[1] .

وقد أطلق كونت على دراسته لتتابع هذه المراحل التاريخية تسمية الديناميكا

---

(١) هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ .

الاجتماعية أو علم الاجتماع الديناميكى فى مقابل علم الاجتماع الاستاتيكى أو السكونى الذى يدرس قوانين النظام فى المجتمع وشروط وجود المجتمع . وهذين العلمين يشكلان سويا علم الاجتماع عند كونت ولا انفصال بينهما . وهكذا يبدو أن كونت يهدف إلى دراسة كل قوانين الحركة والسكون فى المجتمع . ولكن الحقيقة أن الدراسة الديناميكية عند كونت هى الأخرى دراسة للثبات والسكون ، وهنا تتضح مسلمه أخرى أو افتراض آخر عن تصور كونت لطبيعه الواقع الاجتماعى هى مسلمه الثبات فى مقابل التغير .

وتتكشف حقيقه أن الدراسه الديناميكيه للمجتمع عند كونت إنما هى دراسة للثبات والسكون من حديثه عن العلاقه بين الديناميكا والاستاتيكا الاجتماعيه . وفى ذلك يقول هربرت ماركيوز :

« إن علم الاجتماع عند كونت هو فى أساسه « دراسة سكونية للمجتمع » وذلك نتيجة لسيادة تصور النظام ، ولكنه أيضاً دراسة حركية أو ديناميكية للمجتمع بفضل وجود تصور التقدم . وقد شرح كونت العلاقة بين التصورين الأساسيين مرات كثيرة . فالنظام هو الشرط الأساسى للتقدم وكل تقدم يتجه آخر الأمر إلى دعم النظام ... إن التقدم فى حد ذاته نظام ، يعنى أنه ليس ثورة بل تطور[١] .

ومجال النظام الإجتماعى هو الاستاتيكا الاجتماعية أو السكون الاجتماعى Social Statics . وقد صور كونت المجتمع على أنه كل عضوى يمكن تحليله إلى ثلاث عناصر : الفرد والأسرة والمجتمع . وقد تأثر كونت عند دراسته للفرد بعلم الفراسة Phrenology (ذلك العلم الزائف الذى يقوم على التسليم بأن خصائص الناس يمكن التعرف عليها من ملامحهم) وتبنى مفهوم عالم الفراسة جال Gall عن

---

(١) العقل والثوره — مرجع سابق ص ٢٣٦ .

أن السلوك الإجتماعى محتوم بيولوجيا وبالتالى فهو وراثى ، وكل جنس من الأجناس البشرية يتصرف طبقا لتركيبه البيولوجى (لا حظ هنا افتراض كونت الأساسى عن طبيعة الإنسان من حيث أنها ثابتة لا تتغير لأنها محتومة بيولوجيا ولاحظ أيضاً ما بهذا الإفتراض من عنصرية) . وبناء على ذلك رأى كونت أن جوهر المجتمع هو الطبيعة البشرية المحتومة بيولوجيا (أى الثابتة) .

وافترض كونت أن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية وأن كل الأشكال الاجتماعية الأخرى كالقبائل أو الأمم ، تنشأ عنها . ورأى أن الجنس البشرى بأسره إنما يمكن النظر إليه على أنه تطور تدريجى لأسرة واحدة . ولا يجب أن تفوتنا هنا الطبيعة المحافظة لهذا الافتراض ، فالأسرة عند كونت وعند غيره من المحافظين هى أساساً مؤسسة للضبط الاجتماعى نشأت أساساً لإشباع غريزة بيولوجية هى الجنس بشكل منظم وحسب قواعد معينة . وارتبطت نظرة كونت المحافظة للطبيعة الإنسانية بوجه عام بنظرته المحافظة أيضاً إلى المرأة ، « فعبر عن اعتقاده بأن الأسرة فى عصره قد أصيبت بالتدهور وتمنى أن يشهد المستقبل أسرا تقوم على الدونية الطبيعية للمرأة ، فبهذه الكيفية فقط يمكن الحفاظ على المرأة فى حالة من الطفولة الأبدية »(١) .

أما وحدة التحليل الحقيقية فى علم اجتماع كونت فهى المجتمع والمجتمع أعلى من الفرد ، والمجتمع يضم كل الأجناس البشرية وبخاصة الجنس الأبيض . ويعتمد بناء المجتمع وتعقده وتكاملة على تقسيم العمل (وهو الخاصية المميزة للمجتمع الرأسمالى

---

(١) الفلسفة الوضعية نقلا عن :

Don Martindale. Nature and Tyres of Sociological Theory. Routledge & Kegan Paul, London, 1961. P. 63.

موضوع اهتمام كونت) . ولكن نظرا لأن تقسيم العمل هذا عندما يتزايد يصبح نقطة ضعف فى المجتمع بدلا من أن يكون مصدرا لقوته فلابد من الحفاظ على فكرة الكل الواحد وعلى الشعور بالترابط العام بين أجزائه . وأهم الخصائص التى يمكن أن تحقق ذلك فى المجتمع الخاصية الأساسية به المتعلقة بالخضوع للحكومة . فلابد أن يخضع الفرد لمن هم أعلى منه . وهذا الخضوع هو أساس الميل الطبيعى نحو الحكومة التى وجدت بفعل صلاحية بعض الناس بحكم تكوينهم الطبيعى للحكم والسيطرة . وقد أعجب كونت أشد الإعجاب بنظام الطبقات المغلقة فى الهند لأنها كانت تمثل بالنسبة له النموذج الأمثل للنظام[1] .

هنا تتضح مسلمة أساسية أخرى عند كونت هى مسلمة عجز الإنسان عن تغيير عالمه الاجتماعى وضرورة استسلامه لهذا الواقع . فطالما أن الطبيعة البيولوجية هى التى تحدد خصائص الفرد ، وطالما أن الأسرة ترتبط بهذه الطبيعة البيولوجية ، وبما أن المجتمع الإنسانى كله تطور عن الأسرة إذا فالمجتمع شىء ثابت جامد يخضع لقوانين بيولوجية وهو أقوى من الفرد وليس على الفرد إلا الاستسلام له ، أى الاستسلام الكامل للسلطة لأنها المهيأة بيولوجيا للحكم . ولا يجب أن يفوتنا هنا خطورة ما رتبه كونت على ذلك من استنتاجات عن الشعوب . فالجنس الأبيض مهيأ بيولوجيا أيضاً للسيادة وللحكم وعلى بقية الأجناس أن تخضع له . إن تسليمنا بافتراضات كونت الأساسية عن الطبيعة الإنسانية وعن طبيعة الحياة الاجتماعية دون مناقشة وتحليل لابد أن يقودنا إلى التسليم باستنتاجاته عن طبيعة الشعوب وبالتـــالى إلى الاستسلام للاستعمار بأشكاله المختلفة والتبعية له . والواقع أن معظم النظريات الاجتماعية المعاصرة فى الغرب مستمدة من أفكار كونت وفلسفته الوضعية ومن المؤسف أن

---

(1) Ibid. P. 64.

كثيراً من علماء الاجتماع فى بلدان العالم الثالث بما فى ذلك العربى لا يدققون بما فيه الكفاية فى مضمونها الإيديولوجى وافتراضاتها الأساسية مما يجعلهم يروجون لها فيقعون ، ربما عن غير قصد ، فى حبائلها الإيديولوجية ويساعدون على تدعيم وتثبيت التخلف والتبعية فى بلادنا .

والديناميكا الاجتماعية عند كونت كما سبق أن ذكرنا تتحول فى نهاية الأمر إلى سكون أو ثبات . ومثلما أفرغ كونت الحياة الاجتماعية من مضمونها المادى واختزلها إلى مجرد حالات فكرية تنبع من استعدادات بيولوجية أفرغ مفهوم التغير والتقدم من مضمونه الثورى الذى اكتسبه فى فلسفة التنوير النقدية واختزله إلى مجرد عملية نمو حتمى آلى لا دخل للإنسان فيه . فالبشرية قد انتقلت من المرحلة اللاهوتية إلى الميتافيزيقية حتى الوضعية (الرأسمالية الصناعية العلمية) وهذه الأخيرة ستنمو نمواً طبيعياً إذا قمنا بحمايتها من الثورات ومن الفكر التخريبى النقدى وإذا عملنا على استمرار النظام وعلى نشر مبادىء الاستسلام والطاعة بين الناس . وفى ذلك يقول كونت :

« ما أجمل أن نطيع عندما يمكننا الاستمتاع . . . بالسعادة التى يجلبها إعفاء القادة الحكماء الجديرين لنا من المسئولية الملحة المتعلقة بالبحث عن اتجاه عام لسلوكنا »(١) .

ويعلق ماركيوز على ذلك بقوله إن السعادة بهذا المعنى أى بمعنى الاحتماء بذراع قوية هى من أخص مميزات المجتمعات الفاشية فى وقتنا الحالى .

---

(١) دروس فى الفلسفة الوضعية نقلا عن هربرت ماركيوز . مرجع سبق ذكره . ص ٢٣٦

إن أهمية أوجست كونت لنا فى دراستنا للنظرية الاجتماعية لا ترجع إلى الناحية التاريخية من إهتمامنا فى هذه الدراسة بقدر ما ترجع إلى حقيقة أن أفكاره وافتراضاته الأساسية ما زالت تمثل المنبع الرئيسى لمعظم تيارات علم الاجتماع المعاصر ، على الرغم من أن كثيرا من علماء الاجتماع المعاصرين يقللون من أهميته الآن ومن أن منهم من لا يشير إليه بل ويعتبر أن دوركايم هو المؤسس الحقيقى لعلم الإجتماع وليس كونت ويرجع ذلك فى رأينا إلى أن الارتباط بين مبادىء كونت المنهجية والنظرية من جهة وبين مبادئه الإيديولوجية كان سافرا ومفضوحاً بدرجة كبيرة جعلت المحافظين المحدثين ينفرون منه ويستبدلون نظريته بأخرى يختفى فيها هذا الارتباط ، كما أن طبيعة تطور المجتمع الغربى منذ أيام كونت قد تطلبت هذا التعديل فى التعبير عن افتراضات كونت الأساسية بحيث توضع فى صيغة يمكن أن تكون أكثر تقبلا من الناس تماماً مثلما اضطر الاستعمار إلى إجراء تعديلات فى صورته التقليدية (الاستعمار العسكرى) واستبدل بهـــا صورا أخرى أكثر خفاء وأكثر تقبلا (السيطرة الاقتصادية والسياسية والفكرية).

الفصل الخامس

إميل دوركايم والتضامن الاجتماعى

الموقف الإيديولوجى لإميل دوركايم :

فى بداية حديثنا عن إميل دوركايم (١٨٥٨ — ١٩١٧) يجب أن نذكر أنه احتل مكانة بارزة فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر وحتى وفاته فى عام ١٩١٧ سواء فى الأوساط الأكاديمية أو الإدارية أو السياسية كما يجب أن نذكر أيضاً أن نظرياته وآرائه عن المجتمع بصفة عامة وعن التربية والأخلاق والسياسة بصفة خاصة قد لقيت رواجاً كبيرا فى الأوساط البورجوازية والحكومية الفرنسية فى ذلك الوقت ، فقد تولى إميل دوركايم رئاسة هيئة تحرير الحوليات السوسيولوجية L'anné Sciologique (أهم المجلات الاجتماعية فى فرنسا) منذ عام ١٨٩٨ حتى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، كما أنه قد شغل مركزا هاماً جدا فى المؤسسات التربوية التى تسيطر عليها الدولة فى فرنسا وأدى به مركزه هذا إلى أن يتحكم إلى حد كبير فى إختيار العلماء والأساتذة الذين يعينون فى معاهد التعليم العالى(١) .

ويجب أن نذكر أيضاً أنه على الرغم من أن إميل دوركايم كان على معرفة ودراية واسعة بالكتابات الاشتراكية التى ظهرت فى فرنسا بل وفى أوربا بصفة عامه منذ الثورة الصناعيه إلا أنه قد اتخذ موقفاً محددا وواضحاً من الأفكار الاشتراكية حيث هاجمها ، وتعتبر أعماله ومؤلفاته جميعاً محاولة لتقديم بديل للاشتراكيه بل

---

(1) Herman and Julia Scwendinger. The Sociologists of the Chair. Baic Books. New York. 1974. p. 255.

إن علم الاجتماع الذى قدمه دوركايم كما يقـــول ريموند آرون ليس سوى بديلا للاشتراكيه[1].

ويمكننا أن نستدل على موقف إميل دوركايم من كل من الفكر الرأسمالى البرجوازى والفكر الاشتراكى من مجموعه من المؤلفات التى نشرت بعد وفاته وكان قد ألقاها على شكل مجموعة من المحاضرات تدور كلها حول فكرة الاشتراكية ومهاجمة المبادىء التى تنهض عليها . ومن هذه المقالات مقالة بعنوان le Socialism أو الاشتراكية ومقالة أخرى نشرت لأول مرة فى عام ١٩٥٠ بعنوان Leçons de Sociologie أى دروس فى علم الاجتماع . ولقد رفض دوركايم رفضاً قاطعاً فكرة إعادة توزيع الثروة أو تحقيق أى نوع من التكافؤ فى الملكية أو إلغاء الملكية الخاصه ، ورأى أن سبب المشكلات فى المجتمع الحديث أى المجتمع الرأسمالى الذى كان يعيش فيه ليس سبباً اقتصادياً بقدر ما هو سبب أخلاقى ، وبالتالى فإن الصراع بين العمال وبين أصحاب الأعمال ليس سوى دليلا على تفكك المجتمع أو على حدوث حالة من اللامعياريه Anomie فى ذلك المجتمع ، والذى يجب عمله هو مجرد تصحيح هذا الوضع ولا يتأتى ذلك إطلاقاً عن طريق إعادة توزيع الثروة أو تعديل النظام الاقتصادى ، ولكن ذلك يمكن أن يحدث من خلال تحقيق ما أسماه بالإجماع أو الإتفاق الجمعى consensus ، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق التربية .

وعارض دوركايم التفسير الماركسى للتاريخ على أساس أنه يمثل سلسلة أو حلقه من الصراعات الطبقية بين من يملكون وبين من لا يملكون . ويمكننا أن نلاحظ هنا وجه شبه كبير بين آراء دوركايم وآراء أوجست كونت . وفى مقابل دعوة أصحاب الفكر الاشتراكى إلى العدالة الاجتماعيه وإلى تضامن الطبقات المغلوبه على

(1) Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought. Penguin Books. England. 1965. p. 90

أمرها والمقهورة وثورتها على الظلم الواقع عليها من الطبقات المستغلة ، دعى إميل دور كايم إلى التضامن الاجتماعى أو التماسك الاجتماعى ، فكان فيلسوف حركة سميت « بالتضامن الاجتماعى Solidarism » فى فرنسا كانت تدعو إلى أن يتضامن كل المواطنين فى الجمهوريه الفرنسيه من أجل تحقيق الخير للجميع . ورأى إميل دوركايم أن النظام الاجتماعى يحتاج إلى شىء ضرورى لابد أن يتوافر لدى المواطنين وذلك الشىء هو الرضا بما قسم لهم فيجب على كل الناس أن يقنعوا بما لديهم ، ولكى يقنعوا بذلك لابد من أن تقدم لهم أساليب التربيه المختلفه الأدلة على أنه ليس لهم الحق فى أن يطلبوا أكثر مما لديهم ، ولذلك فإنه من الضرورى أن توجد سلطة قويه فى المجتمع يعترف بها الناس تسن القوانين التى تلزمهم بأن يقنعوا بحالتهم الراهنه ولا يجب إطلاقاً أن يترك الأفراد لكى يتطلعوا إلى أشياء ليست من حقهم(١) .

ولكن الدولة فى رأى دور كايم لم تعد قادرة على القيام بمثل هذه الوظيفه لأنها أصبحت بعيدة جدا عن الأفراد كما أن الأسرة أيضاً أصبحت محددة جدا فى نطاقها وفقدت الكثير من وظائفها وخاصة الوظائف الاقتصاديه ولم تعد هى الأخرى قادرة على هذه التربيه الأخلاقية للأفراد . وعلى ذلك فإنه لا الدولة ولا الأسرة بل حتى ولا الكنيسة أو المؤسسات الدينيـة أصبحت قادرة على أن تسيطر على الأفراد وتحقق التماسك أو التضامن الاجتماعى ، ولكن التى تستطيع أن تحقق ذلك هى المجموعات المهنيه أو بعبارة أخرى المؤسسات أو الشركات الكبيرة التى يجب أن تصبح وسيطاً بين الأفراد من جهة وبين الدولة من جهه أخرى ، والتى يجب أن تزود بالسلطات الاجتماعيه والأخلاقيه اللازمة لإعادة النظام الذى بدونه يتفكك المجتمع ويصبح الناس جميعاً ضحايا لرغباتهم الأنانيه غير المحدودة ، وهنا يأتى دور علم الاجتماع لكى

---

(1) Ibid. pp. 90—91.

يقدم حلا علمياً للمشكلة الاجتماعية فذلك أن علم الاجتماع سيصبح هنا الموجه والمرشد للسياسة الاجتماعية والقادر على تحقيق الاستقرار الاجتماعى والتماسك الاجتماعى المطلوبين لاستمرار المجتمع .

هذه هى أيديولوجية إميل دوركايم كما عبر عنها فى أفكاره عن الإشتراكية وعن التعليم ولكن هذه الأفكار الأساسية والرئيسية هى ذاتها التى صاغ حولها كل نظريته الاجتماعية . بعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن إميل دوركايم شأنه شأن أوجست كونت وغيره من علماء الاجتماع الوضعيين قد بدأ فى الواقع بالتسليم بمشروعية النظام الاجتماعى الاقتصادى القائم فى مجتمعه ورأى أنه هو الأنسب والأصلح للبشرية جمعاء ، ولكى تكسب هذه الفكرة قوة فى الاقناع فإنه قد صاغ حولها نظريات بالغة التعقيد استخدم فيها كثيراً من المفهومات وأضفى عليها صفة العلمية ، ليس هذا فحسب بل إنه أقام حولها علماً بأسره كما سيتضح لنا من تحليلنا فيما بعـد .

ثانياً : علم اجتماع دوركايم :

لقد ألف إميل دوركايم أربع مؤلفات رئيسية أولها كتابه « تقسيم العمل الاجتماعى » الذى نشر عام ١٨٩٣ وثانيها «الانتحار» عام١٩١٧ ورابعها « الصور الأولية للحياة الدينية » الذى نشر عام ١٩١٢ . وفى هذه الكتب الأربعة يثبت إميل دوركايم وجهة نظره البسيطة فى أن أساس الحياة الاجتماعية ليس فى الاقتصاد كما يقول ماركس ولكن فى القيم الروحية وأن هدف المجتمع الذى يجب أن يتحقق هو الوصول إلى حالة الإجماع Consensus وأن كل مظاهر الاضطراب أو التفكك أو المشكلات الاجتماعية مرجعها ليس للعوامل أو الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية ولـكن إنعدام الإجماع ، أى أن حل كل أزمات النظام الرأسمالى إنما يتمثل فى تحقيق الإجماع على القيم بين جميع المواطنين .

وسوف نرى كيف تناول إميل دوركايم فى كتبه الأربعة هذا الموضوع الرئيسى بطرق مختلفة . ولكنها جميعها تصب فى نفس المصب فى نهاية الأمر .

لقد سلم إميل دوركايم مثل كونت بالوضعية كأساس للمعرفة السوسيولوجية ورأى أنه لابد أن يصبح علم الاجتماع علماً طبيعياً ورأى أنه على الرغم من إسهام علم الاجتماع فى الفكر الفلسفى إلا أنه فى الوقت ذاته لا يمكن أن يعتمد على الفلسفة أو يستمد منهجه منها . فالوضعية هى أساس العلم وهى الفلسفة التى وضعت حداً للتأملات العقيمة (من وجهة نظره) ويجب أن يهتم علم الاجتماع بالوقائع القابلة للملاحظات وأن يستخلص قضاياه العامة منها ، وقد كانت هذه الأفكار هى الأساس الذى ارتكزت عليه أعماله الأولى والتى عبر عنها فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع [1] » .

الوقائع الاجتماعية :

وقد كانت وحدة التحليل الاجتماعى عند دوركايم هى الوقائع الاجتماعية والواقعة الاجتماعية هى كما يقول :

كل وسيلة أو كل أسلوب للتصرف Acting تمارس فرضاً أو إجباراً خارجياً على الفرد أو كل وسيلة للتصرف تتصف بالعمومية فى مجتمع ما ولكنها توجد فى نفس الوقت مستقلة بذاتها » .

ورأى دوركايم أن الوقائع الاجتماعية غير قابلة للملاحظة المباشرة وبالتالى لابد من دراستها بشكل غير مباشر عن طريق ملاحظة آثارها ، ومن هنا فإن الوقائع الاجتماعية تتصف بصفتين أساسيتين :

---

(1) Emile Durkheim. Rules of sociolcgical Theory. Glencoe, Ill. Press. 1938.

أنها خارجة عن الفرد وأنها ملزمة له أو ذات تأثير محدد لسلوكه .

وقد شرح دوركايم الصفة الأولى للوقائع الإجتماعية أى أنها خارجة عن الفرد بقوله :

« حين أقوم بالتزاماتى كأخ أو أب أو حين أوفى تبعاقداتى فإننى أقوم بواجبات لم أحددها أنا بنفسى أو لم تحددها أفعالى ولكنها محددة لى سلفاً فى القانون وفى العرف وفى العادات الجمعية » .

وفضلا عن ذلك :

« فإنها حتى إذا ما اتفقت مع عواطفى وشعرت بها ذاتياً فإن واقعها يظل موضوعياً ، ذلك أننى لم أخلقها ولكنى ورثتها من خلال عملية التربية[1] .

وترجع الطبيعة الإلزامية للوقائع الإجتماعية إلى حقيقة أنها تفرض على الفرد بعض النظر عن رغباته .

والوقائع الإجتماعية فى نظر دوركايم هى إنعكاسات أو تعبيرات عن أخلاقيات الجماعة ، والأخلاقيات بالنسبة لدوركايم تشمل كل المدى المعيارى إبتداء من القواعد البسيطة للسلوك الاجتماعى (الإتيكيت) حتى أكثر العادات الإجتماعية صرامةوشدة.

التضامن الآلى والتضامن العضـــوى :

لقد كان إهتمام دوركايم فى كل مؤلفاته منصباً على دراسة العلاقة بين الأخلاقيات من حيث مصادرها وأشكالها وبين طبيعة الروابط الاجتماعية . ورأى دوركايم فى كتابة « تقسيم العمل الاجتماعى »[2] أن التنظيم الاجتماعى قـــد تطور من حالة

(1) Emil Durkheim. The Rules of Sociolnical Method. (New-York, Free Press, 1964) P. 2.

(2) Durkheim. The Division of labor in Society. Glencoe, Free Press. 1933.

التماسك (أو التضامن) الآلى إلى حالة التماسك العضوى ولا يمكن ملاحظة أى من النوعين من التماسك ملاحظة مباشرة ولكن يمكن التعرف عليهما عن طريق مؤشرات معينة تتمثل فى نوع الجزاءات التى توقع على مخالفى القواعد الأخلاقية .

والجزاءات فى نظر دوركايم تنبعث من العقل أو الضمير الجمعى group mind أو من المعتقدات والمشاعر المشتركة بين المواطنيين فى نفس المجتمع ، فأى فعل يعتبر إجرامياً حين يتعارض مع مبادىء الضمير الجمعى .

والتماسك الآلى mechanical solidarity يوجد فى المجتمع الذى يتصف بإحساس قوى وعام بالضمير الجمعى فأى فعل ضد شخص ما يعتبر فعلا مضاداً لكل الناس فى المجتمع وفى مثل هذا المجتمع البدائى توقع الجزاءات بطريقة آلية أى دون تفكير ويسود مثل هذا المجتمع ما أسماه دوركايم « بالقانون القمعى » . وفى هذا المجتمع البدائى نجد أن الناس متشابهون فى أفكارهم وفى وجهات نظرهم ونظراً لما لديهم من قيم وخبرات مشتركة فإنهم يصبحون جميعاً كرجل واحد ولهم عقل واحد وبذلك يتحقق التماسك الإجتماعى بينهم ولكن هذا التماسك تماسك آلى أو طبيعى[1] .

أما فى المجتمعات الحديثة (أى المجتمع الصناعى الرأسمالى) فإن الأمر يختلف عن ذلك تماماً ، فأفراد المجتمع يختلفون فى كثير من النواحى مثل الخبرات التى يمرون بها وتنشئتهم الإجتماعية وتدريبهم أو بعبارة أخرى يختلفون نظراً لتقسيم العمل فيما بينهم ، ويسود فى هذا المجتمع ما يسمى بالتماسك العضوى Organic solidarity وهذا التماسك العضوى يصاحب التقسيم المعقد فى العمل الذى تتصف به المجتمعات

---

(١) يعنى دوركايم بالتضامن أو التماسك الاجتماعى مجموع المعتقدات والمشاعر العامة والمشتركة بين الأعضاء العاديين فى أى مجتمع . وهذه المعتقدات تشكل نسقاً مستقلا له حياة خاصة به .

الصناعية ، فالتماسك فى هذه المجتمعات لا ينشأ عن التشابه بين الناس ولكنه على العكس من ذلك ينشأ نتيجة الاعتماد المتبادل بينهم فالشخص لا يصبح متخصصاً فى شيء ما إلا إذا كان هناك آخرون متخصصون فى إنتاج السلع وتقديم الخدمات التى يحتاجها ليتفرغ لتخصصه.

ويجب أن نلاحظ هنا أن إميل دوركايم ينظر إلى المجتمع بأسره على أنه مجرد أساليب للتصرف أو بعبارة أخرى على أنه مجموعة من المعايير والقواعد الأخلاقية والقيم ، وذلك ما لاحظناه فى تعريفه للوقائع الاجتماعية فالواقع الاجتماعى بالنسبة له ليس واقعاً مادياً على الاطلاق ولكنه واقع فكرى وهذا الفكر هو المحدد لكل ما عداه من صور الحياة الاجتماعية كما أن دوركايم قد صور هذا الفكر على أنه شيء مستقل بذاته يمارس قهراً على أفراد المجتمع وليس عليهم إلا أن يتنبوه وإلا فإن المجتمع سوف يصاب بالتفكك والانهيار.

ولكن ما الذى يؤدى إلى تحول المجتمع من حالة التماسك الآلى إلى حالة التماسك العضوى ؟

يجيب دوركايم على هذا السؤال بأن التماسك العضوى إنما هو نتاج لتقسيم العمل الأكثر تقدما ولكن تقسيم العمل فى حد ذاته ليس كما كان يرى علماء الاقتصاد نتيجة لعوامل إقتصادية ولا نتيجة رغبة الأفراد فى أن يزيدوا من طاقاتهم الانتاجية وفى أن يحسنوا الإنتاج أو يحسنوا من أساليب حياتهم ولكن تقسيم العمل يرجع فى رأى دوركايم إلى ما أسمـــاه بالكثافة الديناميه أو الكثافة الأخلاقية Dynamic or moral density ويعنى دوركايم بالكثافة الديناميه أو الكثافة الأخلاقية تلك الحالة من التفاعل المكثف بين الناس والناتج عن زيادة عدد الأفراد الذين تتهيأ لهم فرص الاتصال بعضهم ببعض بدرجة تجعلهم قادرين على التفاعل

مع بعضهم ، وبالتالى يمكننا القول حسب دوركايم أن التقدم فى عملية تقسيم العمل إنما يتناسباً تناسباً طردياً مع الكثافة الدينامية أو الكثافة الأخلاقية .

ولكن الكثافة السكانية لاتؤدى بالضرورة إلى كثافة دينامية أو أخلاقية أو إلى تقسيم معقد للعمل ذلك أنها تؤدى إلى هذه النتيجة فى حالة واحدة وهذه الحالة هى زيادة الصراع من أجل البقاء .

ويرى دوركايم أن مصدر تقسيم العمل المتقدم إنما يكمن فى القيم الثقافية التى يتضمنها الضمير الجمعى لأعضاء مجتمع ماقائم بالفعل . ويمكن التعرف على نوع التماسك الاجتماعى السائد فى مجتمع مامن خلال ملاحظة بعض الآثار التى تترتب عليه وبخاصة نوع الجزاءات السلبية أو القوانين التى تفرض على من يخالف أخلاقيات أو معايير الجماعة . ففى المجتمع الذى يسود فيه التماسك الآلى نجد أن القانون السائد فيه هو ما أسماه دوركايم بالقانون القمعى Repressive أو الإنتقامى حيث توقع الجزاءات الشديدة على الشخص المخالف للأخلاقيات السائدة فى المجتمع .

أما فى المجتمع الذى يسود فيه التماسك العضوى فاننا نجد مؤشرات هذا التماسك تتمثل فيما أسماه بالقانون الإصلاحى restitutive أى أن الجزاءات التى توقع على المخالف لاتهدف إلى الانتقام منه ولكنها تهدف إلى إعادة الحال إلى ما كان عليه من قبل . فمثلا يفرض عليه غرامه ما أويطلب منه إصلاح ما أفسده أو إزالة الضرر الذى وقع منه على الأفراد الآخرين أو المجتمع .

وقد كان إهتمام إميل دوركايم منصبا على موضوع أساسى هو طبيعة التماسك الاجتماعى أو بعبارة أخرى حول سؤال مؤداه ماالذى يبقى الناس سوياً فى المجتمع بشكل منظم ؟

يتضح لنا من ذلك أن الوقائع الاجتماعية بالنسبة لإميل دوركايم كانت ببساطة هى التماسك الاجتماعى من جهة والجزاءات السلبية من جهة أخرى (ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه الوقائع المادية هى الأخلاقيات أساساً وليست الوقائع المادية الملموسة) . وقد رأى دوركايم أنه يجب أن ننظر إلى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء .

ويعرف دوركايم الأشياء بأنها كل ماهو معطى وكل ماهو خاضع للملاحظة ، ويرى أن معالجة الظاهرات الاجتماعية بوصفها أشياء يضفى على هذه المعالجة صفة العلم .

وقد شرح إميل دوركايم تأثير الوقائع الاجتماعية على السلوك الإنسانى فى دراسته عن « الانتحار »(١) . وهذه الدراسة تمثل نموذجا للتحليل الاجتماعى طبقا لمنهجه الذى شرحه فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » . ولقد حاول دوركايم فى دراسته عن الانتحار أن يطبق مبدأه المنهجى الذى مؤداه أن عالم الإجتماع يجب أن يبحث عن أسباب أى ظاهرة إجتماعية يدرسها فيما سبقها من وقائع اجتماعية وليس فى الحالات الشعورية للأفراد ، بعبارة أخرى يقول دوركايم أن الواقعة الاجتماعة يجب أن تفسر بغيرها من الوقائع الاجتماعية وليس بأى حالات سيكولوجية .

إن هذا المبدأ فى حد ذاته لا اعتراض عليه فالتفسير الاجتماعى يختلف عن غيره من التفسيرات فى أنه لابد أن يقدم أسباباً ذات أصل اجتماعى للظاهرة الاجتماعية التى ندرسها .

ولكن النقد الأساسى الذى يمكن أن يوجه هنا لإميل دوركايم هو مايعنيه بالواقعة الاجتماعية . وقد سبق أن رأينا أن تعريفه للواقعة الاجتماعية إنما هو تعريف

(1) Durkheim, Suicide. Free Prss. New York. 1951.

فكرى تماماً . ومايريد دوركايم أن يقوله هو أننا يجب أن نفسر حالات السلوك بحالات الأخلاق أو بمعنى آخر أنه يجب أن نفسر الحالات الأخلاقية بحالات أخلاقية أخرى . فى هذه الحالة نجد أن تفسير إميل دوركايم ليس كما يدعى تفسيراً اجتماعياً ولكنه فى واقع الأمر تفسيراً أخلاقيا فالمجتمع بالنسبة له ليس بمجموعات حية من الأفراد يعيشون فى واقع مادى ويقومون بنشاط مشترك ولكن المجتمع عبارة عن مجموعة من المعايير ومن القيم ومن الأخلاقيات العامة المختلفة .

وهذا ماعبر عنه فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » حيث يقول :

« المجتمع ليس مجرد مجموع أفراده ، ولكنه نسق ينتج عن التفاعل بينهم وهذا النسق يمثل واقعاً معينا له خصائصه الخاصة » .

وقد ركز دوركايم فى دراسته عن الانتحار على معدلات الانتحار وليس على الحالات الفرديه للانتحار ورأى أن مايجب علينا عمله بوصفنا علماء اجتماع ليس هو أن نقدم تفسيراً لانتحار فرد مافى وقت معين وفى زمان معين ولكن يجب أن نهتم بأن نجيب على هذا السؤال :

لماذا يقوم عدد معين من الأفراد فى فترة زمنية معينة فى مجتمع معين بقتل أنفسهم أو بارتكاب فعل الانتحار ؟ .

إن وضع دوركايم لمشكلة الدراسة بهذه الكيفية يمثل فى الواقع اتجاهاً سوسيولوجيا حقيقيا يأخذنا بعيداً عن الاتجاهات السيكولوجية فى علم الاجتماع . ولكن مشكلة إميل دوركايم أنه حاول أن يفتش عن إجابات لهذا السؤال فى المجال الأخلاقى فقط منفصلا تماماً عن الواقع الاجتماعى الذى تنشأ أو تظهر فيه هذه الأخلاقيات . إن المتغيرات التفسيرية التى تبناها دوركايم فى دراسته الاجتماعية بما فى ذلك الانتحار إنما هى متغيرات مثالية أو متغيرات فكرية على حد تعبير جدهون

جوبرج . وقد توصل إميل دوركايم إلى تنميط للانتحار . فقد وجد أن هناك ثلاثة أنماط للانتحار . ما أسماه بالانتحار الأنانى egoistic suicide والانتحار الغيرى Altruisric suicide والانتحار الناجم عن اللامعياريه أو الانتحار اللامعيارى Anomic suicide.

أما النوع الأول من الانتحار أى الانتحار الأنانى فإنه يتناسب تناسبا عكسياً مع درجة التكامل فى المجموعة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد . ويعنى إميل دوركايم أن القابلية للانتحار الأنانى عند الفرد تزداد حين تضعف التزاماته نحو الآخرين أو حين لا تكون للآخرين إلتزاماً نحوه .

أما النوع الثانى من الانتحار وهو الانتحار الغيرى فإنه ينجم عن روابط اجتماعية قويه تؤدى بالفرد إلى أن يضحى بحياته فى سبيل المجموعة .

أما النوع الثالث من الانتحار أى الانتحار اللامعيارى فإنه يحدث فى تلك الحالات التى ينهتك فيها النسيج الاجتماعى على حد تعبيره ، وبالتالى تنشأ حالة من اللامعيارية أو انعدام المعايير فى المجتمع . وحالة انعدام المعايير فى المجتمع أو حالة الاضطراب المعيارى ينجم عن أى خلل فى التوازن equilibrium سواء كان هذا الخلل فى التوازن مؤدياً إلى نتائج إيجابية أو نتائج سلبية فأى تغيرات مفاجئة فى النظام الاجتماعى تؤدى إلى حالة من اللامعيارية أو التفكك الاجتماعى فمثلا الكساد الاقتصادى أو الرخاء الاقتصادى حالتان تمثلان تغيراً مفاجئاً فى النظام الاجتماعى يترتب عليها درجة من اللامعيارية تؤدى إلى زيادة معدل الانتحار فى المجتمع (١) .

---

(1) Lewis coser. Masters of sociological Thought. (Harcourt Braco Jovanavich, Inc. New York 1977 pp. 134, 135,

وحين يقول إميل دوركايم أن الكساد الاقتصادى يؤدى إلى اللامعيارية فإنه لا يعنى بذلك حالة الفقر التى تسود فى الكساد الاقتصادى ولكنه يعنى التغير فى مواقف الناس. فهو يرى فى الواقع أن الفقر فى حد ذاته إنما يمثل حماية للأفراد من الانتحار ولكن التغير المفاجىء الذى يحـــدث فى المجتمع هـــو الذى يؤدى إلى زيادة الانتحار .

ويتضح من ذلك بالطبع تأكيد دوركايم على فكرة النظام الاجتماعى وعلى فكرة التوازن الاجتماعى وهاتين الفكرتين هما من الأفكار الرئيسية والمحورية فى النظريات الوضعية بل وحتى النظريات الغربية .

أهم معالم فكر دوركايم :

بعد هذا العرض الموجز للأفكار الأساسية التى قدمها إميل دوركايم فى مؤلفاته المختلفة ننتقل إلى تحديد أهم معالم فكره وخاصة المسلمات الأساسية التى استند عليها فى هذه النظرية وما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية تطبيقية والمضمون الإيديولوجى لها .

إن دوركايم قد بدأ بالتسليم بأن المجتمع عبارة عن نسق من الأخلاقيات لا يمكن ملاحظته مباشرة ولكن يمكننا أن نستدل عليه من بعض الآثار التى يمكن ملاحظتها ، بعبارة أخرى رأى أن أساس المجتمع هو أساس فكرى أو أخلاقى لا نستطيع أن ندرسه مباشرة ولكن من خلال ما يفصح عنه من سلوك وأشياء قابلة للملاحظة . وقد ادعى دوركايم كما رأينا أنه يجب النظر إلى الوقائع الاجتماعية بوصفها أشياء قابلة للملاحظة ولا يعنى ذلك اطلاقاً كما رأينا من شرحنا لأفكاره أنه يركز على دراسة أشياء مادية ولكنه يريد أن يرقى بالأفكار إلى مستوى الأشياء القائمة بذاتها . كما سلم إميل دوركايم بأن أفراد المجتمع عليهم لأن يخضعوا تماماً للضمير الجمعى وما يحتوية من مبادىء وقواعد أخلاقية وقد اتضح ذلك كما

كما رأينا فى وصفه للوقائع الاجتماعية بأنها ذات طبيعة إلزامية وإجبارية للأفراد .

ومن الواضح أيضاً أن دوركايم قد سلم بأن الإنسان جشع بطبعه وأنه دائماً يسعى إلى الحصول على المزيد ولا يقنع إطلاقا وبالتالى فإنه لابد من أن تكون هناك سلطة ما تمارس القهر والإجبار عليه بحيث يقنع بما قسم له . أما فيما يتعلق بالمتغيرات التى يفسر بها إميل دوركايم الظاهرات الاجتماعية المختلفة فقد رأينا أن هذه المتغيرات هى أساسا متغيرات فكرية وأخلاقية وأنه قد استبعد تماما المتغيرات التاريخية والمتغيرات المادية .

ولابد أن نذكرهنا أيضاً الإجراءات العملية التى يمكن أن تترتب على نظرية إميل دوركايم . إن إميل دوركايم قد حاول أن يكون عالما موضوعيا محايداً ولكنه قد قرر بالفعل بأن علم الاجتماع لابد وأن يلعب دوراً فى تحسين أحوال المجتمع ، وقد كان دوركايم يأمل فى أن يقدم برامج سياسية واجتماعية تعتمد على الدراسة الاجتماعية الموضوعية للمجتمع ، وقد سبق أن ذكرنا أن أهداف إميل دوركايم الأساسية من تقديمه لهذه النظرية هو أن يجعل علم الاجتماع بدبلا للاشتراكية أى أن يجعل علم الاجتماع هو المرشد للساسة ورجال الصناعة فى توجيه المجتمع لتحقيق الاستقرار الاجتماعى وللحيلولة دون حدوث أى اضطرابات فى النظام الاجتماعى القائم أى النظام الرأسمالى .

ويتضح من ذلك المضمون الإيديولوجى لنظرية إميل دوركايم . فمن استعراضنا لأفكاره جميعاً يتضح أن نظريته ذات طابع محافظ تماما لا يمكن أن يخطئه الإنسان فيرى زايتلن مثلا أن هدف إميل دوركايم فى الواقع كان هو الحفاظ على النظام الاجتماعى بأى ثمن وبأى طريقة وبأن دوركايم قد بذل قصارى جهده من أجل

أن يسخر علم الاجتماع فى تحقيق هـذا الهدف . ولنستشهد هنا بعبارة لدوركايم يقول فيها[١] :

« إن ما نحتاجه لكى نحقق الاستقرار فى النظام الاجتماعى هو أن نجعل جماهير الناس قانعة بما قسم لهم . ولكن ما يجب عمله لكى نجعلهم قانعين بنصيبهم فى الحياة هو أن نقنعهم بأنه ليس لهم الحق فى أن يحصلوا على أكثر مما لديهم . ولكى نحقق ذلك فإنه من الضرورى تماما أن تكون هناك سلطة عليا يعترفون بها ترشدهم دائماً إلى الصواب » .

ويجدر بنا أن نذكر هنا فى ختام حديثنا عن إميل دوركايم أن الأفكار الأساسية التى عبر عنها لم تنته بوفاته ولكنها قد راجت كثيراً فى أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية وصيغت حولها نظريات أخرى جديدة سواء كانت نظريات وضعية أو نظريات وظيفية . ومما هو جدير بالذكر أن واحداً من أشهر العلماء الأمريكيين وهو روبرت ميرتون قد صاغ نظريته إعتماداً على الأفكار الأساسية عند إميل دوركايم وكذلك الحال بالنسبة لكثيرين من علماء الاجتماع الأميريكين[٢] .

ويذكر كالفن لارسون[٣] أن فكر إميل دوركايم قد لقى رواجا كبيراً فى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد فترة الكساد الاقتصادى التى سادت أمريكا فى الثلاثينيات والتى فتش علماء الاجتماع الأمريكين بعدها عن تفسيرات إميل دوركايم لهذه الأزمة التى يمر بها المجتمع الأمريكى وحاولوا أن يستعينوا بما قدمه

---

(1) Jrving Zeitlin. Ideology and The Development of Sociological Theory (New Jersey, prenticehall, 1968) p. 235.

(2) Schwendinger. opt. cit. p. 254.

(3) Calvien Larson. Major Themes in Sociological Theory. (New York, David Mc-Kay Company, 1973) p. 50.

من حلول لكى يرضى الناس بأوضاعهم الاجتماعية المتدهورة فى تلك الفترة. بعبارة أخرى أعاد علماء الاجتماع الأمريكين إكتشاف إميل دوركايم بعد فترة الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات واهتموا به اهتماما كبيراً بعد ذلك وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وفى ذلك يقول أحد العلماء الأمريكين وهو هينكل :

« إن الاهتمام بدوركايم فى الأربعينيات والخمسينيات قد اتسع نطاقه وبخاصة منذ عام ١٩٤٥ . وأصبح دوركايم شخصية محورية فى الكثير من المجـــالات العلمية المتخصصة .

ويمكننا أن نلاحظ تأثير إميل دوركايم فى تخصصات معينة مثل علم اجتماع القيم وعلم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع الجنائى وعلم اجتماع الجموعات الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية والتغير الاجتماعى وأيضاً السلوك الجمعى » .

كما أن الكثيرين من علماء الاجتماع الغربيين المعاصرين يتبنون أفكار دوركايم ويقول عالم الاجتماع الأمريكى نسبت عن إميل دوركايم « إنه هو عالم الاجتماع الحقيقى والكامل » .

الفصل السادس

ماكس فيبر والفعل الاجتماعى

الموقف الإيديولوجى لماكس فيبر :

تتسق نظريات ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) عن المجتمع بشكل واضح مع التزاماته السياسية والأيديولوجية . فقد أعلن ماكس فيبر سواء فى مؤلفاته أو محاضراته العامة أو فى النصائح التى كان يقدمها للسلطة فى ألمانيا فى وقته أنه من أشد المدافعين عن النظام الرأسمالى البرجوازى ، وأنه من ألد أعداء الماركسية . وقد وصف ماكس فيبر بأنه ماركس البرجوازية أى أنه مثلما كان يدافع ماركس عن البروليتاريا أو الطبقة العاملة فإن ماكس فيبر كان هو المدافع المخلص عن البرجوازية الألمانية بالطبع والبرجوازية العالمية[1] .

وقد وصف ألبرت سالمون علم اجتماع ماكس فيبر بأنه بأسره كان حواراً طويلا ومكثفاً مع شبح كارل ماركس[2] .

والواقع أن ماكس فيبر ينتمى إلى تلك المدرسة من علماء الاجتماع الذين ينبع اهتمامهم بالمجتمع من اهتمامهم بالمسائل العامة وبالسياسة . وفى ذلك يتشابه ماكس فيبر مع ميكيافلى مثلا . وكان ماكس فيبر يود أن يكون من رجال السياسة وأن يمارس السلطة ، وكان يحلم أن يكون رئيس دولة وليس مجرد زعيم حزب ، ولكن ماكس

(1) Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought. Penguin Books. England. 1967. p. 253.

(2) See Albert Salmon's article, "German Sociology" in George Gurvitch and Wilbert E. Moore : Twentieth—Century Sociology (New York : The philosophical library, 1945). p. 596.

فيبر لم يكن سياسياً ولا رئيس دولة بل إن كل ما استطاع أن يحققه هو أن يكون مستشاراً أو ناصحاً للأمير .

إن آراء ماكس فيبر السياسية التي ترجمها إلى نظرية اجتماعية تدور جميعاً حول أن النظام الرأسمالي وأن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والتنافس بين المنتجين على السوق إنما هي أنسب شيء للإنسان وأن هذا النظام إنما يرتبط بالعقلانية ويمثل قمة التطور الإنساني(١) .

والرأسمالية بما ترتبط به من عقلانية هي مصير الإنسان ولا جدوى بأي حال من الأحوال من الثورة على هذا النظام . وكان ماكس فيبر من ألد أعداء الاشتراكية على الرغم من إعجابه بمؤلفات كارل ماركس . وكان يرى أن ما يتهـــدد الكرامة الإنسانية إنما هو في الحقيقة النظام الاشتراكي بما سيرتبط به من استعباد للأفراد بواسطة الدولة الاشتراكية والمؤسسات البيروقراطية التي ترتبط بها . وعبر مراراً وتكراراً عن رأيه في أن الاشتراكية سوف تؤدي إلى إزدياد سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان أو إلى سيطرة المنظمات على الأفراد وإلى حرمان الفرد من حريته . ويجب أن نلاحظ التطابق بين آراء ماكس فيبر التي عبر عنها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبين الدعاية التي ما زالت توجهها الدول الرأسمالية للاشتراكية .

ولم يكن ماكس فيبر مدافعاً فقط عن النظام الرأسمالي ولكنه كان أيضاً من أشد المدافعين عن الإمبريالية أو الاستعمار . فقد أنتقد فيبر مثلما فعل نيتشه الشعب الألماني لما يتصف به من ميل للطاعة السلبية وتقبل الحكومات التقليدية وقال أن هذه الصفات جميعها لاتليق بشعب لابد وأن يلعب دوراً عالمياً كبيراً وعبر بوضوح عن ضرورة أن يكون لألمانيا دور إستعماري في العالم وكذلك أوربا الغربية(٢) .

---

(1) Michael Harrington. The Twilight of Capitalism (The Macmillan Press. New York, 1977.) pp. 15—17.

(2) Aron : opt. cit. pp. 254—255.

لقد كان ماكس فيبر يتخذ كما قلنا موقف المدافع عن النظام الرأسمالى ويجد كل الأدلة لإثبات أنه أفضل للنظم التى عرفتها البشرية . ولكى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يهاجم كلا من الفكر المحافظ السائد فى ألمانيا وأوربا المرتبط بالإقطاع وأن يهاجم أيضاً الفكر الاشتراكى الراديكالى الذى انتشر بفعل الحركات الاشتراكية فى أوربا . وقد عبر ماكس فيبر ربما أكثر من غيره من علماء الاجتماع الأوائل عن مواقفه الأيديولوجية والسياسية بوضوح كامل. فقد قرر مثلا فى إحدى محاضراته التى كان يلقيها فى « فراى بورج » فى عام ١٨٩٥ عن هذه الآراء بقوله :

« إننى عضو فى الطبقة البرجوازية وأنا أشعر بذلك وقد نشأت فى أحضان هذه الطبقة وتبنيت آراءها ومثلها العليا »[1] .

وعلى الرغم من أن ماكس فيبر قد هاجم بشدة المفكرين المحافظين فى ألمانيا إلا أنه كان يشعر بالرعب من الأفكار الاشتراكية بصفـــة عامة ومن التحول الاشتراكى وكان يتخذ موقف العداء من الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى ألمانيا . ولماكس فيبر عبارات واضحة تماماً تبين موقفه بما لا يدع مجالا للشك . فقد قال : « إذا ألغيت الملكية الخاصة فإن بيروقراطية الدولة هى التى سيكون لها الحكم فى المجتمع» . وبينما نجد فى النظام الرأسمالى أن بيروقراطية الدولة وبيروقراطية الصناعة يمكنهما أن يقللا من الآثار السيئة لكل منهما فإنهما سوف يصبحان جسداً واحدا فى الدولة الاشتراكية بحيث تستعبد البيروقراطية الإنسان . ولن يكون للعامل أية حرية على الاطلاق . وقد حاول ماكس فيبر أن يؤيد فكرته هذه بالاستشهاد ببعض الأدلة التاريخية فقال مثلا أنه حينما سادت بيروقراطية الدولة فى مصر وفى

---

(2) Geoffrey Hawthorn, Enlightenment and Despair. A History of Sociology (Cambridge University Press. London. 1976.) p. 149.

روما فإن ذلك قد أدى إلى إنهيار هاتين الحضارتين . ورأى ماكس فيبر أن تجنب إنهيار الدولة الألمانية إنما يتمثل فى تشجيع البرجوازية على تحقيق مصالحها .

ودعى ماكس فيبر إلى أن تقوم ألمانيا بأنشطة إستعمارية خارج حدودها وإلى تأكيد فكرة القومية الألمانية وقدم لذلك ثلاثة مبررات : أولها أن تأكيد قومية ألمانيا وقيامها بالاستعمار خارج حدودها سوف يسهل نمو الرأسمالية بها كما حدث فى إنجلترا . وثانياً أن ذلك سوف يؤدى إلى تحرير الدول الأصغر فى أوربا وتحقيق بعض الأمان لها عن طريق تحقيق نوع من التوازن فى التوتر بين القوى الكبرى ، وثالثاً لأن ذلك سوف يؤدى إلى تدعيم الثقافة الألمـــانية وتحقيق تكاملها وحيويتها(١) .

وقد رأى ماكس فيبر أن المجتمع الصناعى لابد أن يكون به صراعاً طبقياً وأن تكون به إدارة بيروقراطية ، ولكنه هاجم بشدة فكرة أن تقوم أى طبقة أخرى غير الطبقة البرجوازية بالسيطرة على المجتمع ونصح هذه الطبقة بأن تدافع عن مصالحها وبأن تحتفظ بسيطرتها على المجتمع .

وسوف نلاحظ عند عرضنا لأفكار ماكس فيبر ذلك التطابق بين آرائه السياسية وأيديولوجيته وبين مسلماته الأساسية التى بنى عليها هـذه الأفكار . وقد كان ماكس فيبر من أوائل المهاجمين للنظام الجديد فى روسيا حتى أنه إتهم زعماء الثورة الروسية بأنهم ديكتاتوريون عسكريون وبأنهم يهدفون إلى السيطرة على الدولة جميعها (٢) . ويجب أن نذكر هنا أن ماكس فيبر قد زار الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٤ وقد استقبل هناك استقبالا حافلا وأن آراءه وأفكاره قد

---

(1) Ibid. p. 153.
(2) Ibid, p. 155.

لقيت رواجا كبيراً فى الولايات المتحدة الأمريكية واتخذت أساساً اعتمد عليه الكثير من علماء الاجتماع الأمريكين والفلاسفة ورجال السياسة لمواجهة الأفكار الاشتراكية والمدافعة عن النظام الرأسمالى والاستعمارى . ولكن كيف ترجم ماكس فيبر معتقداته السياسية والأيديولوجية إلى نظرية عن المجتمع ؟ . لقد حاول ماكس فيبر أن يقيم نظرية مخالفة تماما لنظرية كارل ماركس أى أن يقلب نظرية كارل ماركس رأساً على عقب . فبدلا من المسلمة الأساسية التى تنهض عليها النظرية الماركسية والتى مؤداها أن الواقع المادى الاقتصادى هو الذى يحدد الواقع الفكرى والسيكولوجى ، أراد ماكس فيبر أن يثبت أن الواقع السيكولوجى هو الذى يحدد الواقع الاقتصادى . فقد رأى أن نشأة الرأسمالية كنظام اقتصادى اجتماعى إنما هى نتاج لنشأة الروح الرأسمالية والتى هى بدورها نتيجة للديانة أو الأخلاق البروتستنطية .[1] وقد قدم ماكس فيبر نظريته كنقيض للمادية الماركسية حيث قرر أن العنصر الأساسى فى الحياة الاجتماعية (العامل المستقل) هو الأخلاق والدين بينما غيرهما من جوانب العملية التاريخية بما فى ذلك النظام الاقتصادى ليست سوى وظيفة للعامل المستقل .

علم الاجتماع والفعل الاجتماعى :

لقد عرف فيبر علم الاجتماع بأنه :

« ذلك العلم الذى يحاول الوصول إلى فهم تفسيرى للفعل الاجتماعى (*) من

(1) Max Weber The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Scribner, New York, 1958.

(*) الفهم التفسيرى (Verstehen) عند فيبر هو الخطوة الأساسية نحو التوصل إلى علاقات سببية بين الأشياء . وفهم المعنى الذاتى للنشاط الذى يأتيه الفرد يصبح سهلا إذا تعاطف معه الباحث أو وضع نفسه مكانه (Einfuehlung) .

أجل التوصل إلى تفسير على مجرى هذا الفعل وآثاره »[١] .

والفعل الاجتماعى حسب تعريف ماكس فيبر والذى يجب أن يكون موضوع دراسة علم الاجتماع هو أى سلوك إنسانى يضفى عليه الفاعل معنى ذاتيا ، والفاعل حين يقوم بهذا الفعل الاجتماعى فإنه يضع سلوك الآخرين دائماً فى اعتباره ويكون فعله بالتالى موجها نحو الآخرين .

وقد اعتبر ماكس فيبر أن وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هى « الشخص الفاعل» acting person ويقول فى ذلك :

إن علم الاجتماع التفسيرى يعتبر الفرد وفعله هو الوحدة الأساسية أو « الذرة » فالفرد هو الشىء الوحيد الذى لديه سلوك له معنى ... أما المفهومات الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو الإقطاع فإنها تشير إلى فئات معينة من التفاعل الإنسانى . وعلى هذا فإن مهمة علم الاجتماع هى اختزال مثل هذه المفهومات إلى « فعل يمكن فهمه ، أى إلى أفعال الأفراد المشتركين فى النشاط »[٢] .

وقد أقام فيبر نظريته على أساس التمييز بين أربعة أنماط أساسية من الفعل الاجتماعى هى :

١ — الفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما .

Purposeful or goal oriented rational action.

٢ — الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما .

Value-oriented rational action.

---

(1) Max Weber, Basic Concepts in Sociology (New York, The Citadel Press, 1964), p. 29.

(2) Hans Girth and C. Wright Mills (eds) From Max Weber : Essays in Sociology (New York, Oxford University Press, 1946) p. 55.

٣ — الفعل الوجدانى أو العاطفى . emotional or affective action.

٤ — الفعل التقليدى . traditional action.

والفعل العقلانى الذى يرتبط بهدف ما يتصف بأن الفاعل فيه يدرك بوضوح هدفاً معيناً يريد تحقيقه وتكون لديه أساليب مناسبة لتحقيق هذا الهدف . ومثال هذا النوع من الأفعال ما يقوم به المهندس الذى يصمم بناء معينا أو الشخص المضارب فى سوق الأوراق المالية الذى يهدف إلى تحقيق مكسب مالى أو القائد الحربى الذى يريد أن يحقق نصراً ما . أفعال هؤلاء جمياً أمثلة على الأفعال العقلانية التى ترتبط بتحقيق هدف معين .

أما الفعل العقلانى الذى يرتبط بقيمة ما فهو ذلك الفعل الذى لا يهدف إلى تحقيق هدف خارجى معين بالنسبة للفرد بقدر ما يهدف إلى التمسك بقيمة معينة لها أهمية عظمى عند الفرد . ومثال ذلك الفعل ما يقرره قبطان السفينة من ألا يدعها تغرق وحدها بل يغرق معها أو حين يشترك فرد ما فى مبارزة يعلم أنه سيقتل فيها . أما ما يسميه ماكس فيبر الفعل الوجدانى أو العاطفى فهو ذلك الفعل الذى ينجم عن حالة عاطفية أو نفسية مباشرة للفرد مثال ذلك حين تصفع الأم طفلها لأنه أتى سلوكاسيئا أو حين يضرب أحد لاعبى الكرة زميلا له فى المباراة . هذه الأفعال أفعالا وجدانية وليست أفعالا عقلانية لأنها ليست موجهة إلى هدف ولا مرتبطة بقيمة معينة ولكنها عبارة عن ردود أفعال عاطفية للفاعل الذى يجد نفسه فى ظروف معينة .

أما الفعل التقليدى فإنه ذلك الفعل الذى تمليه التقاليد والعـــادات الجمعية والمعتقدات . والفاعل فى هذه الحالة لا يأتى فعله من أجل تحقيق هدف ما أو من أجل تمسكه بقيمة معينة أو لأنه مثار إنفعاليا ولكن فعله يكون بمجرد إطاعة

لأفكار تم له إكتسابها من خلال عملية التطبيع الإجتماعى (١) .

الأنماط المثالية Ideal Types :

تعتمد كل نظرية ماكس فيبر كما قلنا على هذا التصنيف للفعل الاجتماعى أو على ذلك التنميط Typology . والتنميط له أهمية خاصة فى نظرية ماكس فيبر فقد رأى فيبر أنه لكى نستطيع تحليل الظاهرات الاجتماعية وهى موضوع علم الاجتماع لابد أن تكون لدينا أداة تقوم بالتحليل على أساسها تسهل لنا عملية المقارنة بين هذ الظاهرات وبعضها البعض . وهذه الأداة هى ماأسماه فيبر بالنماذج أو الأنماط المثالية الخالصة Pure-ideal types (٢) .

فالأربعة أنواع من الأفعال الاجتماعية السابق الحديث عنها تمثل نماذج مثالية أو خالصة للفعل الاجتماعى بمعنى أنها لاتوجد فى الواقع بهذه الكيفية ولكنها مجرد تصورات عقلية مستمدة من الواقع فعلا ولكنها لاتوجد فيه بهذه الكيفيه . وقد إنطلق فيبر بعد تصنيفه للفعل الإجتماعى إلى تصنيف كافة الظاهرات فى المجال الاجتماعى . فقد صنف بناء على ذلك مثلا أنماط السلطة أو السيطرة فرأى أن هناك سيطرة أو سلطة عقلانية وسلطة تقليدية وسلطة كاريزماتية .

كما أن تصنيفه للمجتمعات وكذلك تصوره لمراحل التطور التاريخى للمجتمعات الغربية قد اعتمد أيضاً على تصنيفه للفعل الاجتماعى ، فالصفة الرئيسية للعالم الذى عاش فيه ماكس فيبر كما يقول هى صفة العقلانية أو الأفعال العقلانيه التى ترتبط

(1) Raymond Aron. opt, pp. 185—192

(2) Edward Shils and Henry Finch, (eds)., Max Weber On the Methodology of the Social Sciences (New York, The Free Press, 1949), p. 90.

بتحقيق الأهداف ، والمشروعات الاقتصادية فى النظام الرأسمالى هى مشروعات عقلانية كما أن سيطرة الدولة على المجتمع تكون أيضاً سيطرة عقلانية عن طريق البيروقراطية .

والواقع أن اهتمام ماكس فيبر قد انصب على أول نمط من أنماط الفعل الاجتماعى الأربعة أى الفعل الاجتماعى العقلانى الموجه نحو تحقيق أهداف محدودة لأن هذا النمط من الفعل الاجتماعى هو الذى يرتبط بذلك النموذج المثالى أو الخالص من نماذج المجتمع ويعنى به نموذج الرأسمالية الغربية المعاصرة (١) .

وقد أثار فيبر سؤالين هامين بالنسبة للرأسمالية :

أولهما : ماهى الخصائص المميزة لتلك الظاهرة الاقتصادية الاجتماعية المسماة بالرأسمالية والتى توجد فى الغرب ؟

ثانيهما : كيف ظهر هذا النموذج أو هذا النمط من المجتمعات ؟

وقد رأى فيبر أن الرأسمالية قد ظهرت فى أزمان مختلفة فى تاريخ العالم وفى مناطق مختلفة منه ولكن أشكالها قد اختلفت عن الشكل الحديث للرأسمالية التى توجد فى العالم الغربى .

ولكى يصل ماكس فيبر إلى تحديد الخصائص الأساسية للنمط الرأسمالى المعاصر فإنه قد أجرى دراسات متعددة عن القانون وتاريخه وعن نظم الإدارة ونظم الزعامة والحكم والنظم الدينية وإستطاع من ذلك كله أن يستخلص إجابات عن السؤالين الذين أثارهما كما سبق أن ذكرنا .

إن أهم خاصية للرأسمالية الحديثة هى طابعها العقلانى ويتضح ذلك الطابع

---

(1) Aron, opt. cit. p. 186.

العقلانى حين نقارن نمط التنظيم الإدارى الذى يرتبط بها بغيره من التنظيمات الإدارية التى كانت سائدة فى إنجلترا وفى فرنسا خلال عصر الإقطاع . وقد قام فيبر بتحليل أنماط القانون والإدارة المختلفة . وقرر فيبر أن المجتمعات الإنسانية قد عرفت جميعها نمطا ما من السلطة . ذلك أنه فى أى مجموعة من المجموعات لابد أن يكون هناك فرد أو أفراد يصدرون الأوامر ولابد أن يكون هناك آخرون يطيعون هذه الأوامر والذين يصدرون الأوامر يتوقعون أن تطاع أوامرهم .

والسبب فى ذلك أن الذين يصدرون الأوامر والذين يطيعونها يشتركون سوياً فى معتقدات معينة أو بعبارة أخرى يعتقدون بأن السلطة لها طابع شرعى ولكن أساس هذه الشرعية قد يختلف من حالة لأخرى فهناك كما قال فيبر ثلاثة نماذج مثالية أو أنماط خالصة من السلطة يمكننا أن نميزها تبعاً لشرعيتها هى :

١ — الشرعية العقلانية وهى تلك التى تعبر عن الاعتقاد فى مشروعية أنماط القواعد المعيارية وحق أولئك الذين تحددهم هذه القواعد فى ممارسة السلطة وإصدار الأوامر .

٢ — المشروعية التقليدية وهى التى تعتمد على الاعتقاد فى قدسية التقاليد الراسخة وفى حق أولئك الذين يتولون السلطة فى ممارستها .

٣ — المشروعية الكارزماتية (وقد سميت بذلك الاسم الذى إشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى العظمة والموهبة) وتعتمد هذه المشروعية الكارزماتية على ولاء الناس أو الأتباع لفرد معين يتمتع بامتياز وقدرات نادرة وخصائص شخصية كالبطولة أو العظمة يندر أن تتوافر لغيره . ومثل هذا القائد أو الزعيم يلقى الطاعة من الأتباع لأنهم يعتقدون أن أى أنماط معيارية أو أى أوامر يصدرها إنما هى أشياء مقدسة .

وقد أشار فيبر إلى أن الطاعة فى الحالة الأولى (أى فى حالة المشروعية العقلانية) ترجع إلى النظام القانونى القائم والذى يتصف بالصفة اللاشخصية . بينما ترجع فى الحالتين الثانية والثالثة إلى صفات شخصية .

والمشروعية العقلانية هى نمط فريد من السلطة ظهر فى الحضارة الغربيه وحدها وقد أشار فيبر إلى أن أيا من النماذج المثاليه أو الخالصة لاتوجد فى شكل خالص فى أى فترة تاريخيه ولكن ما وجد فى أى حالة من الحالات أو فى اى فترة من الفترات التاريخية لم يكن سوى شيئا قريباً من هذه النماذج العقلية الخالصة .

البيروقراطية[1] :

درس ماكس فيبر بالتفصيل العلاقة بين الأنساق الاجتماعية والاقتصادية وبين أن هذه الأنساق كانت تتجه باستمرار إلى العقلانيه . وقد قرر فيبر أن ذلك النمط من القانون العقلانى إنما هو ظاهرة حديثة نوعاً فى التاريخ الإنسانى وأنه قد إرتبط أساساً بظهور الرأسماليه الحديثه . والقانون العقلانى مثل الرأسماليه الحديثه نتاج الحضارة الغربية الحديثة . وتساءل فيبر عن الرابطة بين الإثنين وقد حاول أن يجيب على هذا السؤال عن طريق دراسته لتطور ما أسماه بالإدارة البيرقراطيه .

وهنا نجد مرة ثانيه إهتمام ماكس فيبر بعملية التنميط أو تصيف الظاهرات إلى أنماط معينة . وقد تحدث فيبر كثيراً عن نمط معين من الإدارة هو البيروقراطيه ورأى أن البيرقراطيه كنمط مثالى للإدارة يرتكز أساساً على السلطة القانونية العقليه التى تمثل أساس المشروعية . ورأى أن البيرقراطية عبارة عن عمليه مستمرة

(1) Hans Girth and C. Wright Mills, From Max Weber : Essays in Sociology (New York, Oxford University Press, 1946).

من أداء الوظائف الرسمية طبقاً لقواعد ومعايير . فالأشخاص الذين يؤدون هذه الوظائف لهم مجالات محددة ويتمتعون بالسلطة الضرورية التى تساعدهم على أداء مهامهم وهذه السلطة موزعة بطريقة معينة بحيث تضمن نوعا من التدرج فى الوظائف الرسمية وبحيث نجد فى نهاية الأمر أن هناك مجموعة من الأشخاص الرسميين لهم مهام إشرافية على غيرهم من الأشخاص . ولكى يستطيع هؤلاء الأشخاص ممارسة السلطة فلا بد أن تتوافر لديهم بعض المؤهلات والخصائص . وليس من الضرورى أن يمتلك أولئك الذين يمارسون السلطة الإدارية أى وسائل للإنتاج كما ليس من الضرورى أن يستخدموا وظائفهم الإدارية لتحقيق أى أغراض شخصية . والأفعال ذات الطبيعة الإدارية مسجلة كتابة فى شكل لوائح أو قوانين مما يضمن صفة الاستمرارية للعملية الإدارية .

والخصائص المميزة لحياة الأشخاص الرسميين فى النمط البيرقراطى من الإدارة هى :

أنهم يتصرفون بطريقة لاشخصية تبعاً للقواعد التى تحدد مجال عملهم وأنهم يشغلون هذه المناصب بالتعيين وليس بالانتخاب ويعتمد تعيينهم على توافر مواصفات معينة فيهم ، وعادة ما يحصلون على مناصبهم بعد إجتيازهم لاختبارات معينة . ويحصل هؤلاء البيروقراطيون على مرتبات بناء على جدول مرتبات معين ويحصلون على معاشات بعد عدد معين من السنوات التى يقضونها فى الخدمة . وعادة مالا يكون لهؤلاء الأشخاص أعمال أخرى .

وقد قارن ماكس فيبر هذا النمط من التنظيم الإدارى (أى البيروقراطية) بالتنظيم الإدارى الذى يرتبط بشكل السلطة التقليدية . ففى التنظيم الإدارى الذى يرتبط بالسلطة التقليدية لاتعتمد إطاعة الأفراد لبعضهم البعض على قواعد أو لوائح محددة وإنما يعتمد ذلك على نوعية الشخص الذى يشغل مركز السلطة التقليدية.

وتحدد التقاليد أساليب تصرف المسئول الإدارى التقليدى فى بعض الأحيان أو تترك له حرية التصرف الكاملة فى أحيان أخرى . وبعكس ماهو موجود فى النمط البيروقراطى من الإدارة نجد أن النمط التقليدى من الإدارة يعتمد على إختيار الأشخاص لممارسة هذه المهنة ليس بناء على خصائص محددة من قبل واختبارات معنية ولكن على أساس صلتهم بالرئيس أو القائد وولائهم الشخصى له .

وهكذا نرى أن فيبر رأى أن الخاصية الرئيسية للرأسمالية الغربية الحديثة هى العقلانية فى كل من القانون والإدارة . كما رأى أن هـــذه العقلانية تعتمد على إفتراضات أساسية معينة وعلى معتقدات أساسية يشترك فيها الأفراد فى المجتمع الغربى وتلك المعتقدات هى ما أسماها المشروعية القانونية العقلانية . ولكن هناك خصائص أخرى فى الرأسمـــالية كما عرفها الغرب تحدث عنها ماكس فيبر بالتفصيل .

الأخلاق البروتستنطية والروح الرأسمالية :

أن أهم خصائص النمط الرأسمالى الحديث الذى يوجد فى الغرب هو ما أسماه فيبر بروح الرأسمالية Spirit of Capitalism . والروح الرأسمالية هى عبارة عن نسق الأخلاقيات أو الاتجاهات نحو الحياة وما يجب أن يفعله الإنسان فيها . وقد شرح ماكس فيبر فكرته عن روح الرأسمالية بالتفصيل فى مقاله الشهير « الأخلاق البروتستنطية وروح الرأسمالية »[1] .

وقد حاول فى هذا المقال أن يشرح أصول الرأسمالية . ومن أهم خصائص الروح الرأسمـــالية أو الاتجاهات الأخلاقية التى ترتبط بالروح الرأسمالية الاعتقاد بأنه من الأشياء المفيدة أن ينفق الإنسان طاقاته من أجل الحصول على دخل أو من أجل جمع المال وأن يفعل ذلك حتى بعد أن تتوفر له احتياجاته

(1) Max Weber. The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism.

الأساسية بمعنى آخر أن يصبح جمع المال هدفاً فى حد ذاته أو أن يكون من أهم أهداف الإنسان فى الحياة زيادة ثروته بغض النظر عن الأساليب المتبعة فى ذلك طالما كانت هذه الأساليب تتصف بالكفاءة . وتتصف هذه الروح أيضاً بالمرونة والابتكار . وبالطبع كان لدى الناس فى أزمنة وأماكن مختلفة مثل هذه القيم ولكنها لم تكن سائدة بينهم كما حدث فى القرنين الأخيرين فى أوربا وأمريكا بحيث أصبحت هذه القيم ، أى قيم الربح وزيادة الثروة ، ذات أثر عظيم على الناس . وادعى ماكس فيبر أن هذه القيم أو هذه الروح تتصف بصفة العمومية فى العالم الحديث . ولكن هذه الروح أصبحت قوية جداً فى الغرب وذلك يستدعى تفسيراً علمياً . وأثار فيبر سؤالا مؤداه كيف نشأت هذه الروح الرأسمالية أصلا ؟ .

قرر فيبر أنه لابد أن يكون هناك عامل ما إرتبط بظهور الروح الرأسمالية أو شجع على ظهورها ، وقرر أن هذا العامل كان هو قيام الحركة البروتستنطية ورأى أنه كان هناك عناصر فى الأخلاق البروتستنطية شجعت على ظهور الروح الرأسمالية ، أولها وأهمها روح التقشف التى تتصف بها البروتستنطية والتى تشكل جانباً ضرورياً من الروح الرأسمالية . وأيضاً ذلك الاتجاه الدنيوى المستمد من تعاليم مارتن لوثر [1] . ومن عناصر هذه الأخلاق البروتستانطية أيضاً ذلك التأكيد على تنظيم الحياة الشخصية للأشخاص المسيحين وعلاقاتهم الاجتماعية . ومجموع هذه العناصر أدت إلى خلق اتجاه عام فى الأخلاق البروتستانطية يؤكد على ضرورة أن يحيا الإنسان حياته بطريقة منظمة ومرتبة ونشطة وتتسم هذه الحياة بالسمات اللاشخصية وأهم شيء فى ذلك الاتجاه

---

(١) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) : زعيم حركة الإصلاح الدينى البروتستانطى فى ألمانيا .

هو تأكيد الأخلاق البروتستانطية على الروح الفردية وعلى الاتجاهات الدنيوية . وقد حاول فيبر أن يدرس العلاقة بين الدين وبين غيره من جوانب الحياة الإنسانية وخاصة الاقتصادية . ورأى أن هناك بعض الاتجاهات الدينية يمكن أن تساعد على النشاط الاقتصادى بينما هناك اتجاهات دينية أخرى تمثل عقبة فى طريق التقدم الاقتصادى (١) .

ويرى عالم الاجتماع الشهير ميتشل أن أهم إسهامات فيبر فى علم الاجتماع هى محاولته تفسير ذلك النسق الاجتماعى الاقتصادى المعروف باسم الرأسمالية على أسس تاريخية واجتماعية عن طريق استخدام الدراسات المقارنة . وقد استخدم لتحقيق هذا الهدف عدة أساليب للتحليل أهمها مفهوم النموذج المثالى أو النموذج الخالص ويرى ميتشل أيضاً أن فيبر كان يتمتع بالجرأة العقلية وبالالتزام السياسى وبالخصائص المهنية فى عاداته وأسلوب تحليله (٢) .

أهم معالم فكر ماكس فيبر :

يتضح لنا من عرضنا السابق أن فكر ماكس فيبر يتصف بالصفات الأساسية التالية :

---

(١) يجب أن نلاحظ هنا أن الكثير من الكتابات الحديثة عن الدول النامية أو المتخلفه تتبنى هذه الفكرة وترجع التخلف الاقتصادى والتكنولوجى لدول العالم الثالث بشكل عام والدول العربية بشكل خا إلى أسباب دينية . ويمكن للقارىء الاطلاع على نموذج لمثل هذه الادعاءات الكاذبة فى كتاب رافائيل بتاى ـ العقل العربى والذى يؤكد فيه أن سبب تخلف الدول العربية هو تمسكها بالدين الإسلامى الذى يحث على التمسك بالمعتقدات والتقاليد القديمة ويحول دون تبنى الأفكار الحديثة أو يقف حائلا دون تحديث العالم العربى .

(٢) Duncan Mitchell, A Hundred Years of Sociology. (Aladine Publishing Company, Chicago. 1971) pp. 84—101.

أولا : الالتزام الأيديولوجي الواضح بالنظام الرأسمالي وتمجيده واعتباره النظام الأمثل للبشرية الذي يجب الحفاظ عليه وإدخال التحسينات والتعديلات به ، ويرتبط بذلك نزعة عنصرية واضحة تتمثل في الدعوة إلى سيطرة ألمانيا على غيرها من البلدان .

ثانياً : أصبح ماكس فيبر عالم اجتماع عن طريق إشتباكه في جدل طويل وعنيف مع شبح كارل ماركس كان هدفه إثبات خطأ أفكار ماركس الثورية وتحدى ادعاء ماركس بأن الاشتراكية أرقى من الرأسمالية من الناحية الإنسانية والأخلاقية.

ثالثاً : إفترض ماكس فيبر أن أساس الواقع الاجتماعي سيكولوجي فكري وبالتالي فإن موضوع علم الاجتماع يصبح دراسة أشكال هذا الواقع السيكولوجي.

رابعاً : وحدة التحليل الأساسية عند فيبر هي الشخص الفاعل ولا بد من اختزال كل المفهومات الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو النظام الاجتماعي إلى فعل يمكن فهمه ، أي إلى أفعال الافراد المشتركين في النشاط .

خامساً : على الرغم من أن فيبر لم ينكر أهمية العوامل المادية في المجتمع إلا أنه رأى أنها تابعة للعوامل الفكرية وليست أصلا لها .

سادساً : صور فيبر الإنسان على أنه أسير واقعه الاجتماعي وأنه ليس قادراً على تغييره وحذر من الثورة فالعمال قد يكسرون أغلالهم بالثورة ولكنهم لن يكسبوا شيئاً من ورائها .

سابعاً : إن أنماط ماكس فيبر الخالصة أو المثالية عن السلطة وعن الفعل الاجتماعي أنماط تصورية لا تستند على أدلة واقعية كما أن إفتراضاته عن الطبيعة المثالية للواقع الاجتماعي وبخاصة مقولته التي مؤداها أن الرأسمالية نشأت عن الروح البروتستانطية لا تستند على أدلة تاريخية إمبريقية .

الفصل السابع

فلفريدو باريتو ونظرية الصفوة

الموقف الأيديولوجى لباريتو :

إذا كان ماكس فيبر قد لقب بكارل ماكس البورجوازية فإن فلفريدو باريتو (١٨٤٨ — ١٩٢٣) قد لقب بكارل ماركس الفاشيه[1] . وقد اشترك كل من فيبر وباريتو فى محاولة هدم الأفكار الاشتراكية الماركسية وتقديم بديل عنها وتصدى كل منهما للدفاع عن النظام الرأسمالى وعن الطبقة الرأسمالية الحاكمة . ومثلما كان الالتزام الأيديولوجى لفيبر وغيره من رواد علم الاجتماع الغربى واضحاً منذ البداية وعحدداً لنظرياتهم الاجتماعية فإن التزام باريتو الأيديولوجى كان أيضاً واضحاً حتى قبل أن يكتب كلمة فى علم الاجتماع وعندما كان يعمل مديراً لشركة للسكك الحديدية بإيطاليا ومهندساً بمناجم استخراج الحديد . فقد كان المركيز باريتو عضواً بارزاً فى المنتديات البورجوازية ومخالطاً دائماً للطبقة الأرستقراطية العالية . ورفض بشدة الأفكار الديموقراطية والجمهورية وعارض أى تقييد للتجارة أو الاقتصاد وأى تدخل من جانب الحكومة فى الأعمال الخاصة . وتشكل كتابات باريتو محاولة طموحه ولكنها فاشلة لهدم وإدانة مبادىء فلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وتعتبر كتاباته المستفيضة هجوماً سافراً على النظريات الليبرالية ـ الديموقراطية والاشتراكية

---

(١) أطلق عليه هـــذا اللقب العالم الأمريكى وليليام ماكدوجال . أنظر فى ذلك :

Lewis Coser. Masters of Sociological Thought. (Harcourt Brace Jovanovich, inc. New York, 1977) p. 423.

والماركسية بصفة خاصة[1]. وعبر باريتو خلال حياته مرارا وتكراراً عن احتقاره لمفهومات التقدم والإنسانية والديموقراطية وأطلق عليها تسمية «الديانات العلمية» التي رأى أنها عديمة القيمة مثلها مثل الديانات الأخرى[2]. فالاشتراكية والديموقراطية والإنسانية والمسيحية كلها أفكار غيبية وغير منطقية ويستخدمها البعض فقط من أجل خداع الآخرين لتحقيق أغراضهم الخاصه. ومفهومات الوطنية والشرف والفضيلة لا أساس لها من الناحية الموضوعية ولا وجود لها وهي مجرد تعبيرات عن عواطف ذاتية.

وعداء باريتو للديمقراطية وللإنسانية والاشتراكية واتجاهه نحو الفاشية جاء بعد فترة من اعتناقه للمبادىء الإصلاحية وفي ذلك يقول زايتلين :

« عندما كان باريتو شاباً يعيش في فلورنسا كان يعارض العنف ويدعو إلى السلم Pacifist وإلى المبادىء الإنسانية وكان ليبراليا من ناحية النظرية الاقتصادية، ففي عام ١٨٩١ كتب يقول «: إن الحرب والسلم المسلح من أكثر ألوان الرفاهية تكلفة والتي تلجأ إليها الطبقة الحاكمة على حساب الأمة». وكان أيضاً يعارض الاستعمار فكان يرى أن تونكين تكلف فرنسا كثيرا كما أن تونس لا تفيد إيطاليا إلا من حيث أن الاحتفاظ بها يتيح بعض الوظائف الإدارية لأبنـــاء الطبقة البورجوازية. ولكن باريتو، لسبب غير معروف، اتخذ موقفاً معاكساً تماماً لذلك فيما بعد بحيث أصبح لا هم له سوى احتقار وكراهية الدعاوى الإنسانية وتصوير الطبقة المحكومة على أنها ضعيفه والصفوة الحاكمة على أنها رمز القوة.

---

(1) Irving M. Zeitlin. Idealogy and the Development of Sociological Theory (Prentice - Hall, Inc. New Jersey, 1968) p. 159.

(٢) نيقولا تيماشيف. النظرية في علـــم الإجتماع. مرجع سبق ذكره. ص ٢٦١

ويرى بوسكيه أنه على الرغم من هذا التغير فإن باريتو ظل عند رأيه عن شرور الحرب . ولكن هذا الرأى غير سليم لأن باريتو أخذ يتمدح استخدام الصفوة للقوة فى الصراع الطبقى وكذلك فى الصراع بين الدول . . . وعند نهاية القرن التاسع عشر أصبح باريتو من ألد أعداء الديموقراطية الإنسانية »[١] .

ويرى كوزر أن كراهية باريتو للأفكار اليسارية التى تصل إلى حد المرض قد صبغت كل كتاباته وأن فقدانه للثقة فى الإنسانية وهو استعداد شخصى لديه ، قد تزايد بشكل ملحوظ عندما عاد من رحلة إلى باريس ليجد أن زوجته قد فرت مع الطباخ الذى كان يعمل لديهما وحملت معها ثلاثين حقيبة بها ما كان يملك من أشياء ثمينة ، ومع ذلك لم يستطع أن يحصل على الطلاق منها لأن القانون الإيطالى لم يكن يبيح الطلاق[٢] .

وقد كانت هناك علاقة وثيقة بين باريتو وبين الفاشية فى إيطاليا ، بل بينه وبين موسولينى شخصياً . فبمجرد تولى الديكتاتور الإيطالى موسولينى للسلطة منحه باريتو كل تأييده ، كما أن موسولينى كافأه على هذا التأييد للديكتاتورية وللفاشية بأن منحه مقعدا فى مجلس الشيوخ الإيطالى وكرمه فى كثير من المناسبات كما دعاه للكتابة فى المجلة الفاشية Gerachia التى كان يشرف عليها شخصياً . وقد طبق موسولينى البرنامج الذى دعى إليه باريتو فقضى على الليبرالية وعلى الحركة العمالية وفى نفس الوقت اتبع سياسة اقتصادية تقوم على منح كل الحريات للمشروعات الرأسمالية وتقييد تدخل الحكومة فى الاقتصاد وكان موسولينى شديد الإعجاب بباريتو لدرجة أنه عندما كان فى منفاه فى سويسرا سجل اسمه لحضور مقررين من المقررات التى كان يدرسها باريتو فى لوزان .

---

(1) Irving M. Zeitlin. op. cit. pp. 161—162.
(2) Lewis Coser. op cit. p. 405.

وقد أعلن كثيرون من المتحدثين باسم الفاشية أن كتابات باريتو كانت من المصادر الأساسية لأيديولوجيتهم . وقد وصف موسوليني نظرية باريتو عن الصفوة بأنها « أعظم النظريات السوسيولوجية فى العصر الحديث »[١] .

وقد ظلت آراء باريتو مصدرا رئيسياً يلجأ إليه الفلاسفة ورجال السياسة وعلماء الاجتماع ليبرروا به آراءهم المحافظة وليواجهوا به الأفكار الاشتراكية . ويقرر ألفن جولدنر عالم الاجتماع الشهير أن أساتذة الجامعات الأمريكية عندما شعروا بخطر تغلغل الفكر الماركسى فى الجامعات الأمريكية فى الثلاثينات من هذا القرن لجأوا إلى علم الاجتماع الأوربى التقليدى ليستعينوا به فى مواجهة الأفكار الاشتراكية وكان من أهم مصادرهم كتابات باريتو ، فتكونت مجموعه من أساتذة جامعه هارفارد لهذا الغرض وأطلقت على نفسها مجموعه باريتو The Pareto Circle . وقد ضمت هذه المجموعه تولكوت بارسونز وجورج هومانز وكرين برينتون وهندرسون ، ونظمت حلقات دراسة Seminar عن باريتو بدأت فى خريف ١٩٣٢ وظلت تنعقد بانتظام حتى ١٩٣٤ وانضم إليها أيضاً روبرت مرتون وهنرى مورای وكلايد كلاكهون . وقد اتخذت مجموعة باريتو هذه موقفاً سياسياً يمنياً محافظاً متطرفاً لا يعارض الشيوعية فحسب ولكن تعارض أيضاً الاتجاهات الليبرالية الأمريكية المعتدلة . وكان من الواضح أن هذه المجموعة قد تكونت لأغراض سياسيه وكانت تبحث عن تبرير نظرى لهجومها على الماركسيه[٢] .

هذا هو موقف باريتو الأيديولوجى فكيف عبر عنه فى نظريته الاجتماعيه ؟

---

(1) Lewis A. Coser. op. cit. pp. 406—407.

(2) Qouted from : Barbara S. Heyl, "The Harvard Pareto Circle", Journal of the History of Behavioral Sciences, IV No. 41, 1968, pp. 316—334, by Alvin Gouldner. The Coming Crisis of Western Sociology. p. 149.

علم الاجتماع عند باريتو :

لم يكتب باريتو فى علم الاجتماع بصفة خاصة سوى مؤلف واحد هو « مقدمة عامة فى علم الاجتماع » وهو مؤلف ضخم من مليون كلمة نشر عام ١٩١٦ (أى عندما كان باريتو فى الثامنة والستين من عمره) باللغتين الفرنسية والإيطالية ولم يترجم إلى الإنجليزية إلا فى عام ١٩٣٥ حيث صدر بعنوان « العقل والمجتمع[١] » أما قبل ذلك فقد نشر مجموعة من المقالات فى السياسة والاقتصاد ، ونشر كتاباً بعنوان النظم الاشتراكية Les Systemes Socialistes عام ١٩٠٢ وكان عبارة عن تحليل نقدى للفكر الاشتراكى ولتدخل الحكومة فى الاقتصاد .

وقد أقام باريتو نظريته الاجتماعية على أسس وضعية أكثر تطرفاً من تلك التى أقام عليها كونت نظريته (الواقع أنه تأثر بكونت كثيراً على الرغم من عدم اعترافه بذلك) . ورأى أن علم الاجتماع لابد أن يصبح علماً تجريبياً منطقياً يعتمد على الملاحظة والتجربة إلى أقصى درجة بحيث يتجنب تماماً أى استنتاجات أو تأملات تخرج عن نطاق الوقائع التى يلاحظها . ولا يجب أن يحتوى علم الاجتماع على أى شىء سوى وصف الوقائع وكيفية انتظامها ولا يجب أن يسعى إلى البحث عن علاقات سببية أو إلى دراسة الظاهرات الفريدة أو إلى دراسة ظاهرات كيفية[٢] .

وهنا تبرز أولى المسلمات التى يرتكز عليهـــا فكر باريتو بأسره والتى تحمل إيديولوجيته فى نفس الوقت . فهو يسلم أن موضوع العلم هو الوقائع القائمة التى يجب أن يتخذ منها العالم موقفاً إيجابياً لا موقفاً نقدياً أو سالباً وهو يلغى بذلك تماماً الذات المفكرة عند العالم مثلما فعل كونت ويستبدل بها الذات المدركة . والوقائع

(1) Arthur levingston (ed) Mind and Society, 4 vols. (New-York : Harcourt Brace, 1935).

(2) Don Martindale. Nature and Types of Sociological Theory, Routledge and Kegan Paul. London. 1967. pp. 101—102.

التى يدرسها علم الاجتماع هى بالطبع وقائع النظام الاجتماعى القائم . كما أن باريتو بذلك إنما ينفى تماماً أهمية البعد التاريخى فى فهم الظاهرات الاجتماعية ويرى أن تفسير الماضى يجب أن يكون من خلال الحاضر ، لا العكس ، أى تفسير الحاضر على ضوء الماضى[1] .

ولكن أى وقائع تلك التى يجب أن يركز علم الاجتماع على دراستها والتى يعتبرها باريتو أساس الحياة الاجتماعية ؟ إنهـــا بالطبع ليست الوقائع المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية ــ الاقتصادية كما يرى غريمه ماركس ولكنها الوقائع السيكولوجية . فالقوة الأساسية فى المجتمع والتى تحدد كل السلوك الإنسانى فى رأى باريتو هى العاطفة sentiment . والعاطفة هى بمثابة غرائز أو ميول إنسانية فطرية ذات طبيعة ثابتة لا تتغير . ولذلك أطلق عليها تسمية الثوابت Constants . ولكن هذه العواطف لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ويمكن فقط الاستدلال عليها من خلال الأفعال التى يأتيها الأفراد actions ومن خلال التبريرات التى يقدمونها لهذه الأفعال فى صورة أفكار أو نظريات أو عقائد ويحاولون بها إضفاء الطابع المنطقى على أفعالهم غير المنطقية . وإذا كانت العواطف ثابتة لا تتغير فإن الأفعال والتبريرات التى يقدمها الناس لها تتخذ صوراً مختلفة . وعلى هذا فان المعتقدات والأيديولوجيات ليست سبباً فى السلوك الإنسانى ولكنها مجرد تبرير له أو محاولة لجعله يبدو منطقياً ، وكل العقائد والإيديولوجيات والنظريات (مثـــل الدين والاشتراكية والإنسانية والديموقراطية . . . الخ) ليست سوى أساطير يبتدعها الناس لتبرير أفعالهم الناجمة عن عواطفهم الثابتة ولا يمكن إثبات صدقها ويستخدمها الناس ليضفوا بها الاحترام

---

(١) نيقولا يناشيف . نظرية علم الإجتماع ص ٢٦٠ .

على أفعالهم غير المنطقية . وتختلف هذه الأساطير من آن لآخر وبين قوم وقوم آخرين ولكنها جميعها تشترك فى أنها تبرير لفعل واحد يعبر عن عاطفة واحدة . فالصينى والمسلم والكاثوليكى والكانتى والهيجلى والمادى جميعاً يمتنعون عن السرقة (فعل واحد) ولكن كلا منهم يبرر سلوكه تبريراً مختلفاً ، وهذا التبرير ليس السبب الحقيقى فى امتناعهم عن السرقة ولكن السبب الرئيسى يكمن لديهم جميعاً فى عاطفة إنسانية واحدة مشتركة هى عاطفة احترام الذات .

والعواطف أو الغرائز الإنسانية ذات الطابع الفطرى والبيولوجى ليست موضوع علم الاجتماع ولكنها موضوع دراسة علم النفس ، ويجب على علم الاجتماع أن يبدأ بالتسليم بها كحقائق ثابتة . ويرتبط بهذه العواطف ثلاث عناصر أساسية هى التى تشكل موضوع اهتمام علم الإجتماع هى :

(ا) الرواسب . (ب) والأفعال . (حـ) والمشتقات (*) .

(ا) الرواسب Residues وهى عبارة عن إتجاهات نفسية ثابتة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعواطف والغرائز وتقع فى مركز وسط بين العواطف والفعل الإنسانى وأسماها باريتو بالرواسب لأنها ثابتة وغير متغيرة . ودراسة هذه الرواسب تمكننا من التعمق فى أسباب الأفعال الإنسانية . ورأى باريتو أنه على مر تاريخ

(*) أعتمدنا فى عرضنا لافكار باريتو على المراجع الأساسية التالية .

(1) Don Martindale, Nature and Types of Sociological Theory.
(2) Raymond Aron. Main Currents in Sociological Thought.
(3) Irving Zeitlin : Ideology and Sociological Theory.
(4) Lewis Coser : Masters of Sociological Thought.
(5) Talcot Parsons, Vilfredo Pareto, in The International Encyclopedia of the Social Sciences.

وجميع هذه المراجع اعتمدت بصفة أساسية على مؤلف باريتو :

Treatise on General Sociology.

الغرب وجدت دائماً ست فئات من الرواسب التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بغرائز إنسانية أساسية معينة هى :

١ — غريزة الترابط Instinct for Combination وهى عبارة عن الميل إلى إقامة علاقات بين الأفكار والأشياء واستخلاص استنتاجات من مبادىء معينة والميل إلى التفسير . وهذه الغريزة هى التى جعلت الإنسان إنساناً وجعلت لديه أفعالا وتعبيرات ونظريات وتبريرات . وهذه الغريزة هى السبب فى التقدم الفكرى للإنسان وفى تطور الذكاء والحضارة . وحين تكثر هذه الفئة من الرواسب فى مجتمع ما فإنه يكون مجتمعاً متقدماً .

٢ — استمرارية الترابطات persistence of aggreagates ويعنى بذلك الميل الإنسانى إلى الحفاظ على الارتباطات التى أقامها الإنسان بين الأشياء والأفكار ورفض التغيير ، وهذا الميل الفطرى عكس غريزة الترابط السابق الحديث عنها . فبعد أن تتكون ارتباطات معينة بين الأشياء والأفكار تبدأ غريزة الاستمرارية عملها بدرجات مختلفة من القوة لكى تحول دون الفصل بين الأشياء التى تم الربط بينها . أى أنه إذا كانت الفئة الأولى من الرواسب (الترابط) تؤدى مهمة التغيير فإن هذه الفئة تؤدى مهمة الثبات فى المجتمع .

٣ — الحاجة إلى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية (التعبير عن الذات)
The need of expressing sentiments by external acts.
مثال ذلك اللجوء إلى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات المرح أو الغضب . . . الخ .

٤ — الرواسب التى ترتبط بغريزة تكوين مجتمعات والإنتماء إليها Sociability وترتبط هذه الفئة من الرواسب بالفئة الثانية الخاصة باستمرارية التجمعات . وتتصل اتصالا وثيقاً بالنظام discipline فى المجتمع . فجميع الناس لديهم ميل فطرى لتكوين

روابط أو تجمعات وخاصة الروابط الاختيارية . وهذه الروابط (مثل فريق قومى لكرة القدم أو حزب سياسى) تستثير عواطف تحافظ على استمرار بقائها .

كما أن جميع الناس لديهم ميل إلى الوحدة فى الشعور والتفكير need for uniformity يجعلهم يعاقبون من يخرج على هذه الوحدة . وهذا الميل إلى الوحدة فى الشعور والتفكير يوجد حتى لدى من يدعون إلى حرية العقيدة . ويعبر هذا الراسب عن نفسه فى أسلوب الملبس والتصرفات المختلفة الموحدة وترتبط به عواطف مثل الشفقة pity والقسوة cruelty والخوف المرضى من الجديد Neophobia .

٥ — راسب تكامل الشخصية Integrity of personality ويشير إلى الدافع نحو المحافظة على الذات وحمايتها من أى شىء يمكن أن يصيبها بالاضطراب . وهذا الراسب هو الذى يجعلنا نقاوم أى هجوم على ذاتنا أو على المجموعة التى ننتمى إليها أو على المركز الاجتماعى الذى نحتله أو على المجتمع الذى نعيش فيه .

٦ — راسب الجنس The sex residue وهو غريزة أساسية عند الإنسان وتهم عالم الاجتماع فقط من حيث ارتباطها بالفلسفات أو الديانات التى تدعو إلى الفضيلة الجنسية Virtuist religions .

(ب) الأفعال actions

هى تلك التصرفات الظاهرة والملموسة concrete التى يمكننا ملاحظتها . وهذه الأفعال إما منطقية logical أو غير منطقية non-logical وقد سلم باريتو منذ البداية أن غالبية أفعال الإنسان غير منطقية . وقد عرف باريتو الأفعال المنطقية بأنها « تلك التى تستخدم أساليباً مناسبة لأهدافها والتى تربط بين الأساليب والأهداف ربطاً منطقياً » . وهذا النوع من الأفعال لا يتوفر إلا فى المجال العلمى والإقتصادى أما ما عدا ذلك من المجالات فالغلبة للأفعال غير المنطقية ، فالإنسان بطبعه لا عقلانى

وتحركه قوى غير منطقية . والأفعال غير المنطقية تنجم أساساً عن حالات سيكولوجية وعواطف ومشاعر لا شعورية ، ووظيفة علم النفس هي بحث هذه الحالات ووظيفة علم الاجتماع هي وصف الأفعال غير المنطقية وتصنيفها وربطها بالعواطف أو بالرواسب الثابتة المؤدية إليها وبالتبريرات الفكرية التي يقدمها الإنسان لأفعاله غير المنطقية هذه . وليس من وظيفة علم الاجتماع دراسة الأفعال المنطقية . وعلى ذلك فحين يقرر باريتو أن هدف علم الاجتماع هو دراسة المجتمع الإنساني بوجه عام وتقديم نظرية عامة عن المجتمع فإنه يعني دراسة السلوك أو الفعل غير المنطقي ودوافعه وتبريراته وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية .

(ح) المشتقات derivations

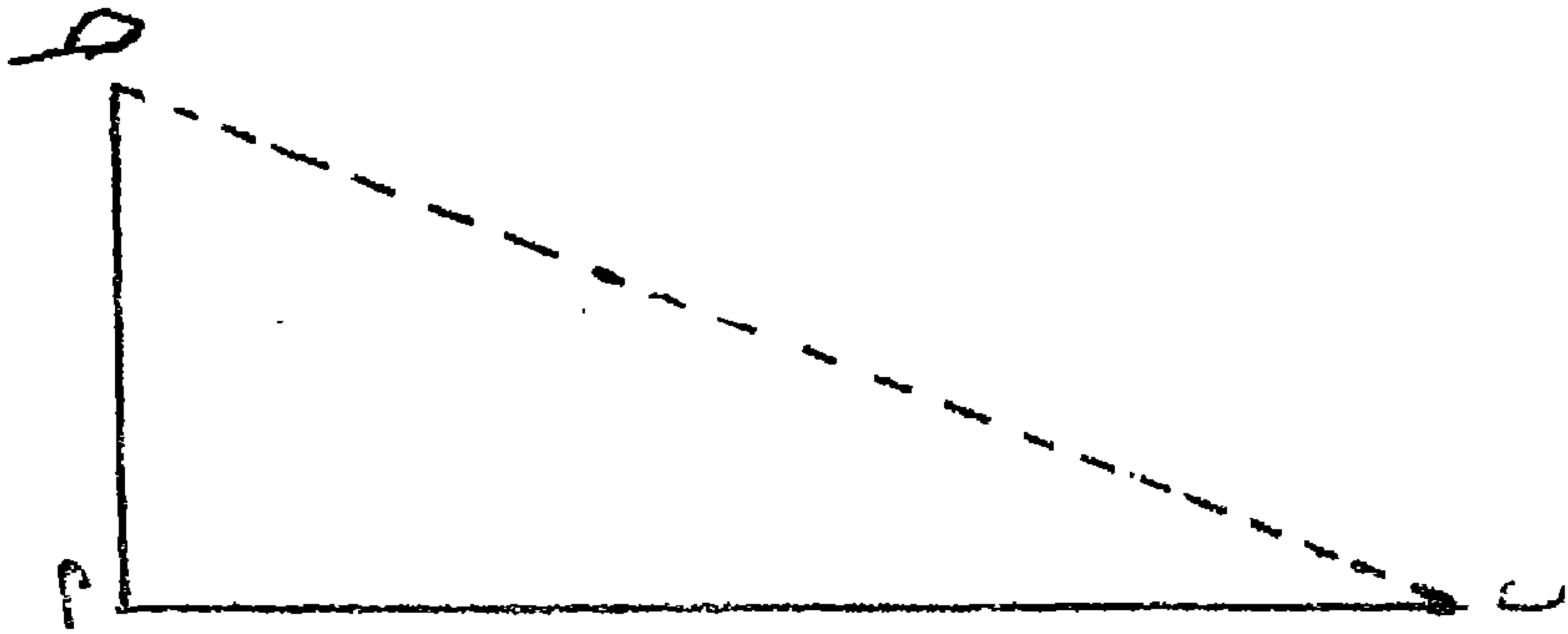
إذا كان السلوك الإنساني في معظمه سلوك غير منطقي وغير عقلاني تحركه قوى ثابتة ذات طابع بيولوجي وفطري هي الغرائز أو العواطف التي ترتبط بها الرواسب الست التي ذكرها باريتو فإن هناك تبريرات فكرية غير ثابتة ومتغيرة يلجأ إليها الإنسان ليكسب أفعاله غير المنطقية الصفة المنطقية وهذه التبريرات تتمثل في الأديان والعقائد والأيديولوجيات والنظريات غير العلمية والقيم والمثل العليا . ويرى باريتو أنه من الخطأ أن نعتبر هذه الأشياء الأسطورية سبباً في السلوك الإنساني لأن الأسباب الحقيقية للسلوك تكمن في العواطف والرواسب . مثال ذلك أن لدى الإنسان رعباً حقيقياً من القتل وتلك عاطفة أو غريزة ثابتة لديه ولذلك فإنه لا يقتل ، ومع هذا فإنه يبرر عدم ارتكابه للقتل بأن يقول لنفسه « إن الآلهة تعاقب القتلة » ويتصور أن هذا هو السبب الذي يجعله يمتنع عن القتل . ومثل هذا القول ليس إلا تبريراً لفعله غير المنطقي الذي تدفعه إليه غريزة أو عاطفة ثابتة لديه . ويختلف هذا التبرير من آن لآخر ومن مجتمع لآخر بينما العاطفة التي تجعل الإنسان عاجزاً عن القتل ثابتة . ولذلك أسمى باريتو مثل هذه التبريرات بالمشتقات لأنها متغيرة وغير ثابتة . فالآلهة التي

يتوهم الإنسان أنها تحرم القتل مختلفة ، فقد تكون فى المسيحية أو فى الأيديولوجية الإنسانية أو فى الماركسية ... الخ . وعلى ذلك لا يجب علينا أن نصدق أو نثق فى أى نظريات أو أيديولوجيات أو عقائد لأنها ليست سوى تبريرات لأفعال غير منطقية الدافع إليها عواطف وغرائز إنسانية ثابتة ، ويضرب باريتو المثال التالى فى مؤلفه الضخم « مقدمة عامة فى علم الإجتماع » :

« إن السياسى الذى يروج لنظرية التماسك الاجتماعى إنما يفعل ذلك فى الحقيقة لتحقيق رغبة أساسية لديه للحصول على المال أو القوة أو الامتيازات . . . ولكنه إذا قال للناس : آمنوا بالتماسك لأنكم إذا فعلتم فإن ذلك سيعنى حصولى على المال ، فإنه سوف يكون مثاراً لضحك الناس ولن يحصل على أصوات تذكر . ولهذا فإنه لا بد أن يغلف أطماعه بمبادىء يقبلها الناخبون . . . وعادة ما يلجأ الشخص الذى يريد استمالة الآخرين إلى إستمالة نفسه أولا ، وحتى إذا كان الذى يحركه فى البداية أفكار متعلقة بمصالح شخصية فإنه يصل فى نهاية الأمر إلى الاعتقاد بأن اهتمامه الحقيق إنما هو بمصالح الآخرين ورفاهيتهم » .

ويصنف باريتو المشتقات (أى الأساليب التى يلجأ إليها الناس ليخفوا بها حقيقة أفعالهم ويبرروها) إلى عدة فئات هى : (١) مجرد التأكيد simple affirmation — أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة ؛ (٢) اللجوء للسلطة authority أى التفسير الكاذب للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضى والتقاليد والعادات أو الإرادة الإلهية ، (٣) الاتفاق مع العواطف أو المبادىء accord with sentiments or principles — وهى المشتقات التى تحاول تبرير الأفعال غير المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين ، (٤) البراهين اللفظية Verbal proofs — والتى تعنى استخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق ، واستخدام التشبيه والبلاغة .

وقد رأى باريتو أن هذه المشتقات ليست سوى أسباباً كاذبة يقدمها الناس لسلوكهم . فالحقيقة فى رأيه أن الناس لا يقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعاً لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ولكن العكس هو الصحيح فالناس يتصرفون أولا ثم يبحثون عن أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم . وليست هناك علاقة سببية بين الفكر التبريرى (المشتقات) والفعل action فكلاهما نتاج لغرائز أو عواطف أساسية ثابتة هى الرواسب residues . ويرمز باريتو للعاطفة الإنسانية ، وهى المصدر الأساسى للفعل غير المنطقى بالرمز ا والنظريات التى يفسر الناس بها سلوكهم (المشتقات) بالرمز ب والفعل بالرمز جـ ويقدم الرسم التالى لتوضيح العلاقة بين هذه العناصر الأساسية الثلاثة :



ويقصد باريتو القول بأنه على الرغم من أن هناك علاقة اعتمادية متبادلة بين ا ، ب ، جـ (أى بين العواطف أو الرواسب والفعل والمشتقات) إلا أن ا تؤثر بشكل مستقل على كل من ب ، جـ (أى أن العواطف هى السبب المباشر لكل من الفعل والمشتقات) أكثر من تأثير ب (أى المشتقات) على جـ (أى الفعل) .

وقد أفرد باريتو جزءا كبيرا من مجلده (مقدمة عامة فى علم الاجتماع) لتحليل ما أسماه بالديانات العلمية أى كل فلسفة عصر التنوير وخاصة النظريات الاشتراكية بوصفها أساطير لتبرير أفعال غير منطقية أى بوصفها مشتقات .

هذه هى عناصر التحليل الأساسية فى نظرية باريتو : الرواسب والمشتقات والفعل . وقد استخدم باريتو هذه العناصر فى تحليل المجتمع الإنسانى ونظمه المختلفة .

ويتضح من عرضنا لهذه العناصر أن باريتو قد استند إلى المسلمات الآتيه :

(١) أن أساس الواقع الاجتماعى سيكولوجى وفطرى وبيولوجى (الغرائز والعواطف والرواسب) .

(ب) أن هذا الأساس السيكولوجى ثابت وأبدى وأن هناك فروقاً ثابته بين الناس وبعضهم البعض سواء بوصفهم أفرادا فى مجتمع واحد أو بوصفهم مجتمعات مختلفه ، فكل من الناس يولد مزودا بدرجة معينة من كل الرواسب الست التى تحدث عنها وحظه من هذه الرواسب هو الذى يحدد مصيره .

(ﺟ) أن الإنسان غير عقلانى وغير منطقى بطبعه .

(ء) أن الفكر فى المجتمع نتاج للغرائز وليس سوى تبريرا لها .

وهذه المسلمات التى يقيم عليها باريتو نظريته لا تنهض عليها أى أدلة امبيريقية ، بل إن الادلة تنفيها فى الحقيقه . وما حاول باريتو أن يقدمه كأدلة على صدقها ليس سوى ، على حد تعبير زايتلين ، أمثلة انتقاها بطريقه عمديه من التاريخ ولا تزيد عن محاولة من جانبه لإيضاح فكرته illustration . وهـــذه المسلمات ذات طبيعه ميتافيزيقيه وتتنافى تماماً مع ما ادعاه باريتو من صفه علمية[1] .

ويؤكد كوزر أن هذه المسلمات التى استند عليها باريتو قد ساعدته فى تبرير أيديولوجيته وموقفه السياسى الذى طغى على كل كتاباته . وقد استخدم باريتو هذه المسلمات فى تفسير الحركات الاجتماعية التى يعارضها وفى تفسير التغير الاجتماعى وديناميات التاريخ[2] .

---

(1) Zeitlin. op. cit. p. 160.

(2) Cosez. op. cit. pp. 393.

النسق الإجتماعى عنـد باريتـو : Social System

بعد أن قدم باريتو تصوره عن الإنسان ، ذلك المخلوق الغريب والقوى الخفية الفطرية التى تحركه (الغرائز) وما يرتبط بها من "رواسب" و"التبريرات" التى يخترعها ليبرر بها سلوكه "غير المنطقى (المشتقات)" انطلق "ليشرح" لنا كيف يسير المجتمع ويؤدى وظائفه بناء على تصوره ذلك عن أساس الحياة الاجتماعية .

رأى باريتو أن المجتمع يمثل نسقا System مثل النسق الفيزيقى ـ الكيميائى ، أى أنه عبارة عن كل يتكون من أجزاء أو عناصر يعتمد كل منها على الآخر بحيث أن أى تغير فى أحد هذه الأجزاء يؤدى إلى تغيرات تكيفية فى بقية الأجزاء . وعناصر النسق الاجتماعى فى رأى باريتو هى الأفـــراد ومصالحهم ودوافعهم وعواطفهم والذى يحدد شكل النسق الاجتماعى فى أى وقت عناصره الداخلية أى الرواسب والمشتقات التى ترتبط بالغرائز أو العواطف. ولكن هناك ظروف أخرى تؤثر على النسق الاجتماعى وتخرج عن نطاق المجتمع مثـل البيئة الطبيعية والمجتمعات الأخرى ، ولكن تأثير هذه الظروف ليس بمثل قوة تأثير العناصر الداخلية

إن ثبات المجتمع أو تغيره أو فنائه يعتمد بصفة أساسية على نوعية الرواسب التى تسود فيه . وهذه الرواسب ثابته ولكن الأهمية النسبية لكل منها بالنسبة لمجتمع ما تتغير تغيراً طفيفاً على مر الزمن . وأهم شيء مسئول عن التغير التاريخى هو التغير فى القوة النسبية لكل من الرواسب من الفئة الأولى (أى غريزة التكامل) ومن الفئة الثانية (أى رواسب استمرارية التجمعات) والتغير فى هاتين الفئتين من الرواسب قد يحدث بفعل تغيرات فى البيئة الطبيعية تؤدى إلى نوع من التكيف

فى الغرائز الأساسية وبعض التعديل فيها . والرواسب هى التى تحدد مصير الناس والدول . وهذه الرواسب ليست موزعة بالتساوى بين الافراد أو بين الطبقات الاجتماعية أو بين المجتمعات . فهناك أفراد يتمتعون برواسب قوية من الفئة الأولى (غريزة التكامل) وآخرون يتمتعون برواسب قوية من الفئة الثانية (إستمرارية التجمعات) ، كما أن هناك مجتمعات بأسرها يسود فيها هذا النوع أو ذاك من الرواسب . ويرتبط التفوق لدى الأفراد والجماعات فى المجتمع الواحد أو فى المجتمع بصفة عامة بقوة الرواسب من الفئتين الأولى والثانية ويرتبط التخلف والتبعية بضعف هذه الرواسب .

التمايز الاجتماعى والصفوة :

لابد أن يكون بالمجتمع تمايز اجتماعى نظراً للتمايز بين الأفراد والمجموعات فيما لديهم من غرائز فطرية بيولوجية يترتب عليه تمايز فى القوى العقلية والأخلاقية والفيزيقية والشخصية والذكاء والمهارة والقدرات . وعلى هذا فإن المجتمع ينقسم إلى فئتين أو طبقتين من الأفراد: المتفوقون وغير المتفوقين (وهم الغالبية العظمى) وقد أطلق على الفئة الأولى اسم الصفوة élite وتضم هذه الفئة من لديهم الاستعدادات الفطرية للتفوق أى من تكون لديهم الرواسب من الفئة الأولى والثانية قوية إلى حد كبير. وهذه الصفوة تتفوق فى جميع المجالات: فى مجال الدعارة أو السرقة أو القانون أو الطب ، وهى الفئة المؤهلة لحكم بقية الناس فى المجتمع . وتنقسم الصفوة إلى قسمين : الصفوة الحاكمة governing élite أى أولئك الذين يلعبون دورا هاماً فى الحكم والصفوة غير الحاكمة Non-governing élie . وهذين القسمين يشكلان سوياً الطبقة العليا فى المجتمع . أما الطبقة الدنيا أو اللاصفوة Non-élite فليست موضوع إهتمام باريتو لأن تأثيرهم السياسى فى المجتمع يكون منعدماً تماماً لأن

الرواسب من الفئتين الأولى والثانية لديهم ضعيفة ولا يمكن أن يصلوا أبداً إلى الحكم ولابد أن يظلوا محكومين وخاضعين للصفوة بقسميها .

وهكذا نرى أن التنظيم السياسي للمجتمع في رأى باريتو يعتمد على كيفية توزيع الرواسب التي ترتبط بالغرائز أو العواطف الفطرية بين الناس في المجتمع ليس هذا فحسب ولكن هذه الغرائز تحدد أيضاً الحياة الفكرية في المجتمع وأنساق المعتقدات والأهم من ذلك الحالة الاقتصادية للمجتمع . ويرتبط كل ذلك بالطبع بمسلمة باريتو عن طبيعه الحياة الاجتماعية وأساسها . ونلاحظ هنا أن المتغير الرئيسي الذي يحدد كل ماعداه من متغيرات المجتمع هو المتغير البيولوجي الوراثي الثابت . وقد لاحظ كثير من علماء الاجتماع الصلة الوثيقة بين باريتو وبين النازية والعنصرية والفاشية من حيث اعتمادهم جميعاً على نفس هذه المسلمة التي تهدمها كل الأدلة العلمية ومن حيث محاولتهم جميعاً إضفاء صفة العلمية على إدعاءاتهم الكاذبة ذات الأغراض الاستغلالية والسياسية الصارخة .

دورة الصفوة والتغير الإجتماعي :

ميز باريتو داخل الصفوة بين نوعين فقرر أن هناك نمطاً أسماه المضارب (1) speculator وهو الذي تغلب لديه رواسب الفئة الأولى (غريزة التكامل) (ويشبه الثعلب

(١) ظهرت في بعض الترجمات العربية ترجمة لكلمة speculator بالمفكر هذه الترجمة لا تدل على المعنى الذي يقصده باريتو ولا تتفق مع السياق ، فالذي يعنيه باريتو الشخص المغامر الذي يشترك في المضاربات التجارية ويستثمر أمواله في أي مشاريع جديدة دون خوف أو الذي يضارب في المجال السياسي وهو على طرف النقيض من النمط الآخر الذي أسماه باريتو Rentier ويعني به الشخص غير المغامر الذي يتبع التقاليد ويختار الأسلوب الأكثر أماناً سواء في المجال الاقتصادي أو المجال السياسي وهو شخص محافظ .

كما يسميه ميكيافيللى) ونمطاً آخر أسماه المحافظ rentier (ويشبه الأسد كما يسميه ميكيا فيللى) وتغلب لديه رواسب الفئة الثانية (إستمرارية التجمعات) والنمط الأول (المضارب) لديه استعداد فطرى للحركة على المستوى الاقتصادى ، فهو يستطيع الدخول فى مشروعات مالية كبيرة وأن ينشىء ويدمج الشركات ويعيد الدمج بينها ، وكذلك على المستوى السياسى حيث يستطيع أن يعقد الاتفاقيات السياسية وأن يكون قوى سياسية ويمزج بينها وأن يشيد إمبراطوريات سياسية . والأشخاص الذين ينتمون إلى هذا النمط قادرون على الابتكار وعلى تجربة الجديد وعلى الخروج على المألوف ، ولكنهم لا يدينون بالولاء لأى مبادىء أو فضائل .

وأما النمط الثانى ، أى المحافظ فإنه يمثل القوى المحافظة اجتماعياً . والأشخاص الذين ينتمون إليه لديهم مشاعر قوية بالولاء للأسرة والقبيلة والمدينة والأمة وتظهر لديهم النزعات الوطنية والدينية ولا يهابون إستخدام القوة والعنف عندما يجدون ضرورة لذلك .

وحين يسود النمط الأول (الثعلب ـ والمغامر) فى الصفوة الحاكمة فإن المجتمع يمر بتغير سريع نسبياً ، بينما يكون التغير بطيئاً حين يسود النمط الثانى (الأسد ـ المحافظ) فى الصفوة الحاكمة . ورأى باريتو أن هناك دورة للصفوة على مر التاريخ حيث يسود النمط الأول ويتولى الحكم فى فترة ما فيحدثون تغيراً فى المجتمع حتى يأتى الوقت الذى تصبح سيطرتهم على الحكم مهددة لتوازن المجتمع ويصابون أيضاً بالضعف فيهجم عليهم الأسود المحافظون ويستولون على الحكم ويحققون الثبات والاستقرار مرة أخرى ، ولكن بعد فترة من الزمن يبدأ الثعالب المغامرون فى التغلغل فى الحكومة نظراً لما يتمتعون به من مهارات وكفاءات ثم يستولون على الحكم . وبذلك فإن التاريخ يكرر نفسه دائماً بحيث يشهد المجتمع نفس الدورة التى يحل فيها نمط المغامرين محل نمط المحافظين وهكذا .

وهذ التحول الدورى المستمر يرتبط دائماً بالتوازن فى النسق الإجتماعى . وليس هناك جديد فى التاريخ وكل إعتقاد فى التقدم أو التطور ليس إلا خزعبلات .

وقد حاول باريتو أن يقدم أمثلة من التاريخ القديم لإثبات صحة وجهة نظره ، ولكن أمثلته كانت مليئة بالمغالطات ولا تشكل دليلا منطقياً يمكن الاعتماد عليه .

وقد أفصح باريتو عن الإجراءات العملية لنظريته فى مجلده الضخم عن علم الاجتماع حيث قدم نصائح صريحة للطبقة الحاكمة تمكنها من السيطرة على الناس فى المجتمع[٦]. فهو يقول مثلا فى المجلد الثالث من الكتاب : من صالح المجتمع أن يقبل كل الأفراد الذين لا ينتمون للطبقة الحاكمة بتلقائية الأوضـــاع القائمة فى المجتمع وأن يحترموها ويحبوها وألا يخرجوا عليها . ولنصح الصفوة بأن تستغل مشاعر الجماهير الجاهلة التى تعجز دائماً عن أن تتعلم ، ويجب على هذه الصفوة أن تستغل إلى أقصى درجة الخرافات التى تسود بين الجماهير الجاهلة ولكن يجب عليها فى نفس الوقت ألا تصدق هذه الخرافات وأن تجعل منها هدفاً تسعى إلى تحقيقه (مثل الدين أو العدالة أو الحرية الخ) لأنها إذا فعلت ذلك فسوف يكون فى ذلك دمارها ، بل يجب أن تستخدمها فقط فى إستمالة الناس أى أن تجعلها وسيلة لاغاية (يلاحظ هنا تطابق آراء باريتو مع أراء ميكيافيللى) .

ولكن على الصفوة الحاكمة أن تحول دون إدراك الجماهير لذلك . وهنا يكشف باريتو بنفسه زيف ادعائه بأن تفوق الصفوة وغباء الجماهير شىء أبدى . فهو قد حذر من إمكانية إدراك الجماهير لتضليل الصفوة الحاكمة لها ، وذلك يعنى أن هذه الجماهير قادرة على التعلم وعلى التفوق ولكن يجب على الصفوة الحاكمة أن تحافظ بكل الوسائل على جهل الجماهير وتخلفهم حتى تضمن دوام الحكم لهـا .

كذلك دعى باريتو الصفوة الحاكمة إلى استخدام القوة والعنف كلما لزم الأمر

وقرر أن عدم القدرة على استخدام العنف ليس فضيلة ولكنه من قبيل الضعف. وقد جاءت الفاشية ترجمة عملية لآراء باريتو النظرية التى أثبت العلم زيفها كما أثبتت الشعوب أن مسلماته ليست سوى خرافات أريد بها تضليل الناس وقدمت هزيمة الفاشية دليلا ملموساً على فساد نصائح باريتو وما ألحقته بالبشرية من دمار .

ومع ذلك فإن آراء باريتو مازالت مصدراً تلجأ إليه الرجعية المعاصرة لتستمد منه مبررات لفكرها ، وسوف نلاحظ أن كتابات بعض علماء الاجتماع المعاصرين تحتوى على مسلمات باريتو عن الإنسان والمجتمع والتوازن الاجتماعى والصفوة .

الفصل الثامن

كارل ماركس والمادية التاريخية

موقف ماركس الأيديولوجى :

أعلن كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) تحيزه الأيديولوجى بوضوح منذ البداية ، كما أنه بدلا من أن يحاول إخفاء الصلة بين موقفه الأيديولوجى وبين إتجاهه الفلسفى النظرى عمل على أن يؤكد هذه الصلة ويبرزها بشكل صريح . ولم تنفصل مجهودات ماركس السياسية عن مجهوداته العلمية النظرية بل إنه كان هناك دائماً تلاحما بين الإثنين لدرجة أن « تاريخه الشخصى الذى يمكن اعتباره حتى عام ١٨٤٥ (أى حين كان فى السابعة والعشرين من عمره) سلسلة من الحلقات فى تاريخ فرد أصبح منذ هذا الوقت لا ينفصل عن التاريخ العام للاشتراكية فى أوربا »[1].

فقد أصبح ماركس ثوريا محترفا ، يكتب ويحاضر ويتآمر من أجل تحقيق الثورة على النظام الرأسمالى التى كان يعتقد أنها آتية لاريب فى ذلك .

وقد عبر ماركس عن إتجاهه الأيديولوجى منذ أن كان صبيا فى مرحلة المراهقه . فقد كتب مقالا قصيراً عندما كان فى السنة النهائية بالمدرسة الثانوية عنوانه « تأملات شاب عن اختيار مهنته » عبر فيه عن مبدأ ظل يسترشد به طوال حياته السياسية والفكرية حيث قال :

---

(1) Quated by Lewis Coser in:Masters of Sociological Thought. (Horcourt Brace Jouvanovich, Inc. New York 1977) P. 62 from Berline, J, Karl Marx, His lif and Envioronment (New York, Oxford, 1948. P, 146.

« إن المبدأ الذى يجب أن نسترشد به فى إختيارنا لمهنتنا يجب أن يكون رفاهية الإنسانية، وكمال أنفسنا . ولا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن هاتين المصلحتين تتعارضان مع بعضهما البعض أو أن إحداهما يمكن أن تقضى على الأخرى . فالواقع أن طبيعة الإنسان تمكنه من تحقيق كمال ذاته من خلال العمل على تحقيق كمال ورفاهية مجتمعه . والتاريخ يسمى أولئك الأشخاص الذين يعملون من أجل الإنسانية أعظم الرجال الذين اكتسبوا صفات النبل من خلال جهودهم فى سبيل الإنسانيه »[1] .

وفى عام ١٨٤٣ كتب ماركس سلسلة من المقالات السياسية فى مجلة Rheinische Zeitung الألمانية عن الظروف الاجتماعية وتناول فى هذه المقالات وصف بؤس الفلاحين الذين يزرعون الكروم فى Moselle والمعاملة القاسية التى كان يلقاها الفقراء لسرقة بعض الأخشاب من الغابات التى كانوا يعتقدون أنها ملكية عامة لهم فيها بعض الحقوق .[٢] كما هاجم ماركس الحكومة الروسية الرجعية فى مقالاته مما أدى بإمبراطور روسيا فى ذلك الوقت إلى الاتصال بالسفير البروسى شاكيا ماركس وكان من جراء ذلك إغلاق المجلة التى يكتب فيها ماركس فهاجر إلى باريس حيث طردته الحكومة الفرنسية من فرنسا عام ١٨٤٥ بناء على شكوى الحكومة

---

(1) Quoted by: Anthony Giddens in Capitalism and Modern Social Theory (Cambridge University Press. London. 1971) p. 1 from Loyd D, Easton and Kurt Guddat : Writings of the Young Marx on Philosophy and Society, New York, 1967. pp. 40—50.

(٢) اعتمدنا فى هذا الجزء على المعلومات التى أوردها كوزر فى كتابة السابق الإشارة إليه .

البروسية لمهاجمته لها فى سلسلة من مقالاته فهاجر إلى بروكسل حيث اتصل بالمنظمات الاشتراكية وبخاصـــة الرابطة التربوية للعمال الألمان German Workers Educational Association والمنظمة الشيوعية The Communist League وفى عام ١٨٤٧ كتب ماركس بناء على تكليف من هذه المنظمة وثيقة تشرح أهدافها ومتعقداتها وهى التى عرفت باسم البيان الشيوعى The Communist Manifesto وكانت أول جمـــلة فى هذا البيان « إن تاريخ كل المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقى » تمثل أهم الجوانب التى ميزت فكر كارل ماركس . وفى عام ١٨٤٨ إتجه ماركس إلى ألمانيا بعد قيام الثورة فيها حيث رأس تحرير مجـــلة راديكالية جديدة تهاجم الرجعية والرأسمالية وتدافع عن حقوق الطبقة العاملة وبعد فشل الثورة عاد إلى باريس ثم استقر به المقام فى لندن منذ عام ١٨٤٩ حتى نهاية حياته حيث أصبح رئيساً للجمعية العمومية الدولية The International التى تكونت عام ١٨٦٣ وهى إتحاد دولى للعمال كان يهدف إلى وضع نهاية للنظام الاقتصادى الرأسمالى واستبداله بنظام آخر يقوم على الملكية العامة . وخلال هذا النشاط السياسى كان ماركس يعمل فى مؤلفاته التى تعكس هذا النشاط وتدعمه فى نفس الوقت .

وهكذا نرى أنه فى مقابل إنحياز كونت ودوركايم وفيبر وبارتيو للطبقة العليا (البورجوازية) وتسخيرهم نظرياتهم لتبرير النظام الرأسمـــالى والدفاع عن البورجوازية إنحاز كارل ماركس للطبقة العاملة وسخر نفسه ونظريته كما سنرى للدفاع عن هذه الطبقة ونقد ومهاجمة النظام الرأسمالى من أجل الإطاحة به وإحلال النظام الاشتراكى محله . ومثلما كانت نقطة إنطلاق كونت لتحقيق هدفه هى رفض فلسفة التنوير النقدية والسلبية على إعتبار أنها حققت هدفها بقيام الثورة البورجوازية والنظام الرأسمالى الصناعى وتبنى بدلا منها الفلسفة الوضعية الإيجابية كانت نقطة

إنطلاق ماركس من فلسفة التنوير النقدية السلبية ولكنه قام بتطويرها على أسس مادية أولا مثالية .

ويرى بعض علماء الإجتماع أن علم الاجتماع الأكاديمى الغربى بأسره قد نشأ تحت تأثير ماركس وأنه ليس سوى سلاحا إيديولوجيا للبورجوازيه لمواجهة الماركسية كسلاح إيديولوجى للاشتراكية ، ويذهب عالم الاجتماع الأمريكى زايتلين إلى حد اعتبار أن أعمال فيبر وباريتو وموسكا وميشيلز ودوركايم ومانهايم حوارا مع شبح ماركس[1] .

من أجل ذلك سنعرض للنظرية الاجتماعية عند ماركس بتفصيل أكثر مما سيجعل نظريته تشغل حيزاً كبيراً نسبياً إذا قورن بكل من العلماء الكلاسيكيين الاخرين على حدة ولكنه يشغل حيزاً أقل منهم مجتمعين .

المادية التاريخية

HISTORIAL MATERCILISM

تتكون الماركسية من شقين متكاملين. المادية الجدلية Dialectical Mcterialism والمادية التاريخية Historical Materialism والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود . وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعى أو الفكر . فالوجود هو الأولى والوعى هو الثانوى ، وهى تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانية فهمه ومعرفته — كما أنها تدرس هذا العالم المادى

---

(١) أنظر Zeitlin ، (مرجع سابق) حيث نجد أنه فى تقسيمة لأبواب كتابه يضع فيبر وباريتو وموسكا ومشيلز ودوركايم ومانهايم فى باب عنوانه الحوار مع شبح ماركس The Debate with the Ghost of Marx.

بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو ديالكتيكى . وتكشف المادية الجدلية عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع . فكل الموضوعات الحية وغير الحية وكذلك ظاهرات الحياة الاجتماعية والوعى تتطور على أساس قوانين الجدل الأساسية: وحدة وصراع الأضداد ، وقانون التحول الكمى إلى تغير كيفى وقانون نفى النفى ، كما تدرس المادية الجدلية أيضاً القوانين التى تحكم المعرفة congnition بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى(١) .

أما المادية التاريخية فهى علم القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع وتكشف الطبيعة المادية الجدلية لتطور الحياة الاجتماعية . وهى عبارة عن تطبيق القوانين العامة للماديه الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية .

الأسس المنهجية للمادية التاريخية :

تسلم الماديه التاريخية بأن القوانين العامه التى تحكم تطور المجتمع قوانين موضوعية ، أى أنها مستقلة عن وعى الإنسان تماماً مثل قوانين الطبيعة وهى أيضاً قابلة للمعرفة ويمكن للإنسان أن يستفيد منها فى نشاطه العملى . إلا أن هناك مع ذلك فروقا جوهرية بين قوانين الحياة الاجتماعية وقوانين الطبيعة . فقوانين الطبيعة تصور عمل قوى تلقائيه غير واعيه ، بينما تصور قوانين التطور الاجتماعى أفعال كائنات إنسانية ذكية تحدد لنفسها أهدافاً محددة وتعمل من أجل تحقيقها.

---

(1) V. Afanasyv : Marxist Philosophy (Progress Publishers, Moscow, 1968)

وقد رفض كارل ماركس النظر إلى المجتمع على أنه مجرد تجمع آلى للأفراد وعلى أنه يظهر ويتغير بطريقة عرضية ورأى أن التطور الاجتماعى إنما هو عملية تحكمها قوانين معينة وأن مهمة العلم الاجتماعى الكشف عن القوانين الأساسية للتاريخ الاجتماعى وإنتقد ماركس الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يتحدثون عن المجتمع بطريقة عامة ومجردة لفشلهم فى تقديم تعريف علمى له وفى تحليلهم لمراحل تطوره وأرجع هذا الفشل لعدم قدرتهم على إدراك أساس الحياة الاجتماعية بشكل سليم وعدم قدرتهم على التمييز بين ما هو أساسى وما هو ثانوى فى المجتمع . والمادية التاريخية (أو علم الاجتماع الماركسى) تهدف إلى تحقيق فهم علمى للمجتمع على الأسس المنهجية التالية(١)

١ — عدم الاقتصار على وصف الظاهرات الاجتماعية وتجاوز ذلك إلى تقديم تحليل علمى لها .

٢ — إستخلاص الخصائص المشتركة فى مختلف المجتمعات التى تنتمى إلى نفس المرحلة من التطور التاريخى .

٣ — التمييز بين القوانين الاجتماعية العامة general Sociologial laws التى تحكم عدداً من التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية وبين القوانين النوعية specific laws التى تحكم كل تكوين اقتصادى اجتماعى على حدة ، والتى تحكم ظاهرات اجتماعية معينة (مثل اللغة) .

مفهوم كارل ماركس عن الإنسان وطبيعة الحياة الاجتماعية :

رأى ماركس ، على عكس كونت ، أن الإنسان متطور دائماً وأن قدراته

---

(1) Chesnokov, D. I. : Historical Materialism (Progress Publisherys Moscow, 1969) pp. 15 — 16.

الكامنة والممكنة غير محددة من حيث إمكانية تطورها، وإذا كان الإنسان الآن لا يزيد عن كونه وحشاً عاملا فإن ذلك ليس أمراً حتمياً ذلك أنه بمكنه أن يحقق أعلى صورة من الكمال فى الخلق والإبداع والفكر والفعل. والإنسان خالق ظروفه وهو نتاج لها فى نفس الوقت[1] ورأى ماركس ضرورة التفرقة بين الحالة الراهنة للإنسان وبين ما يمكن أن يكون عليه إذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها.

ورأى ماركس أن تطور المجتمع إنما هو نتاج للتفاعل المستمر بين الإنسان والطبيعة من خلال العملية الإنتاجية. فالإنسان حسب قوله:

« قد بدأ فى تمييز نفسه عن الحيوان بمجرد أن بدأ ينتج أساليب الحفاظ على حياته »[2] فإنتاج وسائل الحفاظ على الحياة (أى الطعام والمسكن والملبس ... ألخ) إنما هو ضرورة تمليها الاحتياجات البيولوجية للكائنات الإنسانية، وعلاوة على ذلك فإن هذه العملية الإنتاجية هى المصدر المبدع لظهور حاجات وقدرات جديدة لدى الإنسان. وعلى ذلك فإن النشاط الإنتاجى هو أساس المجتمع على المستويين التاريخى والتحليلى. والإنتاج هو أول فعل تاريخى، وإنتاج الحياة المادية شرط أساسى لكل التاريخ الإنسانى ولا بد للناس أن يقوموا بهذه العملية الإنتاجية يومياً بل كل ساعة لكى يحافظوا على حياتهم وكل فرد فى حياته اليومية يعيد فى الواقع إنتاج وخلق المجتمع الذى يعيش فيه فى كل لحظة وهذه العملية أى عملية الخلق والإبداع هى مصدر للثبات فى التنظيم الاجتماعى وأساس التغير المستمر فيه فى آن واحد.

---

(1) Irving Zeitlin opt. cit. p. 84.

(2) Karl Marx and Fredrick Engles : The German Ideology (London, 1965). p. 31.

وكل نوع من أشكال الإنتاج يستلزم بالضرورة شكلا معيناً من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الذين يشتركون فى العملية الإنتاجية . وهذه الفكرة هى التى يرتكز عليها نقد ماركس للاقتصاد السياسى والفلسفة النفعية بصفة عامة فقد قرر ماركس أن مفهوم الفرد المنعزل إنما هو تصور خيالى من جانب الفلاسفة البورجوازيين الفرديين .

وهذا المفهوم،أى مفهوم الفرد المنعزل إنما يستخدم لكى يخفى الطابع الاجتماعى الذى يفصح عنه الإنتاج دائماً . ويرى ماركس أن علماء الاقتصاد السياسى وخاصة آدم سميث قد أغفلوا أو شوهوا فى الواقع عملية خلق الإنسان لنفسه من خلال العملية الانتاجية وشوهوا التطور الاجتماعى الناجم عن ذلك .

ورأى ماركس أن أفراد الإنسان لا ينتجون فقط بوصفهم أفراداً ولكن بوصفهم أعضاء فى شكل محدد من المجتمع . وعلى ذلك فإنه لا يوجد أى نوع من المجتمعات لا يقوم أساساً على شكل محدد من العلاقات الإنتاجية .

ويقول كارل ماركس : « إن الناس خلال العملية الإنتاجية لا يغيرون من الطبيعة فحسب بل يغيرون من بعضهم البعض . فهم يستطيعون الإنتاج فقط نظراً لتعاونهم بشكل معين وإعتماد نشاط كل منهم على الآخر » . فلكى ينتج الناس لابد أن يدخلوا فى علاقات محددة مع بعضهم البعض وعن طريق هذه العلاقات يمكن أن يؤدى نشاطهم إلى الإنتاج وتغير الطبيعة .

ولكن لا بد لكى يستطيع الإنسان أن ينتج ولكى تنشأ حياة اجتماعية من توفر ظروف طبيعية معينة ـ هذه الظروف شروط ضرورية للحياة الاجتماعية ولكنها ليست ظروفاً كافية لقيامها .

الظروف الطبيعية لحياة المجتمع — البيئة الجغرافية (١):

إن المجتمع الإنسانى جزء متمايز من الطبيعة . ولا يمكن بأى حال فصله عن بقية الطبيعة وهو دائماً فى حالة تفاعل معها . وهذا الجزء من الطبيعة الذى يتفاعل معه المجتمع بصفة دائمة ومباشرة ويتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه فى آن واحد يسمى البيئة الجغرافية وتشمل الطقس والتربة والأنهار والبحار والنبات والحيوان وتضاريس الأرض والمعادن . الخ والبيئة الجغرافية شرط ضرورى لنشاط الإنسان الإنتاجى وبدون التفاعل مع الطبيعة لا يمكن أن يكون هناك عمل ولا نشاط إنتاجى .

والبيئة الجغرافية يمكن أن تمارس تأثيراً مزدوجاً على تطور المجتمع . فالظروف الطبيعية الملائمة (مثل توفر المعادن والغابات والأشجار والطقس المناسب) تساعد على تطور المجتمع . ومن جهة أخرى تؤثر الظروف الطبيعية المعاكسة تأثيراً ضاراً على التطور الاجتماعى . فعدم توفر المعادن مثلا يعوق النمو الصناعى ، كما أن الطقس القاسى فى جفافه يعوق تطور الزراعة وهكذا. إلا أنه لا يجب المغالاة فى دور البيئة الجغرافية إلى حد افتراض أنها هى التى تحدد التطور الاجتماعى فهناك بلاد تتطور اقتصادياً وسياسياً بنفس المعدل على الرغم من أن بيئاتها الجغرافية مختلفة — كما أن هناك بلاداً تشترك فى نفس الظروف الجغرافية ومع هذا فإنها تختلف فى حالتها الإقتصادية والسياسية . كما أن المجتمع قادر على تغيير هذه الظروف الجغرافية والتأثير فيها ، وتعتمد درجة تأثير المجتمع على البيئة الجغرافية على طبيعة النظام الاجتماعى ومستوى الانتاج والتكنولوجيا والعلم فيه . وعلى هذا فإن البيئه الجغرافيه ليست هى المحدد للتطور الاجتماعى على الرغم من أنها شرط ضرورى للحياة الاجتماعية وكل ما تفعله هو أنها تساعد على تطور المجتمع أو تعوق من هذا التطور .

---

(1)V. Afanasyev. Opt. cit. pp. 189—201 .

الظروف الطبيعيه — السكان :

إن وجود السكان شرط ضروري آخر لحياة المجتمع . فالانتاج مستحيل بدون ناس . وعلى هذا فإن الظروف السكانيه مثل كبر عدد السكان أو قلته وإرتفاع معدلات نموهم أو انخفاضه قد يؤثر على تطور المجتمع بالزيادة أو النقصان . إلا أن طبيعة السكان لاتلعب الدور الحاسم فى التطور الاجتماعى ، ذلك أن أمامنا أمثلة كثيرة لبلاد ذات كثافة سكانية عالية ومعدل نمو سكانى سريع ، ولكنها أكثر تخلفا من بلاد أخرى ذات كثافة سكانية منخفضة ومعدل نمو بطىء والعكس صحيح . كما أن هناك بلاداً تتشابه فى نفس الكثافة السكانية ومعدل النمو السكانى إلا أنها تختلف فى درجة تطورها الاقتصادى والسياسى والثقافى . ويعنى ذلك أيضاً أن الكثافة السكانية ومعدلات النمو السكانى لايحددان حياة المجتمع ولكن العكس هو الصحيح ، ، فالكثافة السكانيه ومعدلات النمو تعتمدان على طبيعة النظام الاجتماعى .

البيئه الجغرافيه والسكان أذن شرطان ضروريان للحياة الاجتماعية ولكنهما ليسا العامل الحاسم فى التطور الاجتماعى ، فهذا العامل هو أسلوب إنتاج الثروة الماديه .

نمط الإنتاج : Mode of Production

رأى ماركس أن العمل هو أساس الحياة الاجتماعيه وأن إنتاج الثروة المادية هو العامل الأساسى المحدد للتطور الاجتماعى . وإنتاج وسائل الحفاظ على الحياة البشريه ثم عمليه توزيع تلك المنتجات هما أســـاس البناء الاجتماعى بأسره ففى جميع المجتمعات التى ظهرت فى التـــاريخ كانت الكيفية التى توزع بها الثروة وينقسم بها المجتمع إلى طبقات أو أنظمة تعتمد على ماينتج والكيفيه التى يتم بها التوزيع .

ويتطلب هذا الإنتاج موضوعات للعمل، كما يتطلب أدوات يستخدمها فى معالجة هذه الموضوعات ، فبالنسبة للزارع مثلا لا بد من الأرض والبذور بوصفهما موضوعات للعمل ، ولا بد كذلك من الفأس أو المحراث بوصفهما أدوات يعالج بها موضوعات العمل . هناك إذن الموضوعات والأدوات ، وهناك كذلك الإنسان العامل الذى يستخدم هذه الأدوات فى معالجته لهذه الموضوعات فأدوات العمل وحدها لا يمكن أن تنتج ثروة مادية ، ومن الضرورى لا أن تصنع فحسب ولكن أن تستخدم أيضا ، والإنسان هو صانعها ومستخدمها وعلى هذا فإن الإنسان العامل عنصر جوهرى فى الإنتاج . ويطلق على الموضوعات والأدوات والإنسان العامل اصطلاح « قوى الانتاج forces of Production

وتحدد قوى الانتاج علاقات الإنسان بالطبيعة وسيطرته عليها والإنسا ، العامل هو العنصر الرئيسى فى القوى الإنتاجية .

إلا أن القوى الإنتاجية ليست هى العوامل الوحيدة فى الإنتاج المادى فالناس لا يمكنهم الإنتاج الا إذا انتظموا فى علاقات اجتماعية ، ذلك أن العمل بطبيعته نشاط اجتماعى . وهذه العلاقات والروابط الاجتماعية يقتضيها الانتاج ويستحيل دونها .

ويطلق على علاقات الناس فى عملية الانتاج اصطلاح « علاقات الانتاج » relations of production وهناك وحدة لا تقبل الانفصال بين قوى الإنتاج وما يقابلها من علاقات إنتاج . وقد كان العمل دائما منذ فجر التاريخ هو الرابطة بين الناس .

وتعتمد علاقات الإنتاج اعتمادا جوهريا على ملكية وسائل الانتاج means of production (الموضوعات والأدوات) فالذى يملك موضوعات

الإنتاج (الأرض أو المناجم أو الغابات أو المواد الخام مثلا) وأدوات الإنتاج (الفؤوس والمحاريث والآلات) يتحكم فى عملية الإنتاج وفى توزيع عائدها، ويتوقف على ملكية وسائل الإنتاج وضع المجموعات الاجتماعية المختلفة فى المجتمع ، فالذين يملكونها يتمتعون بوضع السيطرة والنفوذ ويحصلون على أكبر جزء من عائدها والذين لا يملكون يكونون خاضعين ويكون نصيبهم من الإنتاج أقل وإذا كانت ملكية وسائل الإنتاج عامة أى ملك فئات الشعب العاملة فإن علاقات الإنتاج تكون علاقات تعاونية متبادلة خالية من الاستغلال كما هو الحال فى البلدان الاشتراكية . أما اذا كانت ملكية وسائل الإنتاج فردية أى ملك أقلية ضئيلة من المجتمع فإن علاقات الانتاج تكون علاقات سيطرة وخضوع .

ويعتمد شكل التوزيع على طبيعة ملكية وسائل الإنتاج ، ففى المجتمع الرأسمالى وفى ظل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج يحصل المالك على أكبر نصيب من الثروة المنتجه على الرغم من أنه لا يشارك بطريقة مباشرة فى الإنتاج أما فى المجتمع الاشتراكى وفى ظل الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج فإن توزيع عائد الإنتاج يتم تبعا للعمل .

وهكذا نرى أن علاقات الإنتاج تضم شكل ملكية وسائل الانتاج وما ينجم عنها من وضع المجموعات الاجتماعية فى الإنتاج وأشكال توزيع الثروة .

وهناك وحدة لاتقبل الانفصال بين قوى الإنتاج من جانب وعلاقات الإنتاج من جانب آخر ويطلق على هذين الجانبين معا نمط الإنتاج mode of production

إلا أن الإنتاج لا يتوقف عند حد معين ولكنه ينمو ويتطور دائما ، ذلك ان الناس لابد أن ينتجوا الثروة المادية من أجل الحفاظ على حياتهم ولابد أن يتزايد هذا الانتاج

ويتحسن دائماً فعدد السكان فى تزايد مستمر كما أن متطلباتهم تتزايد باستمرار . فالإنسان البدائى لم يكن يحتاج سوى القليل جدا — طعام بسيط وجلد حيوان وسقف يستظل به ونار إلى جوار كوخه . ولكن الإنسان الحديث أصبحت له متطلبات مادية وثقافية هائلة وهى تتزايد باستمرار . والوسيلة الوحيدة لإشباع الحاجات المتزايدة للأعداد المتزايدة من الناس هى زيادة الانتاج وتحسينه . وقوى الإنتاج (الموضوعات والأدوات والإنسان) هى المحرك الرئيسى للتغير والتطور .

وقرر ماركس أن الإنسان من خلال عمله الاجتماعى يطور ويغير ويعدل من أدواته وليس أدل على ذلك من التقدم التكنولوجى المستمر فى عصرنا هذا والذى يتيح للإنسان مزيدا من الطاقة والتحكم فى عالمه المادى . فتطور أدوات الإنتاج اذا هو نقطه البدء فى التغيير الاجتماعى . إلا أن هذا التطور من شأنه أن يحدث خللا فى التوازن القائم بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج بحيث لا تعد علاقات الإنتاج على انسجام مع قوى الانتاج . فمع تحسن أدوات الإنتاج وتطورها يتطور الناس أيضا فتنمو قدراتهم ومهاراتهم وتظهر مهن جديدة لم تكن موجودة من قبل . ويتطلب ذلك بالضرورة تغيرا فى علاقات الإنتاج . ونظرا لأن هذا التغير لا يساير التغير فى قوى الإنتاج فان التناقض بين قوى الإنتاج المتطورة وعلاقات الإنتاج المتخلفة والتى أصبحت عقبة أمام قوى الإنتاج يؤدى بالضرورة الى ظهور ظروف موضوعية للثورة من أجل حل هذا التناقض ومن أجل إحلال علاقات إنتاج جديدة تتوافق مع قوى الإنتاج التى تطورت وتحولت . ويتضح لنا من ذلك أن هناك وحدة ديالكتيكية بين قوى الإنتاج من جانب وعلاقات الإنتاج من جانب آخر وهذا التناقض بين هذين الوجهين هو القوة المحركة المجتمع .

إلا أن هـذا التناقض ليس شيئا عرضيا فهو ينبع من طبيعه عملية الإنتاج

الاجتماعى ، فالقوى الإنتاجية هى أكثر عناصر الإنتاج تغيرا وحركة أما علاقات الإنتاج فعلى الرغم من أنها تتعرض لتغيرات معينة فإنها تظل فى أساسها دون تغير داخل إطار أسلوب إنتاج معين ، ففى أسلوب الإنتاج الرأسمالى تعرضت قوى الإنتاج لتغيرات عميقه ولكن علاقات الإنتاج مازالت قائمة على الملكية الرأسمالية الخاصة .

الأساس الاقتصادى والبناء العلوى للمجتمع :

Basic Structure and Super Structure

إن عملية الإنتاج الاجتماعى هى حجر الأساس الذى يقوم عليه المجتمع الإنسانى ومجموع علاقات الإنتاج يشكل البناء الإقتصادى للمجتمع أو ما يسمى بالأساس ، والذى نعنيه بمجموع علاقات الإنتاج هو أشكال الملكية وما يترتب عليها من علاقات بين الناس فى عملية الإنتاج وأشكال توزيع السلع المادية .

ولكل مجتمع أساسه ، ويعتمد نوع هذا الأساس على حالة قوى الإنتاج ولا يمكن ظهور الأساس إلا عندما تتكون الظروف المادية اللازمة لظهور قوى الإنتاج الخاصة به فى ثنايا المجتمع القديم .

وبمجرد ظهور هذا الأساس إلى الوجود فإنه يلعب دورا خطيرا فى حياة المجتمع فهو يمكن الناس من تنظيم الإنتاج وتوزيع الثروة المادية . فبدون أن يدخل الناس مع بعضهم البعض فى علاقات اقتصادية فإنهم لا يستطيعون الإنتاج وبالتالى لا يمكنهم توزيع وسائل الحفاظ على الحياة .

وهذا الأساس (الاقتصادى) شرط لابد منه لظهور مايسمى بالبناء العلوى أى البناء السياسى والتشريعى والفلسفى والأخلاق والجمالى والدينى للمجتمع ، وما يترتب على ذلك من علاقات ومؤسسات ومنظمات وعلى هذا فإن الأساس هو الذى يحدد طبيعة المجتمع بطريقة مباشرة ويحدد أفكاره ومؤسساته .

على أن البناء العلوى لا يلبث ما أن يتكون فى القيام بدور كبير فى التطور والنمو الاجتماعى . فالبناء العلوى الذى يبنى على أساس اقتصادى محدد يعبر فى نهاية الأمر عن موقف الناس من هذا الأساس . إن أفكار الناس (البناء العلوى) تصبح بمثابة تبرير أو دفاع أو استنكار وهجوم على هذا الأساس . (١)

فالمؤسسات الحكومية فى الدولة الرأسمالية أو الإقطاعية وأجهزة الإعلام والصحف الحزبية فيها تعمل على تدعيم وتبرير الأساس كما أن الأفكار العمالية والثورية تعبر عن موقف الطبقات المقهورة من هذا الأساس .

البناء العلوى إذا انعكاس للأساس الاقتصادى ، إلا أنه لا يلبث أن يتمتع بقدر من الاستقلال النسبى عن هذا الأساس ، بل قد يصبح سندا يدعم هذا الأساس ويساعد على بقائه ، كما أن ثمة جوانب من البناء العلوى تتسم بقدرة على البقاء برغم تغير الأساس الذى تعتمد عليه ، مثال ذلك بقاء الأفكار ذات الطابع الرأسمالى فى المجتمعات الاشتراكية .

على أن البناء العلوى ليس بأسره انعكاسا للأساس الاقتصادى فثمة سمات ثابتة تعكس حاجة إنسانية خاصه كاللغة وبعض سمات الأسرة أو الحياة الجنسية .

مما سبق تتبين أن حجر الزاوية فى الفهم الماركسى للمجتمع هو الأساس الاقتصادى وما يترتب عليه من علاقات إنتاج ، فلا حياة للإنسان ولا للمجتمع دون العمل الاجتماعى المنتج الذى يقتضى تنظيما له ولما يترتب عليه من عائد .

---

(١) أو سيبوف — قضايا علم الاجتماع — ترجمة د . سمير نعيم أحمد ، د . فرج أحمد فرج — دار المعارف . القاهرة ١٩٧٠ .

كذلك لا يمكننا فهم المجتمع فهما مطلقا بمعزل عن الظروف الكلية له ، وبمعزل عن حركته التاريخية التى يقتضيها تطور قوى الإنتاج فيه .

إن المجتمع وحدة كلية إجتماعية إقتصاديه مترابطة فى حركة مستمرة وتحول دائم يحتل فيه نشاط الإنسان فى علاقته بالإنسان المقام الأول .

ولا يمكن بأى حال الفصل بين البناء العلوى وبين الأساس . فالبناء العلوى يعتمد على الأساس . فلو أخذنا المجتمع البدائى على سبيل المثال لوجدنا أن إنعدام الملكية الخاصة والطبقات فيه ، وبالتالى المتناقضات الطبقية كان هو السبب فى أنه لم يكن فى هذا المجتمع دولة أو مؤسسات سياسية أو تشريعية . ومع ظهور الملكية الخاصة إلى الوجود وظهور الطبقات (السادة والعبيد) ظهر بناء علوى من نوع مخالف ، فظهرت أفكار تبرر حكم صاحب العبيد للعبيد ، وظهرت مؤسسات (مثل الدولة) لتحمى هذا الحكم . ولما كان أساس المجتمع الطبقى ملىء بالمتناقضات التى تنبع من التناقض الرئيسى بين المغبونين والقائمين بالغبن ، ولما كان البناء العلوى فى مثل هذا المجتمع يعكس الأساس فإنه من المنطق أن يكون هذا البناء العلوى نفسه ملىء بالمتناقضات هو الآخر . فهو يضم أفكار ومؤسسات الطبقات المختلفة — إلا أن أفكار ومؤسسات الطبقة المسيطرة هى التى تسود . فالطبقة التى تمثل القوة المادية الحاكمة فى المجتمع تصبح أيضاً هى الطبقة الفكرية الحاكمة . وفى ظل الرأسمالية يكون البورجوازية السيطرة الاقتصادية وعلى هذا فإنه يكون لأفكارها ومؤسساتها السيادة فى المجتمع وتستخدم هذه الأفكار والمؤسسات أساساً بواسطة البورجوازية لحماية حكمهم ومحاربة الطبقات الكادحة . إلا أن هذه الطبقات الكادحة تكون بدورها أفكارها ومؤسساتها التى تتصارع مع البورجوازية (مثل النقابات العمالية والأحزاب السياسية) .

والتغيرات التى تطرأ على الأساس تؤثر على البناء العلوى بالضرورة . فخلال

الانتقال من الرأسمالية قبل الاحتكارية إلى الإمبريالية من الإقتصاد الرأسمالى بتغير هام وحل الإحتكار محل التنافس الحر . وتغير تبعا لذلك البناء العلوى فتحولت الطبقة البورجوازية من تبنى شكل الحكم الديموقراطى البورجوازى إلى تبنى الأشكال الرجعية والفاشية من الحكومة .

التكوين الاقتصادى الاجتماعى Socio—Economic formation

يمثل أسلوب إنتاج الثروة المادية الأساس المادى الاقتصادى التكوين الاقتصادى الاجتماعى ، وهذا الأساس الاقتصادى يمثل فى الواقع هيكل التكوين بينما يمثل البناء الفوقى الجانب السياسى - الاجتماعى والروحى فيه ، وعلى هذا فإن الأساس والبناء الفوقى يمثلان المكونات الأولية لأى تكوين اقتصادى اجتماعى وبالإضافة إلى الأساس والبناء العلوى يتضمن التكوين الاقتصادى الاجتماعى ظاهرات اجتماعية أخرى مثل أشكال المجموعات (العشيرة — والقبيلة — والأمة) وأسلوب الحياة والأسرة والزواج واللغة والعلوم وبعض التنظيمات الاجتماعية كالرياضة مثلا ، وهى جميعا سمات إنسانية عامة وهى لا تنتمى بشكل مباشر للأساس أو البناء العلوى ولكنها عناصر ضرورية فى أى تكوين اقتصادى اجتماعى ذلك أن الناس لا يمكنهم بأى حال أن يفكروا أو يعملوا دون لغة أو وسيلة للاتصال ولتبادل الآراء كما أنهم لا يمكنهم التناسل والاستمرار دون حياة جنسية ودون أسرة وزواج .

وهذه الظاهرات تتغير بتغير التكوينات الاقتصادية الاجتماعية فأشكال التجمعات الإنسانية تختلف باختلاف التكوينات . فى المجتمع البدائى نجد العشيرة والقبيلة وفى المجتمع الإقطاعى نجد القومية وفى المجتمع الرأسمالى نجد الأمة وتتغير أسلوب الحياة والأسرة والزواج بتغير التكوينات الاقتصادية والإجتماعية . أما اللغة فعلى الرغم مما قد تتعرض له من تغيرات فإنها تنتقل من تكوين لآخر وكذلك

الحال بالنسبة للعـــلوم التى يتمثلها الناس ويطبقونها فى حياتهم وعملهم فى مختلف التكوينات .

والظاهرات الاجتماعية التى يتكون منها التكوين الاقتصادى الاجتماعى ترتبط ببعضها إرتباطا عضويا ، وتؤثر فى بعضها البعض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وهى جميعاً تمثل سويا كائنا إجتماعياً متشابكا معقدا دائم التطور هو التكوين الاقتصادى والإجتماعى .

هناك أذن وحدة وتفاعل بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وبين الأساس والبناء العلوى . والبناء العلوى يرتبط أيضاً بالقوى الإنتاجية ، لا بطريقة مباشرة ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال الأساس الاقتصادى . كما أن عناصر البناء العلوى أيضاً تتفاعل مع بعضها ، فالسياسة مثلا تؤثر على الفن والأخلاق والفلسفة وغيرها من صور الحياة الروحية للناس . ويؤثر الإنتاج والأساس والبناء العلوى على العلاقات الأسرية وأسلوب الحياة ... ألخ . وهكذا نرى أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى يمثل تفاعلا متداخلا بين مختلف الظاهرات الاجتماعية وأكثرها تباينا بينما يظل الإنتاج المادى هو السبب الأولى أو الأساس الأولى فى تفاعلها .

وتتمثل أهمية مفهوم التكوين الاقتصادى ـــ الاجتماعى فى أنه يوضح الوحدة العضوية بين مختلف الظاهرات الاجتماعية والترابط المتبادل بينها كما أنه يبين لنا أنه لا يمكن الحديث بشكل مجرد عن المجتمع بوجه عام ولكن يجب دائماً الحديث عن مجتمع ذى طابع خاص مميز . فلكل تكوين اقتصادى اجتماعى قواه الإنتاجية الخاصة به ونمط محدد من علاقات الإنتاج وحياة روحية تميزه وهكذا فإن كل تكوين يخضع لقوانين تاريخية عامة ولكنه يخضع أيضاً لقوانين خاصة به . فالمجتمع الاشتراكى مثلا يخضع لقوانين التطور المخطط المتناظر والتزايد المستمر لدور الجماهير فيه .

وهكذا يرى ماركس أنه لا يمكن فهم العلاقات الاجتماعية بدون إرجاعها إلى علاقات الإنتاج وربط علاقات الإنتاج بالقوى الإنتاجية .

وعلى أساس مفهوم التكوين الاقتصادى — الاجتماعى أمكن لماركس تقسيم تطور المجتمعات إلى المراحل الست التالية :

١ — المرحلة الجماعية البدائية . Primitive Communal

٢ — مرحلة العبودية . Slavery

٣ — مرحلة الإقطاع . Feudalism

٤ — المرحلة الرأسمالية . Capitalism

٥ — المرحلة الاشتراكية . Socialism

٦ — المرحلة الشيوعية . Communism

وتمثل كل مرحلة من هذه المراحل تكوينا اقتصاديا — اجتماعيا متمايزا . والتطور أو التغير الكيفى من تكوين اجتماعى اقتصادى إلى آخر لا يتم فجأة ولكنه يحدث نتيجة تغيرات كمية تدريجية داخل كل تكوين تتراكم حتى يحدث التغير الكيفى . فالرأسمالية مثلا تمر قبل تحولها إلى الاشتراكية بتغيرات تدريجية من الرأسمالية قبل الاحتكارية إلى الرأسمالية الاحتكارية ثم الاستعمارية . ومن المعروف تاريخياً أن الانتقال من تكوين إلى آخر لا يقضى كلية ومرة واحدة على كل آثار التكوين القديم ، أى أنه لا يوجد بالفعل تكوين « خاص » أو « نقى » فأى تكوين اقتصادى — اجتماعى يتضمن بقايا من التكوين السابق ، فالتكوين الاشتراكى مثلا ما زال يحتوى على بقايا من الرأسمالية فى عقول وسلوك أعضاء المجتمع الاشتراكى .

نخلص من ذلك أذن إلى أن ماركس قد رأى أن المجتمع فى حالة تطور مستمر ،

وهذا التطور تحكمه قوانين محددة ووظيفة عالم الاجتماع الأساسية هى الكشف عن هذه القوانين وفهمها ثم استخدامها من أجل المساعدة على تطوير المجتمع .

وهكذا نرى أن المادية التاريخية (أو النظرية الاجتماعية الماركسية) ترى أن المجتمع وحدة كلية اجتماعية اقتصادية مترابطة فى حركة مستمرة وتحول دائم ويعتمد أداؤه لوظائفه الحيوية على تطوير أسلوب الإنتاج فيه ويحدد أسلوب الإنتاج هذا فى نهاية الأمر التغيرات التى تحدث فى نظامه السياسى والمعنوى أو ما يسمى بالبناء الفوقى . ويكون لهذا البناء الفوقى استقلال نسبى حيث يؤثر داخل حدود معينة على الأساس الاقتصادى ويتأثر به .

التقسيم الطبقى والصراع الطبقى : (١)

قرر ماركس أن الطبقات قد ظهرت إلى الوجود عندما تطور تقسيم العمل وتطور الإنتاج بحيث أصبح من الممكن لبعض الناس أن يتملكوا فائض عمل غيرهم وبالتالى استطاعوا أن يحققوا تراكماً من هذا الفائض مكنهم من أن يدخلوا فى علاقات استغلالية مع جماهير المنتجين . وهكذا أصبح من الممكن أن تسيطر طبقة من الناس على طبقة أخرى .

وقد عرف لينين الطبقات بقوله :

« الطبقات عبارة عن مجموعات كبيرة من الناس تختلف كل مجموعه منها عن الأخرى حسب الموقع الذى تحتله من نظام الإنتاج الاجتماعى المحدد تاريخياً وحسب علاقتها بوسائل الإنتاج وحسب الدور الذى تلعبه فى التنظيم الاجتماعى للعمل ويترتب على ذلك كله إختلافاً جوهرياً فى كيفية حصولها على نصيبها من

---

(1) Chesnokov. opt. cit. pp. 169—268

الثروة الاجتماعية . والطبقات مجموعات من الناس يمكن لإحداها أن تتملك ناتج عمل الأخرى نظراً للمواقع المختلفة التي تحتلها كل منها في نظام محدد من العلاقات الاقتصادية الاجتماعية » .

ويرى ماركس أن علاقة الطبقة بوسائل الانتاج هي العامل الأساسي المحدد لموقعها ودورها في الإنتاج الاجتماعي وأيضاً المحدد لكيفية حصولها على الدخل وحجم ذلك الدخل . والطبقات لم توجد منذ بداية المجتمع البدائي فلم تكن هناك طبقات ذلك أن الإنتاج كان ضعيفاً للغاية بحيث لم يكن يكفي إلا كي يقيم أود الناس أو يبقيهم على قيد الحياة ، وبالتالي فإنه لم تكن هناك إمكانية ما لأن تتراكم أي ثروة في أيدي أي مجموعة من الناس ، بعبارة أخرى لم تكن هناك أي إمكانية الملكية الخاصة التي ما أن ظهرت حتى ظهرت الطبقات وتمايز الناس إلى مجموعات تملك وأخرى لا تملك أي شيء ، ولكن مع تطور قوى الإنتاج ومع زيادة إنتاجيه العمل بدأ الناس ينتجون أكثر مما يستهلكون وهكذا أصبح من الممكن أن تتجمع ثروة مادية لدى بعض الناس وأن يتملك بعضهم وسائل الإنتاج ، وهكذا ظهرت الملكية الخاصة التي ساعد على زيادتها التزايد المستمر في تقسيم العمل والتبادل التجاري .

وقد أدى ظهور وتطور الملكية الخاصة وحلولها محل الملكية العامة إلى تزايد اللامساواة الاقتصادية . فبعض الناس وبخاصة زعماء القبائل أصبحوا أغنياء واستولوا على وسائل الإنتاج الجماعي ، أما البعض الآخر الذين حرموا من ملكيه وسائل الانتاج فلم يكن أمامهم من مفر إلا أن يعملوا لدى أولئك الذين أصبحوا مالكين لوسائل الانتاج .

وقد ظهرت الطبقات الاجتماعية حين تداعى النظام الجماعي البدائي وبدأ نظام الرق في الظهور . وقد كان هذا الوضع المتناقض للطبقات في المجتمع هو مصدر

الصراع الطبقى وأصبح الصراع الطبقى هو العلامة المميزة لتطور البشرية خلال قرون طويلة من الزمان .

وقد رفض ماركس تماماً تعريف الطبقة على أساس المحكات التى كان يستخدمها المفكرون المثاليون فى ذلك الوقت (والتى مازالت تستخدم حتى الآن فى علم الاجتماع الغربى) فقد قرر ماركس عند حديثه عن الطبقات فى كتابه رأس المال أنه لا يمكن التعرف على الطبقة على أساس مصدر الدخل أو على أساس الوضع الوظيفى للأفراد فى عملية تقسيم العمل فهذه المحكات سوف تؤدى بنا إلى تقسيم الناس إلى عدد هائل من الطبقات : الأطباء الذين يحصلون على دخلهم من معالجة مرضاهم سوف يصبحون طبقة منفصلة عن طبقة الفلاحين الذين يحصـــلون على دخلهم من زراعتهم للأرض ... إلخ)

وفضلا عن ذلك فإن إستخدام مثل هذه المحكات سوف يؤدى إلى تداخل وضع تجمعات الأفراد فى العملية الإنتاجية فمثلا قد نجد شخصين يشتغلان بنفس العمل ولكن أحدهما قد يكون مستخدماً لدى شركة ، بينما يمتلك الآخر محلا أو ورشة صغيرة يعمل بها .

كما رفض ماركس إستخدام محك الدخل للتمييز بين الطبقات الاجتماعية ، ذلك أن الدخل ليس منفصلا بأى شكل من الأشكال عن العملية الإنتاجية ولكنه يتحدد بأسلوب الإنتاج وبالتالى فإن ماركس قد رفض دعاوى المفكرين المثاليين أمثال « جون ستورت - ميل » بأن الطبقات ليست إلا نتاجاً للامساواة فى توزيع الدخل وبالتالى فإنه يمكن تخفيف حدة الصراع الطبقى أو حتى إزالته عن طريق تقليل الفوارق بين الدخول التى يحصل عليها الناس .

رأى ماركس إذاً أن أساس تقسيم المجتمعات إلى طبقات هو ملكية أو لا ملكية

وسائل الانتاج ، وأن الموقع من وسائل الانتاج هو الذى يحدد كل العوامل الأخرى التى يتحدث عنها المفكرون المثاليون مثل المهنة والدخل وأسلوب الحياة ومحل السكن إلى آخره . ورأى ماركس أن كل المجتمعات الطبقية يوجد بها صراع طبقى بين الطبقة المسيطرة ، أى تلك التى تتملك وسائل الإنتاج المادية وبالتالى تكون لها السيطرة السياسية والقانونية والعسكرية والفكرية والطبقات الخاضعة أو المستغلة . وطالما توجد ملكية خاصة فى وسائل الإنتاج وطالما ينقسم الناس فى المجتمع إلى من يملكون هذه الوسائل ومن لا يملكون سوى جهدهم يبيعونه لملاك وسائل الانتاج الذين يستغلونهم فسيظل هناك دائماً عداءاً بين هذه الطبقات وسيظل هناك صراعا بينهم ، وقدشهدت المجتمعات البشرية لقرون عديدة هذا الاستغلال للطبقات العاملة سواء كانت هذه الطبقات من العبيد أو الفلاحين أو العمال الصناعيين من جانب الطبقات الحاكمة ، وبالتالى فإنه من الطبيعى أن تقوم هذه للطبقات المستغلة بالثورة على القمع وعلى الظلم الواقع عليها وأن تسعى للحصول على حقوقها .

ويتكون المجتمع الطبقى من طبقات أساسية وطبقات غير أساسية أو ما يمكن تسميته بالفئات الاجتماعية . أما الطبقات الأساسية فهى تلك الطبقات التى ترتبط بنمط الإنتاج فى مجتمع معين من المجتمعات الطبقية حيث نجد طبقة ملاك وسائل الإنتاج وطبقة المعدمين المقهورين التى تقف فى مواجهة الطبقة الأولى ، ففى المجتمع العبودى نجد طبقتين أساسيتين هما طبقة أصحاب العبيد والعبيد ، وفى المجتمع الاقطاعى نجد طبقتين أساستين هما طبقة الإقطاعيين وطبقة الفلاحين وفى المجتمع الرأسمالى نجد طبقتى البرجوازية والبروليتاريا .

ولكن هذه المجتمعات الطبقية تضم أيضاً مجموعات أو فئات اجتماعية لا يمكن إعتبارها طبقات بالمعنى السابق ذكره أو يمكن النظر إليها بوصفها طبقات غير أساسية لأنها لا ترتبط بشكل مباشر مثل النوع الأول (أى الطبقات الاساسية) بنمط الإنتاج

السائد فى المجتمع الرأسمالى ، كما يضم المجتمع أيضاً مجموعات اجتماعية مختلفة لا يمكن إعتبارها طبقات أساسية مثل المثقفين ورجال الدين وغيرهم . والصراع الطبقى فى المجتمعات الطبقية يدور بشكل أساسى بين الطبقات الاجتماعية الأساسية أما الطبقات غير الأساسية أوالمجموعات الاجتماعية فإنها لا تكون ذات إتجاه محدد فى ذلك الصراع وتتحالف مع طرف أو آخر من أطراف الصراع . فالمثقفون قد يتحالفون مع البروليتاريا فى صراعها ضد البورجوازية أو قد يتحالفون مع البورجوازية ضد البروليتاريا .

وهناك بعض التجمعات المتنافرة من الأفراد الذين لايشكلون طبقة بمعنى الكلمة والذين يعتبرون على هامش النظام الطبقى فى المجتمع لأنهم لايلعبون دوراً هاماً فى عملية تقسيم العمل . وهذه المجموعات تتكون من اللصوص والمجرمين والذين يعيشون عالة على المجتمع وقد بين ماركس أن درجة التشابه أو التجانس فى كل طبقة من الطبقات تختلف باختلاف الأزمنة التاريخية . ففى كل طبقة من الطبقات يوجد نوع من التدرج فى السيطرة والخضوع داخل الطبقة ذاتها . مثال ذلك الطبقة الرأسمالية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، هذه الطبقة كانت تتكون من جناحين أساسيين هما جناح البورجوازية المالية والبورجوازية الصناعية ، وكان هناك صراع بين هذين الجناحين . بعبارة أخرى تنقسم الطبقة داخلياً إلى طبقات فرعية أو إلى مجموعات لكل منها مصالح متعارضة مع مصالح المجموعة الأخرى ولذلك ينشأ صراع بين المجموعات المكونة للطبقة نفسها ولكن هذا الصراع أو ذلك التناقض بين المجموعات المكونة للطبقة الكبيرة إنما هو حسب تعبير ماركس تناقض ثانوى وليس تناقضاً أساسياً ، بمعنى أنه إذا شعرت الطبقة ككل بخطر ما من طبقة أخرى فإنها فى هذه الحالة سوف تتحد جميعها من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة بينها . بعبارة أخرى يظل هناك التناقض والصرعا

بين مكونات الطبقة الواحدة طالما أنها متماسكة كطبقة أو مسيطرة ويتلاشى أو يختفى فى الظل ذلك الصراع إذا شعرت الطبقة ككل بتهديد مصالحها .

وقد قرر ماركس أن طبيعة الصراع الطبقى تختلف من شكل اجتماعى إلى آخر . ورأى ماركس أن الصراع الطبقى هو القوة الدافعة ومصدر التطور فى المجتمع الطبقى الذى يسود فيه العداء أو العلاقات العدائية بين الطبقات . وهذا الصراع هو الذى يحدد التطور الاجتماعى فى المجتمع الطبقى سواء فى فترات السلم أو فى فترات الثورة . فالصراع الطبقى فى المجتمع الرأسمالى عامل مهم فى تطوير القوى الإنتاجية . فالرأسماليون يلجأون إلى تطوير الآلات والتكنولوجيا وإبتداع أساليب جديدة للإنتاج لكى يواجهوا ضغوط العمال لزيادة أجورهم وتخفيض ساعات عملهم لكى يستطيعوا المحافظة على مستوى أرباحهم وقد قرر ماركس أن معظم الاختراعات الحديثة كانت نتيجة للصدام بين العمال وأصحاب الأعمال فقد لوحظ أنه بعد كل إضراب كبير قام به العمال ظهرت آلة جديدة (١) .

ورأى ماركس أنه كلما ازدادت حدة الصراع الطبقى وكلما أصبحت الطبقات المستغلة أكثر تنظيماً وشدة فى صراعها ضـــد مستغليها كلما كان تطور المجتمع أسرع .

وتمثل الثورة الاجتماعية قمـة الصراع الطبقى وتلعب دوراً هائلا فى التقدم الاجتماعى وينجم عنها بالضرورة تحطيم نظام اجتماعى قديم لكى يحل محله نظام حديث أكثر تقدماً وتاريخ المجتمعات الطبقية بأسره ملىء بكفاح الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة ، فقد كان هناك صراع مرير بين العبيد وبين أصحاب العبيد فى المجتمع العبودى اتخـذ أشكالا متعددة إبتداء من تحطيم الأدوات التى يعمل بها العبيد حتى الثورات الجماهيرية مثل الثورة التى قادهـا

(1) Giddens, opt. cit. d. 39.

اسبارتا كوز فى القرن الأول قبل الميلاد والتى اشترك فيها مايزيد على المائة ألف من العبيد . وفى المجتمع الإقطاعى اتخذ الصراع الطبقى شكلا حاداً وظهر على شكل هبات الفلاحين ضد الإقطاعيين واشتراك غيرهم من الكادحين معهم ، مثل الحرفيين فى هذه الثورة . وقد شهد تاريخ أوربا ثورات فلاحية إشترك فيها مئات الألوف من الفلاحين ضد الإقطاعيين وامتدت لتشمل مناطق شاسعة واستمرت لسنوات طويلة . ومن أمثلة ذلك ثورة الفلاحين فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر وثورة الفلاحين فى فرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وحرب الفلاحين فى ألمانيا فى القرن السادس عشر وثورات الفلاحين المتعددة فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى روسيا وتمرد الفلاحين فى الصين فى القرن التاسع عشر . ولكن ثورة المظلومين فى المجتمعات الإقطاعية والعبودية لم تضع حداً للاستغلال لأن الظروف لم تكن مواتية لذلك فمستوى الإنتاج لم يكن يسمح بتغير النظام الاجتماعى إلى نظام آخر يخلو من الاستغلال والقمع . وكانت هذه الهبات أو الثورات غير منظمة ولم يكن لدى الثوار أفكاراً واضحة عن أهداف صراعهم أو أساليب خوض هذا الصراع ولم تكن لدى هذه الجماهير نظرية تقدمية ترشدهم فى صراعهم ضد الظلم ولم يظهر ذلك إلا فى عهد الرأسمالية . ومع هذا فإن هبات العبيد والفلاحين لعبت دوراً كبيراً وتقدمياً فى الإنسانية . فقد قام العبيد بالقضاء على مجتمع العبودية وقام الأجراء من الفلاحين بدور كبير فى القضاء على النظام العبودى وإنتقاله إلى نظام أكثر تقدميه هو نظام الرأسمالية . والطبقات الأساسية التى توجد فى المجتمع الرأسمالى هى كما سبق أن ذكرت طبقة الرأسماليين وطبقة البروليتارية وهاتان الطبقتان فى صراع دائم . وتهدف الطبقة الرأسمالية إلى السيطرة على الطبقة البروليتارية وإلى التحرر من تلك السيطرة والحصول على نصيبها العادل من الثروة الاجتماعية . وهكذا فإن الطبقة البرولتيارية هى التى يعتبرها كارل ماركس الطبقة الثورية الأساسية فى المجتمع الرأسمالى .

أما غيرها من المجموعات الاجتماعية مثل الفلاحين والحرفيين وهم يشكلون عدداً كبيراً فى المجتمع الرأسمالى فإنهم ليسوا ثوريين حتى النهاية ذلك أنهم لايحتلون مكانه مستقله فى المجتمع ، ومع تطور الرأسمالية فإنهم يدخلون نسق التدرج الاجتماعى فغالبية الفلاحين والحرفيين ينضمون إلى البرولتياريا ، ذلك أن التطور الرأسمالى يفرض عليهم ذلك نظراً لتزايد الميكنة والتصنيع ونسبة قليلة جداً منهم لاتذكر يمكن أن تنضم إلى الطبقة الرأسمالية . أما بالنسبة للمثقفين أو الإنتلجنسيا « مثل المهندسين والفنيين والأطباء والمدرسين والعلماء إلى آخره » فإنهم لايمكن أن يكونوا ثوريين دائماً ، ذلك لأن غالبية المثقفين يضطرون لخدمة الطبقات المستغلة . ولكن الطبقة البرولتيارية بحكم ظروفها وبحكم موضعها فى نسق الإنتاج الاجتماعى لابد وأن تكون هى الثورية والتى تسعى إلى التغيير ، ذلك أن النظام الرأسمالى يضطر لتعليم هذه الطبقة لكى تساهم فى الإنتاج علاوه على أن العمال لا يملكون أى شىء يخشون فقدانه فى الصراع ضد الرأسمالية .والبرولتياريا قادرة دائماً على تنظيم نفسها أكثر من غيرها من الفئات العاملة وبالتالى فإنها تحتل دائماً مركز القيادة للفئات الكادحة فى المجتمع .

وتلجأ الطبقة البرولتارية فى صراعها ضد الإستغلال والرأسمالية إلى عدة أنواع من أساليب الكفاح منها الكفاح الاقتصادى من أجل تحسين ظروفها وحصولها على أجور أفضل وساعات عمل أقل ، والصراع السياسى من أجل تقليل السيطرة السياسية للدولة الرأسماليه وتحكمها فى المجتمع ، والصراع الأيديولوجى الذى تهدف من ورائه إلى كشف زيف دعاوى البورجوازية وإيديولوجيتها وتشجيع الطبقة العاملة على الثورة وعلى تنظيم نفسها ضد العدو البورجوازى .

ولكن كيف يحدث ذلك الاستغلال من جانب أصحاب رؤوس الأموال أو الطبقة البورجوازية للبروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى ؟ يجيب ماركس على ذلك بقوله إن الرأسماليين يعطون أجورا للعمال على عملهم ، وكل عامل له الحرية فى أن يعمل أو لا يعمل فيكيف يمكن القول إذا أن الرأسماليين طبقة مستغلة وأن العمال يقع عليهم الظلم أو الغبن ؟ يرد ماركس على ذلك فى كتابه رأس المال ويفند هذه الدعاوى ويقدم نظريته عن فائض القيمة .

نظرية فائض القيمة فى المجتمع الرأسمالى :

خرج كارل ماركس من دراسته للمجتمع الرأسمالى ولدينامياته بأن الرأسمالية هى نظام لإنتاج السلع Sytem of Commodity production وفى النظام الرأسمالى لاينتج المنتجون سلعاً للوفاء باحتياجاتهم فحسب أو للوفاء باحتياجات الأفراد المتصلين بهم بشكل شخصى ولكن الرأسمالية تتضمن أساساً سوقا للتبادل سواء على المستوى القومى أو على المستوى الدولى .

وكل سلعة لها جانبين كما يقول ماركس : قيمتها الاستعمالية Use value من جهة وقيمتها التبادلية من جهة أخرى exchange valne والقيمة الاستعمالية هى التى تتصل بالاحتياجات التى يمكن استخدام السلعة من أجل تحقيقها . فأى شيء يمكن أن تكون له قيمة استعمالية سواء كان سلعة أم لا ولكن لكى يصبح المنتج سلعة لابد أن تكون له قيمة تبادلية ولكن العكس ليس صحيحاً . أما القيمة التبادلية فهى تشير إلى قيمة المنتج حين يقدم من أجل التبادل بمنتجات أخرى . وعلى عكس القيمة الاستعمالية نجد أن القيمة التبادلية تفترض علاقة اقتصادية معينة ولا يمكن أن تنفصل عن السوق الذى يتم فيه تبادل السلع . فأى سلعة يكون لها قيمة تبادلية من حيث علاقتها بغيرها من السلع .

وأى موضوع سواء كان سلعة أولا يمكن أن تكون له قيمة طالما

أنه قد استخدم فى إنتاجه جهداً إنسانياً وذلك هو أساس نظرية القيمة التى استعارها كارل ماركس من الاقتصاديين الكلاسيكيين أمثال آدم سميث وريكاردو . ويترتب على ذلك أن كلا من القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية لابد أن يرتبطا بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة .

ومن الواضح كما يقول ماركس أن القيمة التبادلية لا يمكن أن تشتق أو تعتمد على القيمة الاستعمالية ، ويمكن توضيح ذلك بمثال القيمة التبادلية بسلعتين مثل الأذرة والحديد . إن كمية معينة من الأذرة تساوى كمية معنية من الحديد ولما كنا نستطيع أن نعبر عن قيمة كل من هذين المنتجين بالنسبة للآخر وبطريقة كمية فإن ذلك يبين لنا أننا نستخدم معياراً مشتركا نطبقه على الاثنين .

هذا المقياس أو المعيار المشترك للقيمة لا علاقة له بالخصائص الفيزيقية للأذرة أو الحديد وهى خصائص غير قابلة للقياس . ولكن القيمة التبادلية لابد أن تعتمد على خاصية ما يمكن قياسها كميا هذه الخاصية هى العمل . وهناك بالطبع فروقا كثيرة بين أنواع العمل المختلفة ، فالأعمال الفعلية التى تبذل فى زراعة وجنى الأذرة تختلف كثيراً عن تلك التى تبذل فى إنتاج الحديد .

ولكن الصفة المشتركة بين هذه الأعمال المختلفة هى كمية الوقت الذى ينفقه العامل فى إنتاج السلعة . أى أننا نقوم بتقييم أى سلعة من السلع على أساس الوقت الذى بذله العامل فى عمله ونقارن بين السلع بعضها وبعض على هذا الأساس . وقد أطلق ماركس على هذا العمل المبذول فى إنتاج السلعة تسمية (العمل المجرد) . (abseract labor)

ولا يعنى كارل ماركس بكمية العمل المبذول فى إنتاج السلعة أو العمل المجرد أى ساعات من العمل تبذل فى الإنتاج . فالعامل الكسول الذى يستغرق

وقتاً طويلا فى إنتاج سلعة مالا يمكن أن تقدر قيمة السلعة التى ينتجها بأكثر مما تقدر السلعة التى ينتجها عامل آخر نشط يستغرق وقتا أقل فى إنتاج نفس السلعة والذى يعنيه مارکس بالعمل المجرد أو كميه العمل المبذول فى إنتاج السلعة ليس هو كمية الوقت التى تبذل فى العمل من جانب فرد عامل معين ولكنه يعنى بذلك ماأسماه وقت العمل اللازم اجتماعياً .

ويعرف ماركس وقت العمل اللازم اجتماعياً بأنه كميه الوقت التى يتطلبها إنتاج سلعة ما فى ظل الظروف العاديه للإنتاج مع توافر درجة متوسطة من المهارة فى وقت معين لصناعة معينة . ويمكن وضع مقاييس عامة من خلال الدراسات الإمبيريقيه لتقدير الزمن المجرد أو وقت العمل اللازم لإنتاج السلعه فى ظل هذه الظروف .

ولكن يجب أن نلاحظ أن كميه العمل اللازمه لإنتاج السلعه تختلف من وقت لآخر حسب ظروف الإنتاج فمثلا إذا حدث تحسن تكنولوجى مفاجىء فإن ذلك سؤدى إلى تقليل كمية الوقت اللازم للعمل لإنتاج سلعة معنية وبالتالى فإنه سوف يؤدى إلى تقليل فى قيمه هذه السلعة .

والذى يمعله الرأسمالى أنه يشترى العمل ويبيع السلع حسب قيمتها الفعليه أى بعبارة أخرى أنه لابد للرأسمالى أن يشترى السلع (المواد الخام والعمل) حسب قيمتها ثم يبيعها بعد ذلك حسب قيمتها أيضا ولكنه مع ذلك فى نهاية العمليه الإنتاجيه يحصل على قيمة من هذه العمليه التبادليه أكبر من تلك القيمة التى وضعها عند بدايه العمليه الإنتاجيه ، فكيف يحدث ذلك ؟

إن العمال فى المجتمع الرأسمالى أحرار فى بيع عملهم فى سوق العمل . ويعنى ذلك أن قوة العمل فى حد ذاتها سلعة تباع وتشترى فى السوق . وقيمه هذه السلعه

(أى قوة العمل) تتحدد مثل أى سلعة أخرى على أساس وقت العمل اللازم اجتماعياً لإنتاجها . فقوة العمل الإنسانى تعنى إستهلاكا لطاقة جسمية لابد أن تعوض واتجديد هذه الطاقه التى استهلكت فى العمل لابد من أن يحصل العامل على المستلزمات الضروريه لبقائه ككائن حى يمارس وظائفه مثل الطعام والملبس والمسكن له ولأسرته .

ووقت العمل اللازم اجتماعياً لإنتاج مستلزمات الحياة للعامل هو قيمه قوة العمل التى يبذلها العامل . وبالتالى فإن قوة العمل هذه يمكن فى نهايه الأمر أن نحسبها بكميه معنيه من السلع أى تلك التى يحتاج إليها العامل لكى يستطيع أن يعيش وأن ينسج . بعبارة أخرى يتبادل العامل مع رأس المال عمله فى حد ذاته أى أن عمله هذا يصبح غريباً عليه وهذا هو أساس فكرة الاغتراب alienation التى تحدث عنها كارل ماركس .

وتسمح ظروف الإنتاج الصناعى الحديث للعامل بأن ينتج فى يوم العمل العادى أكثر بكثير مما يحتاجه لكى يغطى نفقات معيشته . فيكفى العامل أن ينفق بعضاً من وقت العمل اليومى لكى ينتج سلعاً توازى قيمتها قيمة المتطلبات الضرورية لبقائه . ولكن يبقى هناك بقية يوم العمل وكل ما ينتجه العامل فى هذا الوقت المتبقى من يوم العمل يصبح قيمة فائضة يحصل عليها صاحب رأس المال .

فإذا فرضنا مثلا أن العامل يعمل عشر ساعات فى اليوم وإذا كان العامل ينتج ما يوازى قيمة الجهد الذى يبذله فى نصف هـــذا الوقت أى فى خمس ساعات فإن الخمس ساعات الباقية من العمل تصبح إنتاجاً فائضاً يتملكه صاحب رأس المال . وقـــد أطلق ماركس على النسبة بين العمل الضرورى وفائض العمل معدل فائض القيمة أو معدل الاستغلال .

ويجب أن نلاحظ هنا أن ماركس قـــد أوضح أن وقت العمل اللازم لإنتاج قوة العمل لا يمكن تحديده على أسس فيزيقية بحتة ولكن لا بد أن يحددة على أساس مستوى المعيشة فى المجتمع المحدد ثقافياً . فالظروف الجوية والفيزيقية لها تأثير ولكن لابد من أن نضع فى اعتبارنا الظروف الاجتماعية التى تعيش فى ظلها طبقة العمال وما تستلزمها من متطلبات . ويعنى ماركس بذلك أنه مع تحسن الإنتاج وزيادته وإرتفاع مستوى المعيشة فإن متطلبات العامل ومستلزمات أسرته المعقولة تتزايد باستمرار .

وهكذا يحـــدد كارل ماركس أساس الاستغلال فى المجتمع الطبقى الرأسمالى الحديث ، فيرى أن الرأسمالية كطبقة يستحيل عليها أن تقوم بتراكم لرأس المـال وأن تتملك بإستمرار مزيداً من الثروة مالم تحصل دائماً على فائض قيمة عمل العمال .

والعامل يضطر دائماً إلى بيع قوة عمله لأصحاب الأعمال فى سوق العمل الذى يحددون هم قواعده باستمرار . ومعنى ذلك أن العمال لا يحصلون إطلاقاً على القيمة الحقيقية لمـا يبذلونه من قوة عمل فى العملية الإنتاجية بل تذهب هذه القيمة دائماً إلى أصحاب الأعمال ولايحصلون هم أنفسم إلا على مايكفى بالوفاء بمتطلبات حياتهم الضرورية (١) .

إن هذا الاستغلال هـــو أساس الصراع الدائم بين طبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا . ويتخذ هـذا الصراع كما سبق أن ذكرنا أشكالا متعددة هى الشكل الاقتصادى والسياسى والأيديولوجى .

وقد رأى ماركس أن هذا التقسيم الطبقى للمجتمع إلى من يمـلكون وسائل الإنتاج وإلى من لا يملكون إلا طاقة عملهم يبيعونها إلى أصحاب رؤوس الأموال

---

(1) Giddens. opt. pp. 46-50.

ليس تقسيما أبدياً . كما أن الصراع الطبقى الذى يوجد فى مثل هذا المجتمع ليس أبدياً أيضاً ولا تماماً بالنسبة لكل المجتمعات . فمع تزايد حدة التناقض بين القوى الإنتاجيه من جهة وبين العلاقات الإنتاجيه من جهة أخرى ، ومع تزايد حدة الصراع الطبقى وتزايد وعى البرولتاريا وتنظيمها لنفسها ، ومع تزايد تناقضات المجتمع الرأسمالى فإن الثورة الاجتماعية سوف تقع لامحالة ، بحيث تتوصل الطبقة العاملة إلى السيطرة على المجتمع وتقيم حكم الديكتاتورية البرولتارية وبحيث يتم القضاء تماماً على الملكية الخاصة وعلى التقسيم الطبقى العدائى الذى كان سائداً فى المجتمع الرأسمالى . وهذا المجتمع الجديد الذى سينشأ على أنقاض المجتمع الرأسمالى هو المجتمع الاشتراكى .

فى هذا المجتمع الاشتراكى الذى تحدث عنه كارل ماركس سوف تحدث عملية إضفاء الطابع الجماعى لا الفردى على الإنتاج وسوف يتم القضاء على الملكية الخاصه وتصبح الملكية جماعية وتوزع الأجور على أساس مبدأ آخر مخالف تماماً لذلك المبدأ الذى كانت توزع على أساسه فى المجتمع الرأسمالى . فسوف يحصل العمال على أجورهم على أساس قيمة العمل الحقيقية التى أنفقوها فى عملهم بعد أن يخصم من هذه القيمة مايغطى الاحتياجات الجماعية مثل إدارة العملية الانتاجيه والخدمات الاجتماعية المختلفة مثل التعليم والصحة والترفية والسياحة .. الخ . ولكن فى إعادة التنظيم الاجتماعى هذا سوف يحتفظ فى نفس الوقت بالمبادىء الأساسية التى كانت سائدة فى المجتمع الرأسمالى من حيث كيفية تقدير العمل على أساس موضوعى أى على أساس كمية الوقت المستغرقة فيه . بعبارة أخرى سيظل العمل ينظر إليه على أساس قيمته التبادلية . ولكن وجه الاختلاف الأساسى بين الوضع فى الاشتراكية وفى الرأسمالية هو أنه بدلا من يصبح العمل ذو القيمة التبادلية قاصراً على الطبقة البورجوازيه ويحصل أصحاب رؤوس الأموال على فائض قيمة العمل فإن العمل سوف يصبح خاصية لجميع الناس فى المجتمع ولن يمتلك

فائض قيمته أفراد معينون . وبذلك ينتهى الاستغلال نظراً للقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وعلى التقسيم الطبقى ويحصل كل فرد على ما يوازى قيمة عمله ولا يسمح لأحد أن يحصل على فائض قيمة غيره من الناس .

وما ينطبق على عمليه الإنتاج ينطبق أيضاً على المجال السياسى . فبدلا من سيطرة البورجوازية على جهاز الدوله لخدمة مصالحها سوف تسيطر البروليتاريا على جهاز الدولة لكى تخدم مصالح هذه الطبقة الجديدة .

ولكن هذه المرحلة أى مرحلة الاشتراكيه إنما هى مرحلة إنتقالية بين مرحلة الرأسمالية والشيوعية . وذلك أن العملية الإنتاجية سوف يحكمها مبدأ جديد مخالف تماماً لما كان موجوداً من قبل بحيث يحصل المنتج لاعلى قيمة ما أنفقه من وقت فى العمل الإنتاجى ولكنهسوف يحصل على احتياجاته الفعليه . أى أنه لن ينظر للعمل على أنه سلعة تبادلية كما كان الحال فى المرحلة الرأسمالية وفى المرحلة الاشتراكية ولكن سينظر إليه بوصفه تنمية لقدرات الإنسان ومصدراً لمتعة الأفراد والمجتمع على السواء . ولن يتحقق ذلك بالطبع إلا نتيجة لتزايد هائل ومستمر فى تحسن وسائل الإنتاج تكفى إحتياجات كل البشر وبالتالى يمكن لكل شخص أن يشبع احتياجاته الأساسية سواء كانت هذه الاحتياجات احتياجات جسمية فيزيقية أو احتياجات ثقافية وروحية .

وفى المجتمع الشيوعى سوف تختفى الدولة لأنه لن يكون هناك أى نوع من الصراع بين البشر فى ذلك المجتمع وسوف يقوم الناس بأنفسهم على تصريف كل شئون حياتهم دون ماحاجة إلى قوة تمارس الإكراه أو القمع على الناس .

ويعزى ماركس ذلك إلى زيادة الروح الجماعية والأخلاق الشيوعية الجديدة فى المجتمع . ولكى يوضح ماركس ذلك استشهد بكميونة باريس فقد كانت

خصائص هذا الكميونة أو هذا المجتمع الشيوعى الذى استمر فترة قصيرة أنه لم تمكن به دولة وكان أعضاؤه ينظمون شئونهم بأنفسهم وكانوا يجمعون بين كل من السلطة التنفيذية والتشريعية فى نفس الوقت . وسوف يختفى فى المجتمع الشيوعى تقسيم العمل الذى كان سائداً فى المجتمع البورجوازى حيث سيحل محل العامل المتخصص فى نوع معين من العمل فرداً متطوراً يستطيع القيام بأعمال متنوعة ويستمتع بها . وسوف يصاحب ذلك بالطبع إختفاء ظاهرة التناقض بين العمل اليدوى والعمل العقلى من جهة والتناقض بين القرية والمدينة من جهة أخرى . وفى هذا المجتمع سوف تختفى أيضاً ظاهرة اغتراب الإنسان عن عمله وإغترابه عن أخيه الإنسان .

ظاهرة الاغتراب فى المجتمع الطبقى :

على الرغم من أن مفهوم الاغتراب قد ظهر فى كتابات كل من هيجل وفيورباخ إلا أن ماركس قد عالج هذا المفهوم على ضوء فلسفته الماديه الجدليه وأضفى عليه معنى جديدا غير ذلك الذى كان يقصده كل من هيجل وفيورباخ .

ونقطة الانطلاق عند ماركس فى تحليله لهذه الظاهرة السيكولوجيه الاجتماعيه التى تعنى بصفه عامه « أن يصبح الإنسان غريباً عن جانب من جوانب حياته » هى الواقع الاقتصادى الاجتماعى والعلاقات الانتاجيه التى يمارس الانسان فى ظلها العمل .

فقد سبق أن ذكرنا أن النظام الرأسمالى يحيل طاقه العمل إلى سلعة تباع وتشترى فى الأسواق . وقلنا أن ماركس قد توصل إلى أن قيمة هذه السلعة « أى قوة العمل » تتحدد مثل قيمه أى سلعه أخرى ، أى عن طريق وقت العمل اللازم اجتماعياً لإنتاجها . وهذا الوقت اللازم لإنتاج قوة العمل يتمثل فى الوقت المستغرق لإنتاج المستلزمات الأساسية لبقاء الإنسان العامل على قيد الحياة مثل الطعام والمسكن

والملبس له ولأسرته . ورأينا أن العامل عليه أن يستبدل العمل أو قوة عمله بقيم أخرى . وبهذه الكيفية فإنه يجعل هذا العمل غريباً عن نفسه أى يصبح عمله مغترباً عن ذاته ويصبح سلعة يسهل تبادلها فى السوق مثل أى سلعه أخرى . هذه السلعة (أى قوة عمل العامل) تصبح أكثر رخصاً كلما أنتج سلعاً أكثر . بعبارة أخرى يريد ماركس أن يقول أن تدهور قيمة الإنسان تتناسب عكسيا مع تزايد قيمه الأشياء التى ينتجها(١) .

إن ما ينتجه العامل يصبح غريباً عن ذاته ويقف فى مواجهته كقوة مستقلة لا يستطيع حيالها شيئاً . فالحياة التى منحها للشىء وحوله بها إلى سلعة تصبح ضده هو شخصياً كقوة غريبة عليه ومعادية له .

ويتخذ اغتراب العامل عن ناتج عمله صوراً متعددة ومتمايزة وتتخذ ظاهرة الاغتراب الأبعاد التالية :

١ — يفقد العامل السيطرة على التصرف فى ناتج عمله طالما أن ما ينتجه يتملكه آخرون غيره بحيث لايستفيد منه .

إن المبدأ الجوهرى فى اقتصاد السوق هو أن السلع تنتج من أجل التبادل وفى الإنتاج الرأسمالى يتحكم فى عملية التبادل وتوزيع السلع آليات أو مبادىء السوق الحرة . والعامل ذاته الذى يعامل كسلعة تباع وتشترى فى السوق لا يكون له بهذه الكيفيه القدرة على تحديد مصير ماينتجه . فبادىء السوق تعمل بطريقه تساعد على زيادة مكاسب الرأسمالى على حساب مصالح العامل .

وهكذا فإنه حسب قول ماركس: «كلما أنتج العامل أكثر كلما كانت قدرته على الاستهلاك أقل ، وكلما خلق مزيداً من القيم المادية كلما قلت قيمته أو أصبح عديم القيمة » .

---

(1) T. B. Bottomore : Karl Marx, Early Writings New York. 1941 p. 121.

٢ — ويغترب العامل أيضا خلال عملية العمل ذاتها :

« فإذا كان نتاج العمل هو الإغتراب فإن الإنتاج ذاته لابد أن يكون إغترابا إيجابيا — أى أنه يحدث اغتراب للنشاط وأيضا نشاط إغترابي » . والعمل ذاته لا يقدم إشباعا ذاتيا يجعل العامل قادراً على تنمية طاقاته العقلية والفيزيقية تنمية حرة طالما أن العمل الذى يؤديه مفروض عليه بقوة الظروف الخارجية فحسب . إن العمل يصبح وسيلة لغاية لا غاية فى حد ذاته ويتضح ذلك من حقيقة أنه بمجرد أن تزول قوة الإجبار أو الإكراه عن العمل نجد أن الناس تهرب من عملها كما لو كان هذا العمل طاعونا .

٣ — وبما أن كل العلاقات الاقتصادية هى أيضا علاقات اجتماعية فإنه لا بد أن نخلص إلى أن إغتراب العمل له آثار إجتماعية مباشرة . فتصبح العلاقات الإنسانية فى المجتمع الرأسمالى مجرد آليات فى السوق . ويتضح ذلك بشكل مباشر فى مغزى النقود فى العلاقات الاجتماعية . إن النقود فى المجتمع الرأسمالى تشجع على ترشيد العلاقات الاجتماعية طالما أنها تمثل معياراً مجرداً يمكن على أساسه المقارنة بين أكثر الخصائص اختلافا ولاتجانسا وإستبدال كل منها بالآخر (فالذى يستطيع أن يشترى الشجاعة يصبح شجاعاً مهما كان جباناً) فصاحب النقود يردد دائما أن نقوده قادرة على أن تتبادل كل خاصية وكل شىء بغيره مهما كانت هناك من تناقضات بين هذه الأشياء وبين بعضها البعض .

٤ — يعيش الناس فى علاقة متبادلة مع العالم الطبيعى . والواقع أن التكنولوجيا والحضارة كلاهما تعبير عن نتاج هذه العلاقة التبادلية وهما الخصائص الرئيسية التى تميز الإنسان عن الحيوان . إن بعض الحيوانات تنتج بالطبع ولكن بطريقة آلية وبشكل تكيفى . والعمل المغترب يختزل النشاط الإنتاجى الإنسانى إلى مستوى التكيف بدلا من مستوى السيطرة الإيجابية على الطبيعة . وهذه العملية تعزل الفرد الإنسانى عن جنسه البشرى أى عما يجعل حياة البشر متميزة عن حياة الحيوان . والذى يميز الحياة البشرية عن حياة الحيوانات كما يرى ماركس هو أن القدرات

والإمكانيات والميول الإنسانية تتشكل من خلال المجتمع . والواقع أنه ليس هناك فرد إنسانى واحد لم يولد فى مجتمع ولم يتشكل من خلاله وكل فرد هو فى الواقع مستقبل للحضارة المتراكمة للأجيال السابقة وفى نفس الوقت يسهم فى تعديل وتغيير العالم الذى يعيش فيه من خلال تفاعله مع العالم الطبيعى والاجتماعى . إن الحياة الفردية للإنسان وحياة النوع ليسا شيئين مختلفين ، فماركس يؤكد بأنه على الرغم من أن الإنسان فرد فريد ومتميز فإنه فى نفس الوقت عبارة عن كل أو كل مثالى فهو الوجود الذاتى للمجتمع ، كما تتم الخبرة به والتفكير فيه وعلى ذلك فإن عضوية الإنسان فى المجتمع مع الجهاز التكنولوجى والحضارى الذى يدعم هذا المجتمع والذى يجعل وجوده ممكنا هى التى تؤدى إلى تمايز الفرد الإنسانى عن الحيوان والتى تصبغ على الإنسان صفته الإنسانية . إن هناك حيوانات لها أعضاء حس مشابهة لتلك التى لدى الإنسان ولكن إدراك الجمال الذى فى الصورة أو الصوت فى الفن أو فى الموسيقى صفة وملكة إنسانية وهى من خلق المجتمع . والنشاط الجنسى أو عملية الأكل والشرب ليست بالنسبة للإنسان مجرد إشباع بسيط لدوافع بيولوجية ولكنها تحولت خلال عملية تطور المجتمع إلى تفاعل خلاق مع العالم الطبيعى وإلى أفعال يحصل منها الإنسان على إشباعات متعددة . إن ظهور الحواس الخمس هو نتاج التاريخ السابق ولكن ليست الحواس الخمس فقط ولكن ما يسمى بالحواس الخلقية والحواس العملية (مثل الرغبة والحب ـ ـ ـ ألخ) أى الإحساس الإنسانى والطابع الإنسانى للحياة هى التى يمكن أن تأتى فقط إلى الوجود عن طريق تواجد موضوعها أى من خلال الطبيعة التى اكتسبت طابعا إنسانيا .

وفى المجتمع البورجوازى يغترب الناس بأشكال محددة عن الروابط بالمجتمع التى تصبغهم بصبغة الإنسانية ، فأولا يؤدى العمل المغترب إلى إغتراب حياة النوع عن الفرد ، وثانيا يجعل حياة الفرد هدفا لحياة النوع فى شكلها المجرد والمغترب . ونجد فى الرأسمالية ســـواء فى النظريه أو فى الممارسة أن حياة واحتياجات الفرد تبدو وكما لو كانت من معطيات عضويته فى المجتمع أى مفروضة عليه بشكل مستقل

ونجد هذه الفكرة معبرا عنها بوضوح فى الاقتصاد السياسى الذى يقيم نظريته عن المجتمع على فكرة الفرد المنعزل الذى يسعى فقط إلى الاشباع الذاتى . والاقتصاد السياسى التقليدى بهذه الكيفية يجعل الملكية الخاصة جزءاً من جوهر الإنسان كما يقول ماركس . ولكن الفرد لا يصبح فقط منعزلا عن المجتمع ولكن ما هو اجتماعى يصبح خاضعا لما هو فردى . فالطاقات الإنتاجية للمجتمع تستخدم فى حالة غالبية أفراد المجتمع الذين يعيشون على حدود الكفاف - من أجل تحقيق الحد الأدنى من الظروف اللازمة لبقاء الكائن الحى على قيد الحياة . إن جماهير العمال الذين يشتغلون بالأجر يعيشون فى ظل ظروف يحكم نشاطهم الإنتاجى فيها أكثر حاجات البقاء الفيزيقى أولية وبدائية .

ولا يقتصر الاغتراب على العامل فحسب أو على طبقة البروليتاريا ولكنه يمتد ليشمل كل المجتمع . والاغتراب يؤثر على كل مستويات المجتمع ويشوه الوظائف الطبيعية للإنسان . فالحواس التى هى المصادر الأولى للحرية والسعادة ترد إلى حاسة تملك واحدة . والحواس لا تنظر إلى موضوعاتها إلا من زاوية إمكان أو عدم إمكان تملكها . بل إن اللذة والمتعة ذاتها تتحولان من شروط ينمى الناس فى ظلها طبيعتهم الكلية بحرية إلى أحوال للتملك والاقتناء الأنانى . (١)

والإنتاج الرأسمالى بما فيه من إغتراب للعمل يدمر الإنسان . فالإنسان العامل لا يشعر بأنه يسلك بحرية إلا حين يؤدى وظائفه الحيوانية كالأكل والشرب والتناسل أما فى وظائفه الإنسانية فإنه ليس إلا حيواناً . فالحيوانى يصبح هو الإنسانى والإنسانى يصبح هو الحيوانى .

التشيؤ وفيتشية السلع : —

يرتبط بمفهوم الاغتراب فى كتابات ماركس مفهوم آخر عالجه فى كتاب رأس المال

---

(١) أنظر العقل والثورة مرجع سبق ذكره ص ٥٧٢ .

هو مفهوم التشيؤ . والتشيؤ فى رأى ماركس هو العملية التى يحيل فيها المجتمع الرأسمالى كل العلاقات الشخصية بين الناس إلى علاقات موضوعية أو لاشخصية بين أشياء .

إن النظام الرأسمالى يجعل العلاقات بين الناس فى المجتمع تتم من خلال السلع التى يتبادلونها . والذى يحدد المركز الاجتماعى للأفراد ومستوى معيشتهم ودرجة إشباع حاجاتهم ومدى حريتهم هو فى الواقع قيمة السلع التى يتملكها هؤلاء الأفراد أما الخصائص الشخصية للفرد وحاجاته الفردية فإنها لا تدخل كثيراً فى الاعتبار فقد سبق أن ذكرنا أن الصفات الشخصية يمكن شراؤها بالمال فالشجاعة كما قال ماركس يمكن أن تشترى مهما كان الشخص جبانا والنبل يمكن أن يشترى مهما كان صاحبه خسيساً . وهكذا نجد أن أكثر صفات الإنسان إنسانية تصبح مرتبطة بالمال ، وكما نعلم فالمال هو البديل العام للسلع المتبادلة بين الناس والعلاقات بين بعضهم البعض علاقات بين ما يملكونه من سلع وبذلك تتحول العلاقات الاجتماعيه بين الأفراد إلى شيىء أو بعبارة أخرى إلى صفات للأشياء أو للسلع . إن أصل فيتشية السلع يرجع إلى الطابع الاجتماعى الخاص بالعمل الذى ينتج هذه السلع (١) : وهكذا يقرر ماركس أن النظام الرأسمالى بما يتضمنه من اقتصاد السوق يحول العلاقات الاجتماعية الفعلية بين الناس إلى علاقات آلية بين أشياء . وبذلك تكون هذه العمليات التى تضمنها النظام الرأسمالى بمثابة سلب كامل لإنسانية الإنسان . ذلك أن تنظيم العمل وأسلوبه فى هذا النظام يشوه كل القدرات الإنسانية ويؤدى تراكم الثروة لدى القلة من أصحاب رؤس الأموال إلى زيادة حدة الفقر عند الغالبية . كما يؤدى التقدم التكنلوجى إلى سيطرة المادة الجامدة على العالم الإنسانى . ويجب أن نذكر هنا أن آراء كارل ماركس هذه عن التشيؤ وفيتشية السلع وعن التكوينات الاقتصادية الاجتماعية وعن اقتصاد السوق إنما جاءت جميعها بعد نقد

(١) أنظر العقل والثورة ص ٢٧٣ .

كلمة فيتشية تعنى العبودية . وهكذا فإن المقصود بفتشية السلع هو عبودية الإنسان للسلعة وتقديره الهائل لها بحيث تصبح ذات وزن متضخم فى حياته .

وتحليل للاقتصاد السياسي السائد في أوربا في القرن التاسع عشر ونظريته التي إتهمها ماركس بانها أغفلت تماما العنصر الإنساني والاجتماعي في الاقتصاد وتعاملت مع هذا الاقتصاد كما لو كان شيئاً جامداً خاليا من الحياة الإنسانية . وفي ذلك يقول ماركس أن كل ظاهرة اقتصادية هي في نفس الوقت ودائما ظاهرة اجتماعية وأي نوع من الاقتصاد إنما يتطلب وجوده أولا وجود نوع محدد من المجتمع .

وعلى الرغم من تأكيد كارل ماركس على الأهمية العظمى للعلاقات الاقتصادية المادية بين الناس وتقريره أنها تشكل أساس التطور الاجتماعي إلا أنه رأى أن فهم عملية التطور الاجتماعي لايمكن أن يتم اعتماداً على معرفة العوامل الاقتصادية فحسب : فبالإضافة إلى النشاط الإنتاجي الذي يمارسه الناس فإن المجتمع له أيضا حياته الروحية . فالناس في أنشطتهم المختلفة يسترشدون بأفكار سياسية وخلقية معينة ويكون لديهم نظريات علمية وآراء واتجاهات عن شتى الموضوعات وكل هذه الآراء والاتجاهات ذات طبيعة اجتماعية فيما يتعلق بأصلها وأهميتها وتنتمي إلى ذلك المجال الذي أطلق علية ماركس تسمية الوعي الاجتماعي . وعلى ذلك فإن الوعي الاجتماعي له أهمية كبيرة في التطور الاجتماعي .

الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي : —

يقول ماركس في كتابه « إسهام في نقد الاقتصاد السياسي » : —

« يدخل الناس خلال عملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة مع بعضهم البعض . وهذه العلاقات مستقلة عن إرادتهم . وتتفق هذه العلاقات الإنتاجية مع مرحلة التطور في القوى المادية في الإنتاج لديهم . ومجموع هذه العلاقات الإنتاجية يشكل البناء الاقتصادي للمجتمع أو الأساس الحقيقي له الذي يبني عليه الأبنية الفوقية القانونية والسياسية والذي تقابله أشكال محددة من الوعي الاجتماعي . ونمط الانتاج

فى الحياة المادية هو الذى يحدد الطابع العام للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية للحياة . فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ولكن على العكس من ذلك يحدد الوجود الاجتماعى للناس وعيهم » .

ويتضح من ذلك أن ماركس على عكس الفلاسفة المثاليين وعلى عكس الاتجاه المثالى فى علم الاجتماع المستمد من هذه الفلسفة مثل مؤلفات أوجست كونت وإميل دوركايم ، وماكس فيبر ومن تلاهم من علماء الاجتماع المثاليين يبدأ بالتسليم بأن الأساس الاقتصادى المادى للمجتمع هو الذى يتشكل بناء عليه الوعى الاجتماعى وأن القوى الأساسية المحركة للتاريخ هى القوى الاقتصادية الاجتماعيه وليست القوى الفكرية . وماركس يرى أن علاقات الإنتاج هى أساس الوعى الاجتماعى .والوعى الاجتماعى عند ماركس يمكن تعريفه بأنه « مجموع الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى توجد لدى الناس والتى تعكس واقعهم الموضوعى أى مجتمعهم الإنسانى والطبيعة » . وبما أن الوجود الاجتماعى للناس يتصف بالتعقيد والتنوع ، فإن الوعى الاجتماعى يتصف أيضاً بالتعقيد والتنوع . ويدل استعراض التاريخ الاجتماعى أنه مع تغير الوجود الاجتماعى للناس يتغير أيضا وعيهم الاجتماعى فتختفى الأفكار القديمة وتظهر بدلا منها أفكار جديدة تتفق مع الظروف الجديدة والاحتياجات الاجتماعية الحديثة . ويمكن أن نلاحظ ذلك بما طرأ على الأفكار والأيديولوجيات فى المجتمعات الأوربية بعد أن انتقلت هذه المجتمعات من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية التى اتسمت بنوعية جديدة من العلاقات الإنتاجية إن النظريات والفلسفات والآراء القانونية والأخلاق والقيم والعادات والتقاليد التى ظهرت فى المجتمع الرأسمالى على أنقاض المجتمع الإقطاعى إنما تثبت صدق هذه المقولة لأنها تختلف إختلافاً كبيراً عن تلك التى كانت سائدة فى العصر الإقطاعى . وبالمثل يمكن القول أن الوعى الاجتماعى فى المجتمعات الاشتراكية يختلف عنه

فى المجتمعات الرأسمالية . فمع زوال الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وإستبدالها بالملكية العامة أو الجماعية ظهرت روح جـــديدة بين الناس وحلت الاتجاهات الجماعية محل الاتجاهات الفردية الأنانية .

لقد أكد ماركس على أن الوجود الاجتماعى أى النشاط الإنتاجى المادى للناس هو الذى يحـــدد وعيهم الاجتماعى . ولكنه أكد أيضاً على أن الوعى الاجتماعى يتصف أيضاً بخاصية الاستقلالية النسبية فى تطوره . فالوعى الاجتماعى قد يتخلف عن تطور الوجود الاجتماعى أو قد يسبقه وتتضح الاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى فى إستمرارية التطور . فالوعى ليس فى علاقة سلبية مع الوجود ولكن الوعى يؤثر تأثيراً إيجابياً على الوجود الاجتماعى .

ويتخلف الوعى الاجتماعى عن الوجود الاجتماعى لأن الوجود الاجتماعى للناس هو الذى يتغير أولاً ثم يتبعه بعد ذلك تغير فى وعيهم وتنجم هـذه الهوة بين الوجود والوعى أيضاً نتيجة لقوة الأفكار والآراء القديمة ، ذلك أن الطبقات الحاكمة تستخدم كل الأساليب المتاحة لها فى نشر أيديولوجيتها بين أعضاء المجتمع . والوعى الاجتماعى للناس لا يتخلف فقط عن وجودهم الاجتماعى ولكنه فى ظل ظروف معينة يمكنه أن يسبق هذا التطور فى الوجود الاجتماعى . فيمكن للأشخاص الذين يقومون بتحليل قوانين المجتمع ويكشفون عن الاتجاهات العامة للتطور التاريخى أن يتنبأوا بالمستقبل أو يخلقوا نظريات تسبق عصرهم وتوضح الطريق للتطور لسنوات كثيرة قادمة .

والاستمرارية فى التطور الأيديولوجى إنما هى دليل واضح على الاستقلال

النسبي للوعى الاجتماعى ، فالطبقة الجديدة أى التى تصل إلى السيطرة على وسائل الانتاج فى المجتمع عندما تخلق أيديولوجيتها فإنها لاتتخلى عن الإنجازات السابقة للفكر الإنسانى ولكنها تتمثل هذه الانجازات وتضعها فى خدمتها . والإستمرارية فى تطور الأفكار ذات أهمية عظيمة فى الحياة الاجتماعية . فإذا كان الناس عاجزين عن استخدام إنجازات حضارة الماضى فإنهم سوف يكونون مضطرين دائماً إلى أن يبدأوا من نقطة الصفر وإلى أن يكتشفوا قوانين تم إكتشافها منذ زمن بعيد مضى . ولكن الطبقات المختلفة تختلف فى نظرتها إلى التراث الأيديولوجى . فالطبقات الرجعية تأخذ من الماضى الأفكار الرجعية وتكيفها بحيث تجعلها تتمشى مع الظروف التاريخية الجديدة ومع مصالحها . أما الطبقات الثورية فإنها تأخذ من التراث الأيديولوجى ما لم يفقد دلالته الإيجابية وما يمكن أن يساعد على التطور الإنسانى .

وعلى الرغم من أن ماركس يعطى الأولوية العظمى فى تحليله للمجتمع للوجود الاجتماعى إلا أنه رأى أن الوعى الاجتماعى يلعب دوراً هاماً وإيجابياً فى التطور الاجتماعى . فالأفكار التى توجد لدى الناس قد تساعد على تطور المجتمع أو قد تكون عائقاً أمام هذا التطور . ولكن الدور الذى تلعبه هذه الأفكار يعتمد على الطبقة التى تتبناها أى ما إذا كانت هذه الطبقة تقدمية أو رجعية أو ما إذا كانت هذا الأفكار تعكس متطلبات الحياة المادية للمجتمع ومدى إرتباط هذه الأفكار بمصالح الجماهير . ولكن مهما كانت هذه الأفكار جديدة وتقدمية فإنها لا تستطيع وحدها على الإطلاق تغيير النظام الاجتماعى القديم وخلق نظام جديد يحل محله ، ذلك أن هذه الأفكار لابد لكى تصبح قوة مادية من أن تكون متمثلة فى أذهان الناس فالناس الذين يتمثلون الأفكار التقدمية هم الذين يستطيعون جعل القوة الاجتماعية قادرة على حل المشكلات الاجتماعية الملحة .

تعليق عـام :

تنص النظرية الماركسية عن المجتمع (المادية التاريخية) على المسلمات الأساسية التالية :ــ

١ ــ أن أساس الواقع الاجتماعى والحياة الاجتماعية مادى وليس فكرى ، وبالتالى فإن نقطة البدء فى تحليل المجتمع يجب أن تكون الأفراد الحقيقيين بلحمهم ودمهم ، وهؤلاء الأفراد كائنات حية حقيقية لها احتياجات فيزيقية حقيقية . ولكى يعيش هؤلاء الأفراد لابد أن يتفاعلوا مع الطبيعة وهذا التفاعل هو أساس عملية الحياة . والإنسان لا يتفاعل مع الطبيعة تفاعلا سلبيا ولكنه يتفاعل معها تفاعلا إيجابيا بحيث ينتج من خلال عمله ما يحتاج إليه . والعملية الإنتاجية ليست فقط عملية طبيعية ولكنها أيضا اجتماعيه ، حيث يضع الناس لأنفسهم نظما تحدد علاقاتهم الإجتماعية فى العمل .

٢ ــ أن الإنسان كائن قابل للتطور دائماً وقادر على تغيير عالمــــه الطبيعى والإجتماعى .

٣ ــ أن التطور الاجتماعى يحدث نتيجة الصراع الدائم بين الإنسان والطبيعة من جهة وبين المجموعات الاجتماعية المتصارعة فى المجتمعات الطبقية من جهة أخرى .

٤ ــ أن المجتمع يكون فقط فى حالة ثبات نسبى ، ذلك أنه ما أن يظهر تكوين اجتماعى ــ اقتصادى جديد على أنقاض تكوين سابق حتى تظهر فيه أيضا بذور فنائه ، وعلى الرغم من ثباته النسبى إلا أنه تحدث فيه تغيرات كمية يؤدى تراكمها إلى حدوث تغير كيفى فيه .

٥ — أن وظيفة العالم ليست فقط دراسة الظاهرات الاجتماعية من أجل فهمها ولكنها أيضاً تشمل الممارسة أو العمل من أجل تغييرها وفقا للقوانين الاجتماعية التى يكتشفها .

٦ — إن وحدة التحليل الأساسية ليست هى الفرد ولكن التكوين الاجتماعى الإقتصادى الذى تكون تاريخياً .

٧ — أن النظرية الاجتماعية يجب أن تضم القوانين العامة التى تحكم المجتمع الانسانى فى تطوره والقوانين النوعية التى تحكم كل نمط من أنماط المجتمعات فى مرحلة تاريخية محددة والتى تحكم الظاهرات النوعية .

٨ — المتغيرات التى يتم على أساسها تفسير الظاهرات الاجتماعية هى المتغيرات الاقتصادية — الاجتماعية ذات الطبيعة التاريخية .

وتصور النظرية الماركسية عن المجتمع النظام الشيوعى على أنه النظام الأمثل للبشرية على عكس النظريات الاجتماعية الغربية التى تؤكد على أن النظام الأمثل هو الرأسمالية .

وتنحاز النظرية الماركسية بوضوح للطبقات العاملة وتؤكد أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع كما تدعو إلى القضاء على الطبقية والعلاقات العدائية بين المجموعات عن طريق إلغاء الملكية الخاصة بحيث ينتهى الصراع الطبقى فى نهاية الأمر وتسود العلاقات الإنسانية الحقيقية بين أفراد المجتمع .

وقد قدم ماركس أدلة تاريخية على صدق نظريته واعتمد على الكثير من الأدلة من العلوم الاخرى .

وللنظرية طبيعة ثورية حيث تدعو إلى العمل دائماً على تغيير الواقع الاجتماعى وخلق أوضاع جديدة ومتطورة دائما .

ومنذ أن ظهرت النظرية الماركسية ، بل حتى منذ ظهرت بوادر الفكر الاشتراكى فى أوربا ، وهى تتعرض لنقد شديد ، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض العلماء الاجتماعيين يرون أن علم الاجتماع الغربى الأكاديمى نشأ كرد فعل ضد الماركسية ونقد ونفى لها . وقراءتنا النظريات السابق عرضها تشكل فى الواقع قراءة النقد الموجه للماركسية . وسوف نرى أن الماركسية مازالت تتعرض للنقد الشديد فى كتابات علماء الاجتماع الغربيين التقليديين من جهة وأنها مازالت مصدرا للأفكار الراديكالية فى علم الاجتماع الغربى من جهة أخرى .

الباب الثالث

صياغات حديثة لمسلمات قديمة

الفصل التاسع : البنائية الوظيفية .

الفصل العاشر : الظاهراتية (الفينومينولوجيا).

الفصل الحادى عشر: السلوكية الجمعية .

الفصل الثانى عشر : الراديكالية .

الفصل التاسع

البنائية الوظيفية

يمكننا القول أن ما أصبح يعرف بالاتجاه البنائى الوظيفى فى النظرية الاجتماعية يمثل أكثر الاتجاهات رواجاً فى علم الاجتماع فى خلال الخمسين سنة الأخيرة فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا . وخلال هذه السنوات الخمسين ظهرت مؤلفات عديدة حول هذا الاتجاه النظرى فى علم الاجتماع سواء منها ما تناولته بالشرح أو بالتعديل والاضافة أو النقد . وقد اعتبر هذا الاتجاه من المعالم الرئيسية لعلم الاجتماع الأكاديمى المعاصر .

ويميل كثير من علماء الاجتماع الذين يروجون لهذا الاتجاه إلى إعتبار أن علم الانثربولوجيا هـــو المصدر الأساسى لذلك الأتجاه ، ويشيرون بصفة خاصة إلى كتابات كل من راد كلف براون ومالينوفسكى .

إلا أن هناك علماء اجتماع آخرين يرون أن هذا الميل من جانب علماء الاجتماع الوظيفين إلى الربط بين نشأة الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع وبين الاتجاه الوظيفى فى الأنثربولوجيا الثقافية إنما هو تشويه للحقيقة ومحاولة لإخفاء الطابع الإيديولوجى المحافظ لذلك الاتجاة (١) . فالواقع أن الاتجاه الوظيفى كما سنرى يعتمد تماما على المسلمات الأساسية للاتجاه العضوى الذى كان سائداً فى النظريات الاجتماعية الأولى فى علم الاجتماع والذى تخلى عنه علماء الاجتماع بعدما أصبح هـذا الاتجاه كما يقول مارتنديل سيئ السمعه وموصوماً بوصمة الرجعية . والمسلمة الأساسية التى تعتمد

(I) Don Martindale : Nature and Types of sociological Theory opt. cit. pp : 448-454.

عليها البنائية الوظيفية والتى تدور حول فكرة تكامل الأجزاء فى كل واحد والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع هى التى كانت تدور حولها فكرة الاتفاق العام عند كونت وفكرة التكامل الذى يصاحب التمايز عند سبنسر ونظرة باريتو للمجتمع على أنه فى حالة توازن . كما أن نفس هذه المسلمة كانت موجودة فى أعمال إميل دوركايم [١].

والبنائية الوظيفية ليست فى واقع الأمر سوى صياغات جديدة لأفكار ومسلمات قديمة تعود إلى القرن التاسع عشر وترتبط بظهور ذلك الإتجاه القوى ذى الصبغة العلمية للدفاع عن النظام الرأسمالى وتبريره . وعلى ذلك فإن المؤسسين الحقيقين للوظيفية هم علماء الاجتماع الأوائل من الوضعيين العضويين . وتعتمد الوظيفية بصفة أساسية على فكرة النسق العضوى Organic system التى اعتمدت عليها النظريات العضوية ، وهى الفكرة التى مؤداها أن كل شىء يمكن النظر إليه باعتباره نسقاً أو كلا متكاملا يتكون من أجزاء مثل الكائن الحى . ويجدر بنا قبل أن نستطرد فى شرح العلاقة بين الوظيفية وبين الوضعية والأنثروبولوجيا الثقافة أن نحدد أولا الخصائص الأساسية للاتجاه الوظيفى فى النظرية الاجتماعية .

على الرغم من أن هناك عديدا من علماء الاجتماع الذين ينتمون إلى الاتجاه الذى يعرف باسم الوظيفية ، مثل روبرت مرتون وجورج هومانز وتالكوت بارسونز وماريون ليفى وروبرت بيلز وغيرهم ، وعلى الرغم مما يوجد من اختلافات بين هؤلاء العلماء إلا أنه يمكننا القول بصفة عامة أن الاتجاه الوظيفى يعتمد على ستة أفكار رئيسية أو مسلمات محورية هى :

١ — يمكن النظر إلى أى شىء سواء كان كائنا حيا أو كائنا اجتماعيا وسواء

Don Nartindale : opt. cit. p, 448.

كان فردا أو بجموعة صغيرة أو تنظيم رسمى أو مجتمع أو حتى العالم بأسره على أنه نسق أو نظام System . وهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة . فجسم الإنسان نسق يتكون من مختلف الأعضاء والأجهزة ، والجهاز الدورى فيه مثلا عبارة عن نسق يتكون من مجموعة من الأجزاء ، وشخصية الفرد نسق يتكون من أجزاء مختلفة مثل السلوك والحالة الانفعالية والعقلية . . . ألخ . وكذلك المجتمع والعالم .

٢ — لكل نسق احتياجات أساسية لابد من الوفاء بها وإلا فإن النسق سوف يفنى أو يتغير تغيرا جوهريا . فالجسم الإنسانى مثلا يحتاج للاكسوجين والنتروجين وكل مجتمع يحتاج لأساليب لتنظيم السلوك (القانون) ومجموعة لرعاية الأطفال (الاسرة) وهكذا .

٣ — لابد أن يكون النسق دائما فى حالة توازن Equilibrium ، ولكى يتحقق ذلك فلابد أن تلبى أجزاءه المختلفة احتياجاته . فإذا اختلت وظيفة الجهاز الدورى مثلا فإن الجسم سوف يختل ويصبح فى حالة من اللاتزان Disequibrium

٤ — وكل جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفياً Functional أى يسهم فى تحقيق توازن النسق وقد يكون ضارا وظيفيا Dys-Functional أى يقلل من توازن النسق وقـــد يكون غير وظيفى Non- Functional أى عديم القيمة بالنسبة للنسق .

٥ — يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل ، فحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلا يمكن أن تقوم بها الأسرة أو دار الحضانة ، وحاجة المجموعة إلى التماسك قد تتحقق عن طريق التماسك بالتقاليد أو عن طريق الشعور بالتهديد من عدو خارجى .

٦ — وحدة التحليل يجب أن تكون الأنشطة أو النماذج المتكررة فالتحليل الاجتماعى الوظيفى لايحاول أن يشرح كيف ترعى أسرة معينة أطفالها ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة كنظام لهذا الهدف (١) .

وهدف الوظيفة أو التفسير الوظيفى هو الكشف عن كيفية إسهام أجزاء النسق فى تحقيق النسق ككل لاستمراريته أو فى الإضرار بهذا الاستمرارية . فعالم الاجتماع الوظيفى قد يحاول الكشف عن دور وسائل الاتصال الجمعى فى المجتمعات المركبة فى تحقيق المجتمع لتوازنه ، وقد يحاول أن يكشف عن الجوانب السلبيه للحرب أو الجريمة بالنسبة للمجتمع .

ولكى نوضح أكثر المقصود بالتحليل الوظيفى نأخذ كمثال تحليل كنجزلى دفيز وولبرت مور للتدرج الاجتماعى (أو التفاوت الطبقى) يقول المؤلفان أن التدرج الاجتماعى الذى هو عبارة عن ترتيب للمجموعات أو الأفراد فى درجات أو رتب ذات مكانات مختلفة مثل الطبقات الاجتماعية أو الفئات المهنية شىء وظيفى بالنسبة للمجتمع ، أى أنه لابد أن يكون قائما باستمرار ، لأن هذا التدرج هو أساس شغل المراكز الهامة فى المجتمع بأكثر الإشخاص كفاءة . ويعنى ديفز ومور بذلك أنه إذا كانت هناك مساواة بين الناس فى أوضاعهم وفيما يحصلون عليه من مزايا فإن المجتمع لن يستطيع المحافظة على حالته السوية . فالمراكز السياسية والاقتصادية الهامة ستظل خالية — أو ستشغل بأشخاص غير أكفاء مما سيؤدى إلى اختلال المجتمع . ويفترض ديفز ومور أن عدد الافراد الأكفاء والمؤهلين لشغل هذه المراكز محدود وأمثال هؤلاء الافراد لابد أن يضحوا فى البداية خلال عملية

---

(1) Robert Hagedorn and Sanford labovitz : An Introduction into Sociological orientations. (John Wiley and sons Inc. New York. 1973). pp. 38.

تدريبهم وبالتالى فإنهم لابد أن يحصلوا على امتيازات كافيه تشجعهم على تحمل فترة التدريب هذه . وعلى ذلك فإن نظام التدرج يسهم فى أداء المجتمع لوظائفه ، أى أنه يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بوصفه نسقا .

ويرى عالم اجتماع آخر أن الأسرة تقوم بإشباع حاجات كل من الفرد والمجتمع أى أنها وظيفة بالنسبة للاثنين . فوظائف الأسرة بالنسبة للمجتمع — هى :

١ — المحافظة على النوع .
٢ — تنظيم السلوك الجنسى .
٣ — تزويد الأطفال باحتياجاتهم الجسمية والاقتصادية والنفسية .
٤ — المحافظة على التراث الثقافى ونقله من جيل لآخر .

أما بالنسبة للفرد فأنها تؤدى له الوظائف الآتية :

١ — البقاء الفيزيقى .
٢ — الإشباع الجنسى .
٣ — الرعاية والحماية .
٤ — التنشئة الاجتماعية .
٥ — اكتسابه صفتة الاجتماعية .

ويستند التحليل الوظيفى كما نرى وكما يؤكد دون مارتندال على التصور العضوى للمجتمع ، أى النظر للمجتمع بوصفه يشبه الكائن الحى ، وبذلك تستمد الوظيفية مسلماتها الأساسيه من الاتجاه العضوى الوضعى الذى أسسه كونت ودوركايم وغيرهما . والذى اعتـــمد عليه علماء الأنثروبولوجيا فى تحليلاتهم الوظيفية للمجتمعات البدائية (مثل رادكليف براون ، ومالينوفسكى) ثم ما لبث تأثيرهم أن انتقل مرة أخرى إلى علم الاجتماع .

وقد استخدمت كلمة وظيفة بعدة معان فى علم الاجتماع هى :

١ — الإسهام الذى يقدمه الجزء للكل ، وهذا الكل قـد يكون المجتمع أو الثقافة وهذا هو المعنى الذى استخدمها به دوركايم ورادكليف براون ومالينوفسكى.

٢ — الإسهام الذى تقدمه الجماعة إلى أعضائها أو الإسهام الذى يقدمه المجتمع الكبير للجماعات الصغيرة التى يضمها .

٣ — تستخدم للإشارة إلى دراسة الظاهرات الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لأبنية اجتماعية مثل أنساق القرابة أو الطبقة .

٤ — تستخدم بمعنى مناسب .

وأهم فكرة فى الوظيفية أن الوحدات أو الأجزاء ذات أهمية ثانوية بالمقارنة بالنسق عند تحليل المجتمع[1] .

ويختلف علماء الاجتماع الذين يتبنون الاتجاه الوظيفى فى نوعية الأنساق التى يهتمون بملاحظتها . فنهم من يركز على تحليل أنساق صغيرة (كالمجموعات) ويمثل هـذا الاتجاه كورت ليفين ويعرف باسم وظيفية الوحدة الصغرى — Micro functionalism ومنهم من يركز على تحليل أنساق كبيرة (كالمجتمع) ويمثل هذا الاتجاه روبرت مرتون وتالكوت بارسونز وجـورج هومانز ، ولكن جميع الوظيفيين يشتركون فى أن الخصائص التى يحللونها دائماً خصائص معنوية أو سيكولوجية أو فكرية . أى أنهم مثاليون Idealists

وسوف نعرض هنا باختصار لاثنين من ممثل الاتجاه الوظيفى وأشهرهم هما عالمى الاجتماع الأمريكى تالكوت بارسونز Talcott Parsons وروبرت مرتون Robert, Merton . تأثر تالكوت بارسونز فكريا بعـالم الاجتماع الفرنسى إميل دوركايم ، وعالم النفس النمساوى سيجموند فرويد والإيطالى صاحب نظرية الصفوة فلفريدو باريتو وعالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر ، وكذلك بعلماء الاقتصاد التقليديون .

---

(1) John Rex : Key Problems of Sociological Theory. (Routledge & kegan Paul, London, 1976) pp. 66—70.

وقد بدأ بارسونز كتاباته النظرية مسترشداً بماكس فيبر ، ويمكن صنيف مؤلفاته الأولى تحت نظريات الفعل الاجتماعى السابق الحديث عنها .

ويرتكز الإطار النظرى لبارسونز على أربع مفهومات أساسية هى :

الفعل الاجتماعى Social Action .

— والموقف Situation

— والفاعل Actor

— وتوجيهات الفاعل Actor's orientation

ويرى بارسونز أن كل فعل عبارة عن سلوك ، ولكن كل سلوك ليس فعلا . فاتجاه الفراشة مثلا نحو الضوء والذى يعتبر استجابة آلية من جانب ذلك الكائن لمنبه الضوء سلوكا وليس فعلا . أما إذا دخل عنصر ذاتى بين المنبه والاستجابة فإن هذا السلوك يصبح فعلا . فإذا تخيلنا أن الفراشة قالت لنفسها : « كم هذا الضوء جميل ، إننى أريد أن أكون قريبة منه ، ولذلك فأننى سأطير إليه مباشرة وبأسرع ما يمكن» ، فنى هذه الحالة يصبح السلوك فعلا[1]

وعلى ذلك فالذى يميز الفعل عن السلوك أساسا هو أن الفعل يتصف بعنصر اتخاذ القرار الذى يقع بين المنبه والاستجابة ، ووحدة التحليل هى الفاعل الذى قد يكون فردا أو مجموعة أو مجتمعا[2]

أما الموقف فإنه قد يكون المسرح أو أى ظرف يكون الفاعل فيه مضطرا

---

(1) Talcott Parsons : The Social System. (Glencoe, 111, Free Press, 1951)

(2) Calirn J. Larson : Major Themes in Sociological Theory (David Mckay Company, New York, 1973) pp., 127—153.

لاتخاذ قرار يختار بوجهه بين أدوار بديلة يقوم بها . والموقف يتضمن مجموعة متنوعة من المنبهات الممكنه ، وبصفة خاصة الموضوعات Objects ، سواء كانت هـذه الموضوعات إنسانية أو غير إنسانية وكذلك مجموعة من المعايير Norms التى هى عبارة عن أنماط متوقعة من السلوك ، والقيم Values وهى عبارة عن تصورات لما هو مرغوب فيه ومهمة الباحث أن يحدد كيف ولماذا يستجيب الفاعل لمنبهات معينة دون غيرها .

وحين يوجد الفاعل فى موقف ما ويكون عليه أن يقوم فيه بفعل معين فإن هناك ما يحدد اختياره لنوعية ذلك ، وهـذه المحددات هى ما أسماها بارسونز بالتوجيهات Orientations

فحين نتعامل مع الآخرين فإنه توجهنا عدة أشياء ، فلا بد أن نقرر ما إذا كان تعاملنا معهم سيكون على أساس علاقة انفعالية أو سيكون محايدا إنفعاليا ، وبناء على ذلك نقرر ما إذا كنا سنتعامل معهم على أساس أنهم شخصيات متكاملة أو على أساس جزئى ثانوى فحين ينتقى رجل ما زوجة له ، فإنه يتعامل معها انفعاليا وعلى أساس أنها شخصية متكاملة ، وحينما ينتقى طبيبا ليعالجه فانه يتعامل معه على أساس غـير انفعالى وبالتالى ينظر إليه من جانب واحد هو كفاءته فى وظيفته (وقد أسمى بارسونز ذلك بالتوجيهات الإدراكية الدافعية) .

كذلك يجب أن نختار بين أن نتصرف فى موقف ما على أساس المصلحة الذاتية أو على أساس مصلحة المجموعة (وأسمى ذلك بالتوجيهات التقويمية الدافعية) .

وقد ميز بارسنز بين ما أسماه بالتوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية وتشير التوجيهات الدافعية إلى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل نحو موقفه والتى ترتبط

بالإشباع أو الحرمان الفعليين أو الممكنين لاحتياجات الفاعل[1].

وتوجد ثلاثة أنواع من التوجيهات الدافعية :

١ — التوجيهات المعرفية ، وتتضمن تحديد مكان الموضوع الذى تتعامل معه فى عالم موضوعات الفاعل وتحديد خصائصه ووظائفه الفعلية الممكنة وتمايزه عن غيره من الموضوعات .

٢ — التوجيهات الانفعالية وتتضمن مختلف العمليات التى يوزع بواسطتها الفاعل طاقته على مختلف الأعمال فيما يتعلق بمختلف الموضوعات ذات الدلالة الانفعالية فى محاولته زيادة الإشباع .

أما التوجيهات القيمية فتشير إلى المعايير الثقافية أو إلى تلك الجوانب من توجيهات الفاعل التى تجبره على أن يأخذ فى اعتباره إمكانية تطبيق معايير معينة ومحكات اختيار حين يكون فى موقف يسمح له بأن يختار السلوك الذى يقوم به . وتنقسم هذه التوجيهات القيمية بدورها إلى ثلاثة أنواع :

١ — التوجيهات المعرفية ، وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تثبت صدقها معرفياً .

٢ — التوجيهات التقديرية وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تثبت بواسطتها ملاءمة أفعال معينة لموضوع ما انفعاليا .

٣ — التوجيهات الأخلاقية ، وتتضمن الالتزام بمعايير معينة تحددت صلاحيتها على أساس نتائج الأفعال بالنسبة للنسق الكلى (أى المجتمع) .

---

(1) Don Martindale : Opt, cit. pp.

ويرى بارسونز أن التوجيهات القيمية تمثل تأثير التوقعات الاجتماعية على تعريف الشخص للموقف. فالقيم الاجتماعية — أى التوقعات التى يشترك فيها الناس فيما يتعلق بأنسب الوسائل لتحقيق الغايات المرجوة تؤثر على الجانب المعرفى عند الفرد من حيث أنها تحدد له مدى الموضوعات التى يدركها وأسلوب الاستجابة لها. كما أنها تؤثر على الفرد من حيث أنها تحدد له القيمة النسبية للموضوعات المختلفة، وكذلك من حيث أنها تفرض عليه شعوراً بالمسئولية عن أفعاله على أساس آثارها السلبية والإيجابية على المجتمع.

وهذه العناصر المختلفة التى بدأ بارسونز بدراستها (أى الفاعل والفعل والموقف والتوجيهات) ارتكز عليها فيما بعد عند محاولته تكوين نظرية بنائية وظيفية عن المجتمع، وهى التى يرى أن أى نسق يتكون منها فهى تدخل فى تكوين ثلاثة أنواع من الأنساق: النسق الاجتماعى، ونسق الشخصية، والنسق الثقافى.

ويعرف بارسونز النسق الاجتماعى عدة تعريفات أوضحها ذلك الذى يقول بأن: «النسق الاجتماعى عبارة عن فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركزاً أو مكانة متمايزه عن الأخرى، ويؤدى دورا متمايزا، فهوعباره عن نمط منظم يحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، وأطار من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة إلى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة».

ويعرف بارسونز الدور بأنه سلوك الفاعل فى علاقته مع آخرين إذا ما نظرنا إلى هذا السلوك فى سياق أهميته الوظيفيه للنسق الاجتماعى، أما المكانة فتشير إلى موقع الفاعل فى نسق علاقه اجتماعيه معين.

وعندما يتكون نمط ثابت نسبياً من الأدوار يسمى ذلك بناء Structure أما النمط الثابت من علاقات الأدوار فيسمى نظاما Institution.

أما النسق الثقافى فيرى بارسونز أنه نتاج لأنساق التفاعل الاجتماعى من ناحية ومحدداً لهذا التفاعل من ناحية أخرى، وقد ميز بارسونز بين ثلاثه أنماط من الأنساق الثقافيه :

١ — أنساق الأفكار أو المعتقدات .

٢ — أنساق الرموز التعبيرية مثل الفن .

٣ — أنساق التوجيهات القيمية .

ويرى بارسونز أن الأنساق الاجتماعيه تتصف بخاصتين أساسيتين هما :

أولا : ميل مكونات النسق إلى الحفاظ على درجة عالية من التكامل على الرغم من الضغوط البيئيه .

ثانياً : ميل إلى التوازن أى إلى استمرارية مكونات النسق فى أداء وظائفها .

كما يرى بارسونز أن النسق الاجتماعى عليه أن يواجه أربع مشكلات أساسيه لكى يستمر فى البقاء :

١ — مشكلة التكيف .	Adaprtation
٢ — مشكلة تحقيق الهدف .	Goal attainment
٣ — مشكلة التكامل .	Integration
٤ — مشكلة خفض التوتر .	Tension - management

فأى نسق لابد أن يتكيف مع البيئة الفيزقية ويهيىء الوسائل الاقتصاديه الضروريه لحياة أعضائه ، ولكى يحقق النسق أهدافه لابد له من صورة ما من التنظيم السياسى (أى تركيز القوة) ولابد من حماية النسق لنفسه من التحلل والتفكك وذلك عن طريق وضع مجموعة من القوانين والتنظيمات وإقامه جهاز

وفى يعمل على تنفيذها (التكامل) كما لابد له من تدريب الأعضاء الجدد عن طريق الضبط الاجتماعى على المشاركة فى نشاطات المجموعة تبعا للأساليب المحددة بها .

وينظر بارسونز إلى المجتمع الإنسانى ككل بوصفه نسقا يتكون من مجموعة من الأنساق (المجتمعات) التى يشكل كل منها نسقا مستقلا نسبياً ولكنها جميعاً تشكل سويا نسق المجتمع الإنسانى .

روبرت ميرتون :

على الرغم من الاختلافات بين تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون فى تفاصيل النظرية التى حاول كل منهما تقديمها ، وبالرغم من الإنتقادات التى وجهها كل منهما للآخر ومن التعديلات التى اقترح ميرتون إدخالها على الوظيفية إلا أن كليهما يبدأ من نفس المسلمات النظرية والأيديولوجية التى يبدأ بها كل أصحاب الاتجاه الوظيفى وأصحاب الاتجاه العضوى من قبلهم . وأهم هذه المسلمات أن البناء الاجتماعى فى حالة ثبات وأن هناك تكاملا بين عناصر هذا البناء وأن هناك إجماعا عاما بين أعضاء المجتمع على قيم معينة وأن هناك توازنا يجب ألا يصيبه الخلل فى البناء الاجتماعى .

لقد بدأ ميرتون ، الذى كان تلميذا لتالكوت بارسونز ، بنقد بارسونز على أساس أن أعماله تمثل جهداً غير ناضج لمحاولة تكوين نظرية اجتماعية عامة ولكنه لم يمس فى كتاباته المسلمات الرئيسية التى ارتكزت عليها أعمال بارسونز أو غيره من الوظيفيين ، ذلك أنه هو ذاته قد سلم بها تماماً ، وبدلا من ذلك ركز جهده على نقد تفاصيل هذه الأعمال أو الفروض الجزئية التى تحتوى عليها .

ورأى ميرتون أن النظرية فى علم الاجتماع يجب أن تكون « متوسطة المدى middle range » . وعرف النظرية متوسطة المدى بأنها تلك « التى تقع بين

طرفين : الطرف الأول يتمثل فى مجموعة الافتراضات العملية البسيطة التى تقابلها عند إجراء البحوث الميدانية والطرف الثانى يتمثل فى النظريات الشاملة الموحدة التى تسعى إلى تفسير كل مانلاحظه من انتظام فى السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى[1] .

بعبارة أخرى نستطيع القول أن ميرتون يقترح مستوى للنظرية الاجتماعية أعلى قليلا من مستوى الفروض التى تعتمد عليها البحوث الامبيريقية والتى لاتتضمن قدرا يذكر من التجريد ، ولكنه أقل من مستوى النظريات الكبرى Grand theories التى تتضمن قدراً كبيرا من التجريد . ويبرر ميرتون دعوته إلى هذا المستوى المتوسط من التجريد بأنه يسمح بإخضاع مايتضمنه من قضايا للاختبار الإمبيريقى نظرا لقرب هذه القضايا من الوقائع الملموسة .

وعلى ذلك فإن النظرية متوسطة المدى تتناول أساساً جوانب معينة من الظاهرات الاجتماعية ، وليست الظاهرات فى عموميتها ، فيمكن مثلا أن تكون لدينا نظرية عن الجماعات المرجعية ونظرية عن الحراك الاجتماعى ونظرية عن صراع الأدوار ونظرية عن تكون القيم . . . الخ .

وبعد أن تصبح لدينا هذه النظريات المتعددة ذات المدى المتوسط يمكننا فى المستقبل أن نصوغ منها نظرية عامة موحدة ، ولكن الوقت لم يحن بعد لتكوين مثل هذه النظرية الموحدة .

وقد حدد ميرتون مجموعة من الوحدات التى يجب أن تمثل بؤرة الاهتمام التحليلى فى النظرية الاجتماعة متوسطة المدى مثل : الأدوار الاجتماعية ، العمليات

---

(1) Robert Merton, Social Theory and Social Structure. (New York : Free Press, 1949) P. 39.

الاجتماعية ، الأنماط الثقافية ، الانفعالات المحددة ثقافياً ، المعايير الاجتماعية ، تنظيم الجماعة ، البناء الاجتماعى ، وأساليب الضبط الاجتماعى ... إلخ .

وبذلك جعل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية ماأسماه « بالعناصر الثقافية المقننة Standardised Cultural items (1) .

وقد استمد ميرتون مسلماته الأساسية عن الوظيفية من علماء الأنثروبولوجيا وبخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى وكلايد كلاكهون . وصاغ نظريته الوظيفية فى أهم مؤلفاته : النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى Social Theory and Social Structure ، الذى نشر عام ١٩٤٩ .

وقداستخدم ميرتون كلمة وظيفة بمعنى « الإجراءات البيولوجية أو الاجتماعية التى تساعد على الإبقاء على النسق وعلى تكيفه أو توافقه وهذه الإجراءات قابلة للملاحظة(٢) فمثلا إذا نظرنا إلى الجسم بوصفه نسقا بيولوجيا فإن ضخ الدم يكون إجراءا بيولوجيا يقوم به القلب للمحافظة على بقاء الجسم ، وبذلك يكون وظيفة القلب ، وإذا نظرنا للمجتمع على أنه نسق اجتماعى فإن المحافظة على النظام تكون إجراءا اجتماعياً تساعد على بقاء المجتمع ويكون وظيفة للحكومة وهكذا .

والوظيفة بهذا المعنى لها مؤشرات موضوعية قابلة للملاحظة، لا يجب الخلط بينها وبين الأهداف أو الأغراض أو الدوافع . فهدف الزواج أوالدافع إليه مثلا

---

(1) Calvin larson, Major Themes in Sociological Theory (New York : David Mckay Gompany, 1937), P. 137.

(٢) لم يحدد ميرتون بوضوح ماالذى يعنيه بتكيف أو توافق ، ولكن يبدو أنه يعنى تكيف النسق لمجموعة من الاحتياجات التى يتطلبها بقاؤه ، إلا أن هذه الاحتياجات لا يمكن بالطبع تحديدها موضوعيا . أنظر فى ذلك :

(1) John Rex. Key Problems of Sociological Theory (London: Routledge of Kegan Paul, 1976) p, 73 — 76.

يختلف عن وظيفة الزواج . والأسباب التى يقدمها الناس تفسيراً لسلوكهم تختلف عن نتائج هذا السلوك بالنسبة للنسق الاجتماعى — تلك النتائج التى يمكن ملاحظتها .

وقد انتقد ميرتون غيره من أصحاب الاتجاه الوظيفى ؛ وخاصة رادكليف براون ومالينوفسكى على أساس أن الافتراضات التى ترتكز عليها نظرياتهم شديدة العمومية وغير محددة ، فهؤلاء العلماء قد افترضوا أن الأنشطة الاجتماعية المقننة أو العناصر الثقافية وظيفية بالنسبة للمجتمع بأسره وأن جميع هذه العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدى وظائف اجتماعية وأن هذة العناصر لا يمكن للمجتمع الاستغناء .

ورأى ميرتون أن هذة الافتراضات غير صحيحة ولذلك فإنه أقام نظريته على ثلاث فروض أساسية بديلة هى :

١ — العناصر الاجتماعية أو الثقافية قد تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير ظيفية Non - functictional بالنسبة لمجموعات غيرها وضارة وظيفيا dysfunctional بالنسبة لمجموعات أخرى . وعلى ذلك فلا بد من تعديل فكرة أن أى عنصر اجتماعى أو ثقافى يكون وظيفيا بالنسبة للمجتمع بأسره .

٢ — أن نفس العنصر قد تكون له وظائف متعددة ونفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة ، مثال الملابس التى يمكن أن تؤدى عدة وظائف مختلفة ، فهى قد تساعد على الوقاية من الطقس أو تكسب الفرد مكانة اجتماعية معينة أو يكون لها دور فى تحديد مدى جاذبيته الشخصية . ومعنى ذلك أن هناك تنوعا فى الوسائل التى يمكن أن تحقق هدفا وظيفيا معينا . وقد استخدم ميرتون لذلك مفهوم البدائل الوظيفية Fnnctional alternatives .

٣ — يجب أن يحدد التحليل الوظيفى الوحدات الاجتماعية التى تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية . ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة ، وقد تكون بعض نتائجها ضارة وظيفيا .

ويرى دون مارتنديل أن ميرتون قد أضاف إلى التحليل الوظيفى إضافتين رئيسيتين هما :

أولا : أنه قدم مفهوم المعوقات الوظيفية أو الأضرار الوظيفية dysfunction والذى يعنى به تلك النتائج القابلة للملاحظة والتى تقلل من تكيف النسق أو توافقه(١) ، وإن كان إميل دوركايم ورادكليف بروان قد أشارا إلى ذلك بصورة أو بأخرى فى أعمالهما(٢) .

ثانياً : أنه ميز بين نوعين من الوظيفة الظاهرة manifest function والوظيفة الكامنة Latent function . ويقصد ميرتون بالوظيفة الظاهرة النتائج الموضوعية التى يمكن ملاحظتها والتى تسهم فى الحفاظ على النسق والتى يقصدها المشاركون فى النشاط . أما الوظيفة الكامنة فهى التى لم تكن مقصودة أو متوقعة(٣) . مثال ذلك دور الدين فى تحقيق التكامل الاجتماعى — هذا الدور مثلما قرر دوركايم لم يكن مقصودا ، وعلى ذلك فإن التكامل الاجتماعى يعتبر فى هذه الحالة وظيفة كامنة للدين . أما إذا استخدم الدين عن قصد بواسطة الطبقة الحاكمة لتحذير الطبقات

---

(١) مثال ذلك عنصر ثقافى مثل الاعتقاد فى السحر كوسيلة للشفاء من الأمراض . هذا العنصر يكون معوقا وظيفيا لأداء المؤسسات الطبية لوظائفها .

(٢) استخدم دوركايم مفهوم اللامعيارية amomie بدلا من المعوقات الوظيفية ، واستخدم بروان مفهوم المرض الاجتماعى dysnomia .

(3) Don Martindale : The Nature and Tyres of Socialogical Theory (London : Routledge and Kegan Paul, 1967) p. 473-474.

الحكومة وإخضاعها النظام ، مثلما قرر ماركس ، فإن هذه النتائج تكون وظيفة ظاهرة للدين .[1] وجدير بالذكر أن ميرتون لم يستحدث مفهومى الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة ، ولكنه استعار هذين المفهومين من سيجموند فرويد الذى استخدمهما فى التمييز بين المحتوى الظاهر (أى الشعورى) والمحتوى الكامن (أى اللاشعورى) الحلم ، مما يدل على تركيز ميرتون على الجوانب النفسية .

ويرى مارتنديل أن أهم نماذج التحليل الوظيفى عند روبرت مرتون تتمثل فى دراسته عن البناء الاجتماعى واللامعيارية[2] ، فى هذه الدراسة[3] طبق مرتون نظريته الوظيفية فى تحليل المصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف . وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعى ضغطا محددا على أشخاص معينين فى المجتمع لممارسة سلوك غير امتثالى بدلا من ممارستهم لسلوك امتثالى . وقد بدأ ميرتون بالتسليم بأن الأبنية الاجتماعية والثقافية تصبغ صفة المشروعية على أهداف معينة وعلاوة على ذلك تحدد أساليباً معينة مقبولة لتحقيق هذه الأهداف . أى أن ميرتون قد ميز بين عنصرين رئيسيين فيما أسماه بالبناء الثقافى للمجتمع : الأهداف المحددة ثقافيا من جهة ، والأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى .

وفى المجتمع جيد التكامل نجد تكاملا وتناغما بين الأهداف والأساليب ، فكل من الأهداف والأساليب تجد تقبلا من أفراد المجتمع ككل كما أنها تكون ميسورة لهم جميعاً . ويحدث اللاتكامل فى المجتمع عندما يكون هناك تأكيداً على أحد

---

(1) Theodore Abel : The Foundation of Sociological Theory (New York : Random House, 1970) p. 171

(2) Don Martindale : Op. cit,, p. 475.

(3) Robert Merton : Op. pp. 125—149.

الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر ، وهذا ما يحدث فى المجتمع الأمريكى . فهناك فى هذا المجتمع تأكيد على أهداف معينة ، مثل النجاح الفردى وجمع النقود وارتقاء السلم الاجتماعى دون تأكيد مماثل على الأساليب النظامية لتحقيق هذه الأهداف . فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع فى المجتمع .

وقد نشأ عن ذلك حالة من اللامعيارية فى المجتمع . ذلك أنه لا بد من أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح وبين الفرص المشروعة للنجاح بحيث يحصل الأفراد على الإشباع الضرورى الذى يساعد على تحقيق النسق الاجتماعى لوظائفه ، فإذا لم يتحقق ذلك فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل ويحدث ما أسماه بالمعوقات الوظيفية dysfunctions .

وقد قدم ميرتون تصنيفا لأنماط استجابات الأفراد أو تكيفهم لذلك التفاوت أو الانفصام بين الأهداف المرغوبة والمحددة ثقافياً (أى النجاح) وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف . وقرر أن هناك خمس أنماط لتكيف الأفراد فى المجتمع ، أول هذه الانماط وظيفى ، أى يساعد على بقاء النسق الاجتماعى ، والأربعة الآخرين ضارين وظيفيا (أو أنماط تكيف منحرفة) أى يهددون بقاء هذا النسق . وهذه الأنماط الخمسة هى :

أولا : نمط الامتثال Conformity :

ويحدث هذا النمط من التكيف حين يتقبل الافراد الاهداف الثقافية ويمتثلون لها وفى نفس الوقت يتقبلون الأساليب التى يحددها النظام الإجتماعى بوصفها أساليباً مشروعة لتحقيق هذه الأهداف . مثال ذلك تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح والحصول على دخل مرتفع وتقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق

ذلك الهدف . فإذا كانت فرصة التعليم متاحة لكل أو غالبية أفراد المجتمع فإن حالة من الثبات أو التكامل سوف تسود المجتمع لأن غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها فى نفس الوقت أما إذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس فإن أحد الأنماط الأربعة الآتية من التكيف الإنحرافى يمكن أن يحدث :

٢ — نمط الإبتداع Innovation

يرى ميرتون أن هذا النمط من التكيف هو أهم أنماط التكيف الانحرافى فى المجتمع الأمريكى . ويعنى به أن نسبة كبيرة من الناس فى المجتمع تتقبل أهداف النجاح التى تؤكد عليها الثقافة الأمريكية ولكنها تجد فرص تحقيق هذه الأهداف موصدة أمامها لأن توزيع هذه الفرص غير متكافىء . وفى هذه الحالة يرفضون الأساليب المشروعة لتحقيق النجاح (مثل التعليم) ويبتدعون أساليباً غير مشروعة لتحقيق هذا الهدف . ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقه العاملة .

٣ — نمط الطقوسية Ritualism :

يتمثل هذا النمط من التكيف فى التخلى عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردى وتحقيق الثروة وصعود السلم الاجتماعى أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل إلى درجة منخفضة يمكن معها إشباع هذا الطموح ، وفى نفس الوقت يظل الفرد ملتزما بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئاً يذكر . ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقةالوسطى الدنيا ، مثل صغار الموظفين "البيروقراطيين فى الشركات والمصالح الحكومية . ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية

الصارم السائد فى هـــذه الطبقة وإلى الفرص المحدودة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة.

٤ — الانسحابية Retreatism :

وهو من أقل الأنماط شيوعا فى المجتمع الامريكى . والفرد الذى يلجأ إلى هذا النمط الانسحابى يعيش فى المجتمع ، ولكنه لا يكون جزءاً منه بمعنى أنه لا يشارك فى الإتفاق الجماعى على القيم المجتمعية . والانسحابى يتخلى عن كل من الأهداف والأساليب التى يحددها النسق ومن أمثلة هذا النمط من التكيف الانحرافى حالات الجنون والتشرد وإدمان الخمور وإدمان المخدرات . ويرى ميرتون أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية (أى غير المشروعة) لتحقيق الأهداف وفى نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها ولا يكون أمامه من مفر سوى أن ينسحب من المجتمع إلى عالمه الخاص (الجنون أو السكر أو الاوهام) . وهكذا يحل هذا الفرد الصراع النفسى عن طريق الهروب الكامل من المجتمع .

٥ — نمط التمرد Rebelion

يتسم هذا النمط من التكيف بإدانة (وليس مجرد رفض كما هو الحال فى النمط السابق) كل من الأهداف الثقافية للنجاح والالتزام بالأساليب النظمية لتحقيقها . أى إذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهدام والأسالب رفضاً سلبياً والهروب من المجتمع فإن هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابى والسعى إلى استبدال البناء الاجتماعى القائم ببناء آخر يضم معاييراً ثقافية مختلفة للنجاح وفرصاً أخرى لتحقيقه .

جدول يوضح أنماط التكيف الخمسة

نمط التكيف	الأهداف الثقافية	الأساليب
١ — الامتثال	+	+
٢ — الابتداع	+	—
٣ — الطقوسية	—	+
٤ — الانسحابية	—	—
٥ — التمرد	±	±

من العرض السابق لأهم إسهامات ميرتون يتضح لنا أنه يرتكز على نفس المسلمات الأساسية التى يرتكز عليها غيره من الوظيفيين وإن كان يختلف عنهم فى بعض الافتراضات الثانوية . فهو يسلم دون ما جدال بأن أساس البناء الاجتماعى هو القيم والمعايير السلوكية ، سواء اتخذت شكل أهداف محددة ثقافيا أو اتخذت شكل أساليب نظمية لتحقيق الأهداف . كما أنه استبعد البعد التاريخى فى تحليله الاجتماعى، ودعى أيضاً إلى التحليل الجزئى للظاهرات الاجتماعية باستخدام النظريات متوسطة المدى بدلا من التحليل الشمولى للمجتمع . كما أنه أغفل المتغيرات المادية فى تفسيره لمنشأ التفاوت بين درجة التأكيد على أهداف النجاح فى المجتمع الرأسمالى من جهة ودرجة التأكيد على أساليب تحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى .[1]

ويعلق إيان تايلور وزملائه [2] على إغفال ميرتون الاهتمام بنمط التكيف

(١) محمد نعيم أحمد الدراسة العلمية للسلوك الإجرامى (القاهرة - مكتبة سعيد رأفت - ١٩٦٩) ، ص ٢٢٤ - ٢٢٨

(1) Jan Taylor, Paul Walton and Joch Young: The New Criminology, for a Social theory of deviance (London: Routledge, 1973) pp. 32 — 110.

الامتثالى بقولهم أن ذلك لا يدعو إلى الدهشة . فبغض النظر عن حقيقة صعوبة تحديد أمثلة واقعية للأشخاص المتثلين فى المجتمع الأمريكى ، لأن أى شخص يمتثل لأهداف ذلك المجتمع لابد أن يكون بالضرورة أيضاً إبداعياً لأنه سيفتش دائماً عن أساليب جديدة لتحقيق النجاح ، فإن البحث عن مصادر الامتثال كان سيوقع مرتون فى مشكلة عويصة ـ وهى مشكلة بحث مشروعية السلطة فى المجتمع الأمريكى .

كما أن ذلك كان من شأنه أيضاً أن يضطره إلى مواجهة حقيقة اجتماعية خطيرة تتمثل فى أن عدد الأشخاص المتثلين فى المجتمع الأمريكى قليل جداً حتى بين أولئك الذين لا توصد أمامهم فرص تحقيق النجاح بحكم المراكز الاجتماعية التى يشغلونها ولكى يفسر مرتون ذلك كان سيضطر إلى الخوض فى مسائل أعمق من مجرد نقده السطحى لحالة اللامعيارية فى المجتمع الامريكى ، أى أنه كان سيضطر إلى الخوض فى المسائل السياسية والاقتصادية التى يرغب أساساً فى تجنبها .

إلا أن ميرتون كان إلى حد ما ناقداً للمجتمع الأمريكى ويختلف عن بارسونز وغيره من الوظيفيين فى أنه لم يتبنى بشكل مطلق فكرة وجود الاتفاق الجمعى فى المجتمع ، وهو يقول فى ذلك :

« يميل الأشخاص الذين يشغلون مراكز مختلفة فى البناء الاجتماعى إلى أن تكون لهم مصالح وقيم متمايزة (مثلما يشتركون مع غيرهم فى بعض المصالح والقيم) . ونتيجة لذلك ، فإن المعايير الاجتماعية ليست كلها موزعة بالتساوى بين المراكز الاجتماعية المختلفة . ويتبع ذلك منطقياً كما يتأكد بالأدلة أنه كلما كانت هذه المعايير مختلفة لدى المجموعات والمراكز الاجتماعية فى المجتمع كلما وجدنا أن كل مجموعة سوف تنظر إلى نفس الظروف نظرة تختلف عن نظرة غيرها من المجموعات . فما قد تعتبره مجموعة ما مشكلة قد تعتبره مجموعة أخرى ميزة (١)

لقد أدرك ميرتون وجود تناقضات فى النسق الاجتماعى الامريكى ، ولكن التناقضات التى أبرزها ليست ذات طابع مادى وهى جزء من طبيعة النسق حسب

(1) Robert Merton. op. cit. p. 785,

رأيه ، فهناك عدم تكافؤ فى الفرص المتاحة للمجموعات المختلفة لتحقيق أهداف النجاح فى المجتمع الأمريكى ، ولكن عدم التكافؤ هذا يرجع فى رأيه إلى العناصر الكامنة فى الثقافة الامريكية ! ، وهكذا لا يقدم مرتون أى تفسير بنائى لوجود عدم التكافؤ فى الفرص فى المجتمع أو لوجود مثل هذا المناخ الثقافى والأخلاقى . وهكذا يشبه مرتون من يفسر الانحلال الخلقى للناس فى فترة ما بتخليهم عن التمسك بالمبادىء الأخلاقية ، أى أنه يفسر ما هو ثقافى بما هو ثقافى ، وليس ذلك بتفسير بالطبع .

وقد استعان إيان تايلور بمثال أورده زميل له هو لورى تايلور [١] فى نقده لنظرية ميرتون حيث قال :

« يبدو تصوير ميرتون للنسق الإجتماعى وأنماط التكيف كما لو كان كل الأفراد فى المجتمع يلعبون القمار على آلة قمار ضخمة هائلة من التى توضع فيها العملة فتدور ثم تقف لتقذف بالنقود للرابح ، ولكن هذه الآلة بها نوع من التلاعب بحيث يربح بعض اللاعبين فقط دائماً بينما يخسر الآخرون دائماً . ويلجأ الخاسرون إما إلى استخدام عملات زائفة أو قطعاً معدينة مخنطة لزيادة فرصهم فى الربح (المبدعون) أو إلى الاستمرار فى اللعب ولكن دون حماس وبأقل قدر ممكن (الطقوسيون) أو إلى الانسحاب تماماً من اللعب (الانسحابيون) أو إلى إقتراح لعبة أخرى جديدة تماماً (المتمردون) . ولكن لا يبدو أن أحداً منهم قد توقف لحظة ليسأل من الذى وضع هذه الآلة هنا منذ البداية ومن الذى يحصل على الأرباح ؟

وتقتصر محاولات الناقدين على محاولة تغيير النتائج بحيث يحصلون على حظ أفضل قليلا . وهكذا فإن مايبدو للوهلة الأولى على أنه نقد جوهرى من جانب ميرتون للمجتمع ينتهى إلى التسليم بالمجمع القائم على ما هو عليه . إن ضرورة النظر إلى

(1) Laurie Taylor : Deviance and Society (London : Michael Joseph) 1971) p. 148.

التشكيلات البنائية الثقافية من خارجها ليس مهمة النمط المتمرد فحسب ولكنه أيضاً مهمة عالم الاجتماع »

وبذلك يقتصر ميرتون على وصف المجتمع ونقد بعض جوانبه الثقافية دون أن يمس جوهر العلاقات الاجتماعية فيه ، وبذلك يقف عندحدود الدعوة الإصلاحية الجزئية لنتائج اللعبة دون أن يصل إلى حد الدعوة إلى تغيير قواعد اللعبة ذاتها ، أى إلى إحداث تغيير جذرى فى المجتمع .

ويستطرد تايلور وزملائه فى نقد ميرتون قائلين أن التناقض بين الأهداف الثقافية وبين عدم تكافؤ الفرص لتحقيق هذه الأهداف ليس فقط مشكلة ثقافية يمكن حلها عن طريق تحديد نسق ملائم ووظيفى من القيم ، وهو لا يوجد فقط فى مجال الأفكار بل إن أساسه الحقيقى هو التوزيع غير المتكافىء للثروة والقوة فى المجتمع الرأسمالى . وفى مجتمع من هذا النوع نجد أن المثوبات (التى تتمثل فى المكانة والثروة . . . الخ) تتوزع ، مثلما أدرك دوركايم عند مناقشته لتقسيم العمل المفروض على أساس العوامل المفروضه aecriptively ولا يمكن أن تتوزع حسب التحصيل عن طريق الجهد .

فالأفراد عند مولدهم لا ينطلقون فى السباق من أجل النجاح من نفس نقطة الانطلاق . إن هذا التناقض عند ميرتون تمتد جذورة إلى ذلك التناقض الذى ساد أعمال أصحاب النظريات الكلاسيكية النفعية : أى التناقض البنائى بين وجود الملكية وبين إمكانية تحقيق التكافؤ الليبرالى . إن دعوة ميرتون إلى إصلاح الموقف عن طريق إتاحة فرص متكافئة للجميع لتحقيق أهـــداف النجاح أو لتحقيق الحلم الأمريكى ليست إلا محاولة لإخفاء حقيقة اللامساواة ، فلا يمكن أن يتحقق ذلك إلا مع إلغاء الملكية الوراثية . ولحسن الحظ أن نظرية ميرتون قد أخضعت

للاختبار الامبريقى على يد إثنين من أتباعه المقربين هما ريتشارد كلاوارد ولويد أوهلين فثبت فشلها تماماً . ففى إحدى المحاولات التجريبية لتطبيق هذه النظرية فى الواقع والتى أجريت ضمن برنامج هيئة أمريكية عرفت باسم « التحرك من أجل الشباب Mobilization for Youth والتى كانا يشرفان عليها أراد هذان العالمان تخفيف التناقض بين القيم الداعية للنجاح وبين السبل المتاحة لتحقيقه من أجل تقليل نسبة الانحراف بين الشباب الأمريكى فقاما بعمل توعية بين كبار رجال الأعمال وأصحاب المنشآت التجارية لاستخدام الشباب العاطل من الطبقات الفقيرة ومن الأقليات وللتبرع ببعض الأموال لإنشاء مدارس للتدريب المهنى لهم . واتضح لهم أن أصحاب الأعمال قد استجابوا لهذه الدعوة أولا ولكن سرعان ماتبين بعد ذلك أن هذا الشباب تنقصه المهارات الأساسية للعمل ولهذا فقد تم الاستغناء عنهم بعد استخدامهم . ومن الواضح أن هذه المحاولة كانت تهدف إلى إتاحة بعض الفرص أمام شباب الطبقات الفقيرة لكى يحققوا شيئاً من النجاح وبالتالى يصبحون من النمط الامتثالى ، ولكن من الواضح أيضاً أن هذه المحاولة لاتزيد عن كونها تضليلاً حقيقياً للناس (١) . فالفرص كما يقول تايلور وزملائه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفية توزيع الثروة بين مجموعات المجتمع .

نقد البنائيـــة الوظيفية

إن بارسونز هو أشهر ممثلى النظريات الوظيفية المعاصرين ولذلك فإننا سنركز على نظريته بوصفها ممثلة لهذا الاتجاه فى علم الاجتماع الغربى التقليدى .

---

(١) من : سمير نعيم أحمد : الدراسة العلمية للسلوك الإجرامى (القاهرة . مطبعة دار التأليف ١٩٦٩) ص ٢٢٧ — ٢٨ .

إن أهم كتب أشهر ممثلى هذه الاتجاه هو مؤلفه « النسق الاجتماعى » والذى يقع فى ٥٥٥ صفحة . وقد يكون أهم نقد وجه إليه هو ذلك الذى وجهه عالم الاجتماع الامريكى رايت ميلز فى كتابة « التصورات السوسولوجية » لقد قرر ميلز بعد قراءته لهذا الكتاب الذى يقدم فيه بارسونز نظريته أن ما يقوله بارسونز فيه صعب على الفهم حقاً بل قد يكون من المستحيل فهمه . وأن كل مايفعله بارسونز فى نظريته هذه ليس أكثر من مجرد التلاعب بالألفاظ وبالمفهومات طول الوقت لكى يبدو عميقاً فى تحليله للقراء وأن ما يقدمه ليس إلا تأملات فكرية تفتقر إلى الأدلة الموضوعية . وقد قام ميلز بمحاولة استخلاص مايريد بارسونز أن يقوله فعلا من وسط كل المتاهات الفكرية التى يجر القارىء إليها وذلك بأن قام بترجمة الكتاب كله من اللغة الانجليزية غير المفهومة والمعقدة التى يستخدمها بارسونز إلى لغة انجليزية بسيطة ، وقد ترجمه فى أربع فقرات فقط هى كل مايهدف بارسونز إلى قوله من نظريته فاتضح أن بارسونز يقرر مايلى :

« هنـاك نسق اجتماعى يقوم فيه الأفراد بأفعال تجاه بعضهم البعض . وهذه الأفعال عادة ما تكون منظمة لأن الأفراد فى النسق يشتركون سوياً فى الاعتقاد فى قيم معينة وفى أساليب مناسبة للسلوك . وبعض هذه القيم يمكن أن نسميها معايير . والذين يتبعون هذه المعايير يتصرفون بشكل متشابه فى المواقف المشابهة ، وهذا ما يحقق الانتظام فى المجتمع — أو ما نسميه بالتوازن الاجتماعى Social equilibrium وهذا التوازن مهم جداً للمجتمع . ويتحقق التوازن وتتم المحافظة عليه عن طريق أسلوبين :

التطبيع الاجتماعى Socialization والضبط الاجتماعى **Social control** والأسلوبين مكملين لبعضهما البعض ، وهدفهما جعل الأشخاص فى المجتمع

ينصاعون للمعايير التى توجد بالنسق الاجتماعى ، فإذا مافشل التطبيع الاجتماعى فى جعل الأشخاص يتبعون المعايير فإن الضبط الاجتماعى يجبرهم على ذلك »(1) .

ويتساءل ميلز عما قدمه بارسونز من « نظرية متضخمة » مليئة بالمفهومات المعقدة والألغاز أكثر من المعرفة العامة المتوفرة لدى الجميع والتى تحتاج لا إلى التأكد من صحتها ؟ إنه لم يقدم شيئاً على الإطلاق أكثر من صياغات لغوية تبدو علمية ولكن وراءها أهدافاً إيديولوجيه واضحة تماماً لمن يملك القدره على التفكير النقدى ، ويتلخص ذلك الهدف فى شغل أذهان المحللين الاجتماعين بمسائل ثانوية وصرف انتباهم عن فحص ودراسة المؤسسات والأنظمة الاقتصادية والسياسية .

لقد حول بارسونز كل أبنيه المجتمع إلى مجالات رمزية ، وبهذه الكيفية يقدم بارسونز تبريراً أخلاقياً لاستمرارية ذوى السلطة فى المجتمع فى التحكم فيه ويضفى على حكمهم صفة المشروعية .

إن تأكيد باسونز على فكرة التوازن عن طريق الخضوع للمعايير — السائدة والمشتركة بين الناس إنما هو تحذير من أى تمرد أو محاولة لتغيير الأوضاع القائمة كما أن افتراضة أن هناك قيما ومعايير مشتركة بين جميع الأفراد لايستند إلى أى أدلة أمبيريقية .

لقد حول بارسونز المجتمع بأسره إلى مجرد قيم ومعايير أو إلى رموز مجردة توجد مستقلة عن البشر وتفرض عليهم سلطانها وأغفل تماماً الأساس الاقتصادى والسياسى للمجتمع وعبر بوضوح عن انحيازه الأيدلوجى للطبقة الحاكمة .والإنسان عنده غير قادر على تغيير هذه الأنساق القيمية ولكن عليه أن يخضع لها ويتكيف

(1) C. W. Mills : The Sociological Imaginations (Oxford University Press, London, 1969) pp. 32 — 33.

معها فإن هو حاول ذلك فإن المجتمع سيصاب بحالة من اللاتوازن . والواقع الاجتماعى عنده يتسم بالسكون أو الثبات بالضرورة والمجتمع لابد أن يخلو من الصراع ويسعى للتكامل ، ووحدة التحليل عنده هى الفعل وما يتضمنه من معان سيكولوجية . والمتغيرات التفسيرية عنده كلها متغيرات سيكولوجية وليست اقتصادية أو سياسية أو تاريخية ومستوى التنظير عنده بالغ العمومية والتجريد ولا يتكامل مع الأدلة الإمبيريقية (أى يعانى من انفصام بين الجانب الحسى والجانب العقلى من المعرفة العملية) .

وينتقد بوبوف عالم الاجتماع السوفيتى النظريات الوظيفية على أساس أنها تصور المجتمع على أنه نظام أبدى لايعرف التطور والانتقال إلى وضع جديد . كما أنه يفسر الحياة الاجتماعية بمتاهات من الجدل المدرسى الكلامى والتصورات العقيمة البعيدة والمنفصلة عن الحياة الواقعية(١)

كما ينتقد بارسونز على أساس أنه يقرر أن بواعث وأهداف الأفعال الاجتماعية لاتحددها الأسباب المادية ، بل تحددها سيكولوجية الأفراد بوصفهم ممثلين يقومون بأدوار محددة لهم من قبل تحددها القيم التى يعتبرها مطلقة وأبدية لأن مصدرها هو مجال غير حسى أو تجريبى أى أنه « الله » وهنا يتفق بارسونز مع كل من يبررون للسلطة حكمها فى كل زمان بادعاء أنها ممثلة لإرادة الله .

ويرى بوبوف أن الوظيفية مثل غيرها من النظريات الاجتماعية الغربية التقليدية تدور فى حلقة مفرغة لاتستطيع الخروج منها وهى : أن وعى الإنسان (أى سيكولوجيته) تحدد وجوده . وأخيراً يقرر أن النظريات الوظيفية رجعية تدافع عن النظام الرأسمالى وعن معاييره وقيمه وأهمها الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج .

---

(١) بوبوف : نقد علم الاجتماع البواجوازى المعاصر . ترجمة نزار عيون السود . دار دمشق ١٩٧٣

ويستشهد بوبوف بقول عالم الاجتماع الامريكى زيمرمان الأستاذ بجامعة هارفارد عن فراغ الوظيفية من المضمون حيث يقول فى كتابه الأيديولوجيات السياسية المعاصرة :

« لم تخلق مدرسة التحليل البنائى الوظيفى أكثر من أطر (جمع إطار) يمكن فيها وصف النظام الاجتماعى ، ولا أكثر من الوصف . وما أشبهها بأن تقول أن الكرسى مصنوع من الخشب وأن له أربع قوائم ووظيفته أن نجلس عليه ، وأن هذا الكرسى لايؤدى وظيفته إذا كان الجلوس عليه مستحيلا . وعلى هذا النحو يبدو النظام الاجتماعى فارغ المعنى . . . إن هذه النظرية لا تضع فى اعتبارها التغير الاجتماعى ، ولا يمكن أن تكون دليــــلا فى الحلول والقرارات التى يجب علينا اتخاذها » .

وقد اشترك عدد من علماء الاجتماع فى نقد بارسونز على أساس أن نظريته الاجتماعية ليست سوى صياغه نظرية فى ثوب علمى لتحيزاته الايديولوجية (مثل جولدنر[1] ولوكوود[2] وكوزر[3] ودارندورف[4]) . فهو يدعو إلى انصياع الناس للمعايير القائمة ويتجاهل الصراع الاجتماعى ويهمل دور المصالح الماديه فى التفاعلات الاجتماعيه ويهتم بالتكامل والاجماع القيمى ويتجنب الإشارة إلى التغير الجذرى بالمجتمع .

---

(1) Alvin Gouldner : The Coming Crisis of Western Sociology (Heimann, London, 1973),

(2) Lochwood, D. Some Remarks on the "Social System". British Journal of Sociology. 1956, vol. 7 pp. 134 — 136.

(3) Coser, L. A. The Function of Social Conflict (Free Press, New York, 1956).

(4) Dahrendorf, R. Out of Utopia : Toward a reorientation of Sociological Analysis. American Journal of Sociology, 1958, Vol 6 : pp. 115—127.

الفصل العاشر

الاتجاه الظاهراتى (الفينومينولوجى)

ازدهرت المدرسة الظاهراتية الأصلية فى علم الاجتماع فى ألمانيا والمناطق المجاورة لها والناطقة بالألمانية فى أوربا فيما بين الحربين العالميتين ، وقد استمدت هذه المدرسة أفكارها من فلسفة إدموند هوسرل E. Husserl (١٨٥٩-١٩٣٨) ومارتن هايدجر M. Heidegger ، وشوتز Schutz ، ومارلوبونتى [١].

والمفهوم الرئيسى فى الفلسفة الظاهراتية هو مفهوم « قصدية الوعى» ، أى كونه موجهاً نحو الموضوع ، والتى تعنى تأكيد المبدأ المثالى الذاتى : « ليس هناك موضوع بدون ذات » . ويعتمد المنهج الظاهراتى على مسلمتين أساسيتين : ١ — الامتناع عن إصدار أية أحكام فيما يتعلق بالواقع الموضوعى وعن تجـــاوز حدود التجربة الذاتية ، ٢ — إعتبار موضوع المعرفة نفسه الوعى الخالص وليس الوجود الحقيقى [٢] .

معنى ذلك أن أصحاب الفلسفة الظاهراتية يرون أن معرفتنا بالعالم الفيزيقى إنما تأتى عن طريق خبرتنا الذاتية به . وهذه الخبرة هى التى تمكننا من إدراك جوهر الأشياء . والفلاسفة الظاهراتيون يبدأون بتجاهل مسألة الواقع الموضوعى،

---

(1) Paul Edwards (ed) : The Encyclopedia of philosophy (London : Collier Macmillan, 1957) p. 135.

(١) روزنتال ويودين : الموسوعة الفلسفية . ترجمة سمير كرم (دار الطليعة بيروت ، ١٩٧٤) ص ٤٣٤ .

(3) Richard Quinney . Crime Control in Capitalist Society : in Critical Criminology, edited by Ian Taylor (London, Routledge, & Kegan, Paul, 1976) p. 186.

أو وضعه بين قوسين على حد تعبيرهم Bracheting حتى يمكنهم توجيه اهتمامهم للواقع كما يوجد فى الوعى أو الشعور Consciousness . وعلى هذا فإن الظاهرة موضوع الدراسة تكون هى تلك التى تعبر عن نفسها بطريقة مباشرة فى الوعى أو الشعور . ويرتكز الظاهراتيون على تمييز الفيلسوف «كانت» بين مفهومى الظاهرة Phenomenon والشىء فى ذاته Noumenon . فالظاهرة كما عرفها «كانت» هى الشىء أو الحدث كما يبدو لنا من خبرتنا ، أما الشىء فى ذاته فهو الذى يوجد مستقلا عن قدراتنا المعرفية . والشىء فى ذاته ليس معروفاً لنا ولكن الظاهرة هى الشىء الذى يمكننا معرفته .

إن الوعى أو الشعور هو وسيلتنا لفهم العالم ، فأى فهم لشىء موضوعى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعينا بذلك الشىء ، ولا وجود للواقع مستقلا عن وعينا أو شعورنا . وجوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الإنسانى من خلال الوعى عن طريق خبرته بالعالم . والموضوعية تتحقق عن طريق الذاتية أى عن طريق وعينا .

ونلاحظ أن الفكر الظاهراتى يركز على دراسة العملية التى نفهم بها العالم وليس على تفسير هذا العالم ، فتفسير العالم بوصفه شكلا من أشكال الفكر يصبح فى حد ذاته موضوعاً للدراسة .

هذه باختصار هى الأفكار الأساسية التى ارتكز عليها أصحاب المدرسة الظاهراتية فى علم الإجتماع وحاولوا بناء نظرية اجتماعية على هديها . ومن أشهر أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع ماكس شيلر Schelbr

(١٨٧٤ - ١٩٢٨)[1]، وألفريد شوتز [2] Schutz ، جوفمان Goffman [3]، وجارفنيكل Garfinkael[4]. وممن تأثروا أيضاً بالإتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع بيتربرجر[5] Berger وجاك دوجـــلاس Douglas [6] ، وآرون سيسوريل Cicourel [7] وجورج جيرفتس وسوف نعرض لأهم أعمال البارزين من هؤلاء العلماء بعد عرضنا لأهم الملامح الرئيسية لذلك الاتجاه فى علم الاجتماع .

الملامح الرئيسية للاتجاه الظاهراتى :

تعرض علم الاجتماع بصفة عامة والنظرية الاجتماعية بصفة خاصة وما يتضمناه من قضايا منهجية ونظارية للكثير من الشك والنقد من جانب الشباب من دراسى علم الاجتماع الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوضعية والإمبريقية والوظيفية وخاصة مع التغيرات العميقة التى حدثت فى المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية والأزمات التى مر بها العالم الرأسمالى . فقد اكتشف الكثير من الشباب وخاصة من أبناء الطبقة الوسطى خرافة الليبرالية بما تتضمنه من أوهام إتاحة الفرصة للجميع

---

(1) Scheler M. The Nature of Sympathy (Trans. Perer Heath) London : Routledge and Kegan Paul, 1958.

(2) A. Schutz and T. Luckman. The Structure of the Lifeworld Evanston : Northwestern University Press. 1973).

(3) Goffman E., Behavior in Public Places 1953.

(4) H. Garfinkel. Studies in Ethnomethodology. Englewood Cliffs : Prentice - Hall. 1967.

(5) P. Berger and luckman T. The Social Contruction of Reality : London : Allen Lane, The Penguin Press. 1967.

(6) J. Douglas. Understanding of Every Day Life, London : Routledge and Kegan Paul. 1971.

لتحقيق النجاح فى المجتمع وزيف الأيديولوجية النفعية Utilitarianism وفى ذلك يقول ألفن جولدنر فى كتابه « الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربى » :

« منذ نهاية الحرب العالمية الثانية شهدنا بدايات مقاومة عالمية جديدة ضد ذلك النوع من المجتمعات الذى ينتظم حول قيم نفعية ، وهى مقاومة ضد القيم الصناعية بوجه عام وليست بمجرد القيم الرأسمالية . وتلك موجة جديدة من موجات المقاومة القديمة للثقافة النفعية التى بدأت فور ظهور هذه القيم فى القرن الثامن عشر والتى تبلورت آنذاك فى الحركة الرومانسية فى القرن التاسع عشر [1] .

وقد اتخذت هذه المقاومة لقيم المجتمع الرأسمالى الصناعى أشكالا متعددة فعلى المستوى السلوكى لجأ الكثير من الشباب إلى رفض هذه القيم وما يرتبط بها من تصرفات وانسحبوا من المجتمع إنسحاباً سلبياً دون أن يحاولوا إحداث تغير جذرى فيه واستبدلوا هذه القيم بقيم أخرى تتمركز فى معظمها حول الغوص فى الذات والتعبير عنها بحرية . وكان تجسيد ذلك فيما سمعنا عنه من حركات الهيبز وجماعات العقاقير المخدرة ... إلخ . أما على المستوى الفكرى فقد لجأ الشباب المثقف وبخاصة من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية إلى رفض الاهتمام بدراسة أو فهم الواقع الموضوعى وارتدوا مثل جماعات الهيبز إلى الإهتمام بالذات من الداخل آملين أن يكتشفوا معنى الحياة من خلال ذلك بعد أن فشلوا فى فهمها مستخدمين الأطر النظرية فى العلوم الاجتماعية . وكانت الفلسفة الظاهراتية خير معين لهم على ذلك .

وفى مقابل ذلك لجأ فريق آخر من الشباب إلى المقاومة الإيجابية لقيم المجتمع الرأسمالى ونظمه من جهة ولإيديولوجيته النفعية من جهة أخرى . فعلى المستوى السلوكى

---

(1) Gouldner A. Ops. ct. p. 79.

تكونت جماعات سياسيه راديكالية تدعوا إلى إحداث تغير جذرى فى المجتمع مثل جماعة « الطلبة من أجل مجتمع ديمقراطى » فى الولايات المتحدة الأمريكية وعلى المستوى الفكرى لجأ المثقفون خاصة من بين دارسى علم الاجتماع إلى النقد الجذرى للإيديولوجية النفعية وما يرتبط بها من نظريات اجتماعية ووجدوا فى الماركسية خير معين لهم . وعلى ذلك فان الإتجاه الفينومينولوجى يمكن النظر إليه باعتباره رد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية فى مقابل الاتجاهات الراديكالية التى تعتبر رد فعل ثورى لفشل نفس هذه الاتجاهات . ويشبه هذا الموقف المعاصر ذلك الموقف القديم الذى نشأ كرد فعل لفشل الفلسفات الميتافيزيقية إبان عصر التنوير . فقد انقسم الفكر آنذاك أيضاً كما رأينا إلى فكر محافظ وفكر ثورى . وقد اقتضى ذلك الموقف الجديد القائم على نقد الاتجاهات الفكرية المعاصرة مثل الوضعية والوظيفية العـــودة بالطبع إلى الاهتمام بأعمال الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع . فبالإضافة إلى اعتماد علماء الاجتماع الظاهراتى على أعمال الفلاسفة الظاهراتيين أمثال هوسرل اعتمدوا أيضاً على أعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين وبخاصة ماكس فيبر واميل دوركايم كما سنرى فيما بعد .

بدأ علماء الاجتماع الظاهراتيين بنقد الافتراضات التى يرتكز عليها الاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع وكذلك الاتجاه الوظيفى . وكان أهم تلك الافتراضات التى نقدوها ذلك الافتراض المتعلق بوحدة المنهج العلمى وبتشابه الظاهرات الطبيعية والاجتماعية وتقبل الوضعية لواقع حياة الخبرة اليومية على أنه حقيقة قائمة . وبدلا من ذلك إهتم أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع بفحص الافتراضات الشائعة التى ترتكز عليها الأعمال العلمية وابتداع منهج مناسب لدراسة العالم الاجتماعى الذى يتمثل فى الوعى القصدى لدى الأفراد وما يتضمنه ذلك الوعى من معان ، ودعوا إلى ضرورة عدم اهتمام علماء الاجتماع بمجرد إعادة تفسير الخبرة اليومية

وتجاوز ذلك إلى محاولة فهم العاملية الذاتية التبادلية لتكوين المعنى لدى الأفراد .
ويعنى ذلك أن المعنى الذى يضفيه الأفراد على العالم الاجتماعى ووعيهم بذلك العالم يجب أن يكون هو المادة الأساسية التى يهتم علماء الاجتماع بدراستها ، فالعالم الاجتماعى فى رأى الظاهراتية الاجتماعية هو نتاج لتفسيرات ومقاصد الإنسان أى أنه عالم ذاتى . وبذلك فان دراسة ذلك العالم يمكن أن تتم عن طريق أساليب مثل المحادثات وتحليل اللغة ، وتصبح وظيفة علم الاجتماع هى وصف تلك العمليات التى يتم بواسطتها تشييد العالم الاجتماعى من خلال الإجراءات التفسيرية .

ويميل علم الاجتماع الظاهراتى إلى إهمال دراسة تصرفات وأفعال الناس فى المجتمع ويركز بدلا من ذلك على دراسة روايات الناس عما يفعلون ومحادثاتهم ومايقولونه عما فعلوه ومايفعلونه . وبناء على ذلك فان علماء الاجتماع الظاهراتيون لا يناقشون إطلاقاً مفهومات مثل القوة أو السلطة أو التدرج أو البناء الاجتماعى ولكنهم يتحدثون بدلا من ذلك عن الاحساس بالقوة أو السلطة . . . ألخ . ولايهتم هؤلاء العلماء بدراسة مصادر هذه الاحساسات أو المعانى لدى الأفراد أو كيفية التحكم فيها أو تغييرها .

يركز الاتجاه الفنيومينولوجى إذا على دراسه العقل بوصفه عملية واعية إيجابية ويرى أن دراسة النشاط يجب أن تتم عن طرق دراسة القصد عند الفرد . أى أن الاتجاه الظاهراتى يحول بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث عن الأسباب أو الحتمات إلى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعانى التى توجد فى عقول الأفراد وسوف نعرض فيما يلى لأهم أصحاب الاتجاه الظاهراتى فى علم الاجتماع ماكس شيلر ؟ فيركانت ؟ جارفينكل . ثم نعرض بعد ذلك لأهم الانتقادات التى وجدت لعلم الاجتماع الظاهراتى بصفة عامة ولنطبق عليه أسس تقييم النظرية الاجتماعية .

ماكس شيلر (١٨٧٤ — ١٩٢٨) :

كان ماكس شيلر من أشد المعجبين بالطبقة الأرستقراطية التى إعتبر أعضاءها هم القادة الطبيعيون للمجتمع. وكان يزدرى الطبقة الوسطى ويعتبرها فريسة ما تعانيه من حقد وبخاصة القطاع الأدنى فيها، وكان يمجد الصفوة والاقطاعيون والعسكريون وروح الفروسية ويزدرى الفردية والنفعية والعقل المطلق . وكان شيلر يهتم بصفة خاصة بالبحث عن منطلق اجتماعى تمارس الصفوة من خلاله زعامتها . وكان يهدف من الناحية السياسية إلى توحيد ألمانيا ضد عقلانية فرنسا ونفعية إنجلترا ولذلك فإنه كان شديد الحماس لإعداد ألمانيا عسكرياً لتحقيق ذلك الهدف عن طريق الحرب .

وكان شيلر يهدف أيضاً إلى تحطيم العلم بوصفه معياراً لكل المعرفة الحقيقية . ورأى ، على عكس كونت أن العالم لم يحل أبداً محل الفيلسوف والقديس. وعارض شيلر الآراء الماركسية ورأى أن علاقات الإنتاج ليست هى المسؤلة عن تحقيق الأفكار ولكن مصالح الصفوة هى التى تفعل ذلك[1] .

ويمكن القول أن شيلر قد أوقف حياته على مهاجمة الوضعية وتقديس العلم الذى اعتبره الخاصية المميزة للمجتمع الغربى واعتبره مسئولا عن صراعات الحياة الحديثة وما يوجد بها من أمراض إجتماعية[2] .

---

(1) Remmling. G.Toawerds The Sociology of Knowledge. Routledge & Kegan Paul. London. 1973. p. 309.

(٢) يشرح جون استود John Staude فى كتابه عن ماكس شيلر هذه الفكرة بوضوح ويبين بالأدلة طبيعة فكرة النازية والمحافظة ومعاداته للاشتراكية التى تتضح فى معالجته للقضايا الفلسفية والاجتماعية . أنظر :

John Staude : Ma Xscheler : An Intllectual Portrait. (New York 1967).

وقد رأى ماكس شيلر أن وظيفة علم الاجتماع الأساسية يجب أن تكون حل الصراعات الأيديولوجية السائدة فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وذلك عن طريق مساعدة رجال السياسة على إدراك أوجـــه القصور فى وجهات نظرهم وآراءهم .

لقد كان شيلر يتخذ موقفه المعارضة من البرجوازية ومن الرأسمالية ولكنه على عكس الماركسيين كان يرى البديل لها فى مجتمع تحكمه الصفوة يعرف فيه كل فرد مكانه ويوضع فيه حق الحكم بين أيدى الأصلح لذلك وراثياً واجتماعياً وعقلياً أى الأرستقراطية ، أى العودة بالمجتمع إلى الصورة الإقطاعية[1] .

وقد اعتمد فكر ماكس شيلر بصفة أساسية على التمييز الظاهراتى بين مجالى القيم المثالية (أو الجوهر) والوقائع الوجودية . فالوجود الفعلى يتمثل فى العلاقات بين الوقائع ، تلك العلاقات التى تتغير بتغير الزمن ، أما القيم فهى تمثل مجالا آخر هو المعانى المستلهمة والصادقة دائماً دون إعتبار للزمان . وهذا التمييز الميتافيزيقى بين الوجود الفعلى والقيم المثالية هو أساس التمييز بين علم الاجتماع الثقافى من جهة وعلم اجتماع العوامل الواقعية من جهة أخرى . فالمادة الثقافية مثالية وتوجد فى مجال الأفكار والقيم ، أما العوامل الواقعية فهى جزء من الأحداث المتغيرة فى نطاق الزمان . والمادة الثقافية يمكن تعريفها من خلال الأهداف المثالية أو النوايا ، أما المادة الواقعية فإنها تشكل بناء من النوازع مثل الجنس والجوع وإشتهاء السلطة . ومن الخطأ كما يرى شيلر إفتراض أن العوامل الواقعية مثل العنصر أو القوة السياسية أو الإنتاج الإقتصادى تحدد بشكل مطلق المعانى . ومن الخطأ أيضاً إفتراض أن

(1) Peter Hamilton. Knowledge and Social Structure Routledge & Kegan Paul. London. 1974. pp. 57 — 76.

الأحـــداث الخارجية للخبرة تتمثل فى تكشف الأفـكار الروحية والشخصية . فالأفـكار لا تصبح شيئاً ملموساً له وجود واقعى ما لم تترابط سوياً بشكل ما فى صورة ميول جمعية ويتم تضمنها فى أبنية نظمية .

وهدف علم الاجتماع الثقافى هو تفهم ما هو مثالى،وهو يدرس الدين والفلسفة والفـكر العلمى والفن . أما علم الاجتماع الامبيريقى فهو يدرس الدوافع أو القوى التى تحدث تغيرات فى الواقع . وهناك صلة إنتقائية بين الأساس الحقيقى للمجتمع وبين ما هو مثالى . فالعوامل الواقعية أو الحقيقية قد تشجع أولا تشجع على إستكشاف القيم المثالية . وعلى هذا فإن المهمة الأساسية يجب أن تـكون اكتشاف الأساليب التى تتفاعل بها العوامل الحقيقية والعوامل المثالية . وهناك مراحل متتابعة لتكامل هذين المجالين (الواقعى والمثالى) ابتداء من سيادة روابط الدم والقرابة إلى التأثر بالبناء السياسى حتى التأثر بالحقائق الاقتصادية . وقد قدم شيلر هـــذه المراحل الثلاث بديلا عن مراحل كونت : اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية .

ورأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث عن طريق توجيه النوازع الفطرية . وهذا التفاعل بين الأحداث الحيوية والمعيارية يتم من خلال وسيط معين يتمثل فى الصفوة وهى عبارة عن عدد قليل من الأشخاص يوجهون عملية إمتزاج الأحداث المثالية بالأحداث الواقعية ، فهم الذين يدركون الجوهر الظاهراتى . وتنتشر آراء الصفوة النفاذة عن طريق المحاكاة بين الجماهير . وعلى ذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاجاً لنسق حوافز قادة المجتمع وما يرتبط به من روح جماعية Ethos .

ويختلف علم الاجتماع الثقافى عن علم الاجتماع الواقعى أو الأمبيريقى فى أنه يتناول العوامل المثالية (المستمدة من الأهداف والمطامح) بدلا من تناول العوامل

الواقعية (التى تعتمد على الدوافع) . فالعوامل المثالية لها تأثير على التطور الثقافى طالما ترتكز على المصالح وتتجسد فى أشكال نظمية .

وهناك صور عديدة من المعرفة أكثرها أهمية البديهيات الثقافية للمجموعة والتى تشكل المناخ الذى يتكون فيه الرأى العام . وأهم مهام علم اجتماع المعرفة هى الكشف عن هذه الافتراضات الثقافية الأساسية والصور المتغيرة التى تتخذها . وبعد أن يتحقق هذا الهدف يكون من واجب علم اجتماع المعرفة تحليل الصور الأخرى من المعرفة الأكثر سطحية والتى تعتمد على هذه الافتراضات الأساسية . مثل المعلومات التكنولوجية والمعرفة العلمية والرياضية والفلسفية والدينية والحكم الشعبية . وكلما كانت المعرفة أكثر فنية وعقلانية كلما كان معدل تغيرها أسرع . ولكل نوع من المعرفة معدل تغيره الخاص به .

ويرى شيلر أنه على الرغم من أن الطبيعة الاجتماعية لصور المعرفة (أى الفكر والبصيرة والادراك) شىء لا محل للشك فيه فإن مضمون هذه المعرفة وصدقها الموضوعى لا يحددهما البناء الاجتماعى . وترتبط الأنماط المختلفة للمعرفة بأشكال معينة من المجموعات ، فكل نمط من البناء الاجتماعى له صور من المعرفه تتناسب معه . فالمجتمع المحلى Gemeinschaft له رصيد محدد من المعرفة . ويتصف هذا النمط من المعرفة بعدم الاهتمام بالاكتشافات الجديدة أو زيادة المعرفة . بل إن مجرد محاولة وضع المعرفة التقليديه موضع الاختبار يكون شيئاً مكروهاً . والنمط السائد من الفكر فى هذا المجتمع التقليدى هو نمط التقبل وليس النقد وهو نمط جامد وواقعى .

وهناك صلة انتقائية بين الأفكار والصور النظميه . فظهور الحضارة الصناعية الحديثة فى المجتمع Gesellschaft مثلا كان يرتبط بالروح الفردية على عكس الروح

الجماعية التي كانت ترتبط بنمط الجماعة المحلية وبمبـــدأ التنافس بدلا من التعاون وبالمعرفة العلمية والفنية بدلا من الحـــكمة التقليدية وباتجاه نحو العلم بدلا من اللاهوت والفلسفة .

وقد رأى شيلر أن العقل يؤثر على الأحداث فى المجتمع لأنه هو الذى يوجـــه ويرشد ويحرك الدوافع الغريزية . ولكن ذلك يتم من خلال وسيط يتمثل فى الصفوة أى ذلك العدد القليل من الأشخاص الذى لديه القدره على المزج بين الأحـــداث المثالية والواقعية . فالصفوة هى التى تستطيع أن تكتشف الجوهر الظـــاهراتى للأشياء بما لديها من بصيرة نافذة . وهذه البصيرة تنتشر بين الجماهير عن طريق المحاكاة . وعلى ذلك فإن التاريخ ليس سوى نتاجاً لدوافع قادة المجتمع وأخلاقياتهم وجوهر الثقافة يصبح شيئاً شعورياً لدى الصفوة . (١)

ويقرر كارل مانهايم أن ماكس شيلر قد حاول أن يفسر أحداث العالم المعاصر على أساس مسلمات تنتمى إلى مرحلة سابقة من الفكر الإنسانى ، وبخاصة التفكير الميتافيزيقى ، ويرى تشابها كبيراً بين مسلمات شيلر وبين الفكر الدينى الكاثوليكى وخاصة مايتضمنه هذا الفكر من مقولات عن اللانهائية والأبدية وتمييزه بين ماهو واقعى وبين ما هو جوهرى ، وما هو زائل وما هو أبدى (٢) .

(1) Don Martindale. The Nature and Types of Sociological Theory. Roudedge and Kegan Paul. London. 1961. pp. 273-276.

(2) Karl Manheim. Sociology of Knowledge From the Standpoint of Modern Phenomenology. in Remmling. opt. ct. p. 187 - 188.

ألفرد فركانت : (١)

رأى فركانت Vierkandt (١٨٦٧ — ١٩٥٣) أن علم الاجتماع يجب أن يقتصر على دراسة الخصائص النوعية للمجموعات وعلى تقديم نظرية عن التفاعل الاجتماعى ونتائجه على أساس أن يكون التركيز على العوامل الذاتية والداخلية وليس على المظاهر الخارجية للتفاعل . فعلم الاجتماع يختلف عن العلوم الطبيعية لأن الإنسان يتميز بخصائص عقلية تنجم عن معيشة أفراده سوياً . وهذه الحالات العقلية هى التى يجب أن يدرسها العلم الاجتماعى . ولذلك فإن المنهج الفينومنيولوجى هو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع .

والمنهج الظاهراتى يتلخص فى فحص عملية الوعى awareness ويتطلب ذلك تركيز الاهتمام على جوانب الخبرة الشعورية وليس على التعبيرات الظاهرية (مثل السلوك) ، أى على المعانى الكامنة للأشياء . ويحاول المنهج الظاهراتى بذلك ومن خلال تحليل الخبرة أن يكشف عن استعدادات اجتماعية أساسية معينة يفترض أنها المسئولة عن الحياة المشتركة . وهذه الاستعدادات الأساسية أو الجوهر essence يمكن اكتشافها فقط عن طريق التمييز بين الحالات العقلية . فهناك عمليات عقلية قد تبدو متشابهة ولكنها فى الواقع مختلفة تماماً ، فالخجل مثلا يختلف عن الخوف من النتائج غير المرغوبة . وإذا مادرسنا المظاهر الخارجية فقط فإن مثل هذا الاختلاف لن يمكن أكتشافه . ومهمة علم الاجتماع الظاهراتى اكتشاف الجوهر أو الخصائص المسبقة apriori فى الحياة العقلية الإنسانية المتبادلة .

---

(4) Don Martindale. Opt ct. pp. 268 - 272

ومن أمثلة التحليل الظاهراتى تحليل عاطفة احترام الذات ، التى ينجم عنها أحساساً داخلياً بالتفوق وتؤدى للاحترام . وفى بعض الأحيان يفصح هذا الاستعداد عن نفسه فى شكل الرغبة فى القوة من أجل تحقيق التمايز والاعتراف بالشخص على أنه أفضل من الآخرين . وحين يتم إشباع هذه الرغبة فإنهـا تصبح مصدراً للشعور بالكرامة وحين تحبط فإنها تصبح مصدراً للشعور بالخجل . والدراسة الظاهراتية للخضوع تبين أنه ليس نتيجة للخوف أو غيره من الدوافع الغيرية ولكنه قد يتضمن خضوعاً داخلياً تلقائياً . ويصاحب الخضوع حالات سيكولوجية مثل الوداعة والارتباك والشعور بالحاجة للاتصال بشخصية أقوى ، كما يرتبط به اتجاهات مثل الإعجاب والتفانى والاحترام . ولكن جوهره هو المشاركة فى عظمة الآخر وتلك غريزة تفصح عن نفسها فى عبادة القوة والرغبة فى السير وراء القائد والشعور بالواجب والخضوع الأعمى لأمر داخلى .

ورأى فيركانت أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الأشخاص بوصفهم حملة لعلاقات متبادلة ذات أساس عقلى داخلى . والعلاقات الاجتماعية التى تكون المجتمع وتبقيه هى القوى الفعالة التى تشكل وتتحكم فى التعبير عن الاستعدادات الداخلية . ويمكن تعريف المجتمع بسهولة طالما أن الفرد ليس مغلقاً على نفسه ولكنه يشارك فى حياة غيره من الناس ويستمد وعيه بذاته ومثله وعواطفه ورغباته من الآخرين والحياة الاجتماعية تتضمن حداً أدنى من التبادل reciprocity . والروابط الداخلية (العقلية) هى الخاصية الأساسية للمجتمع .

وبناء على هذا الإطار التصورى رأى فيركانت أن التحليل الاجتماعى يجب أن يبدأ بالدراسة الفينومينولوجية للاستعدادات الداخلية للأفراد أو للغرائز .

وحدد فيركانت مجموعة من الاستعدادات الأساسية أو الغرائز التي يجب دراستها وهي : احترام الذات و والخضوع والدافع الأبوي والميل للصراع والمحاكاة والتعاطف والتعبير والتواجد الاجتماعي مع الآخرين Sociability • ويقرر مارتندال أن فيركانت قد اعتمد في ذلك على كل من ماكدوجال ووليام جيمس وبالدوين وجبريل تارد وكارل جروس و زيمل . كما أنه أعتمد بعد ذلك على تقسيم تونيز للمجتمعات إلى المجتمع المحلي Gemsinschaft والمجتمع Gesellschaft لكي يشرح العلاقات الاجتماعية الأساسية وأشكالها . وركز فيركانت اهتمامه بعد ذلك على دراسة الظاهرات الجماعية مثل الشعور الجمعي والوعي الذاتي للمجموعة والروح المعنوية .

ورأى فيركانت أن جميع العلاقات الاجتماعية تؤثر على الحياة الداخلية للأفراد فالعلاقات الاجتماعية لاتحقق أهدافا خارجية فحسب ولكنها تهدف إلى تحقيق خبرات داخلية ، فالفرد قد يدخل في علاقة اجتماعية مع آخرين لأسباب خارجية أو ليحصل على إشباع داخلي أو لتحقيق الهدفين معاً .

فعلاقات السيطرة والصراع مثلا تقدم إشباعا داخليا للفرد . فالصراع يجعل الشخص يستمتع بالتحصيل والعظمة نتيجة ممارسته لقوته . وعلم الاجتماع الظاهراتي في رأي فيركانت هو الذي يشرح شرحا كافيا الاستعدادات الداخلية العقلية التي يتكون على أساسها المجتمع و طبيعة العلاقات الاجتماعية كما أنه يمكننا من فهم المجموعة . فالمجموعة لها روح خاصة بها تجبر الشخص على أنه يشعر ويفكر ويتصرف بأسلوب محدد . والمجموعة كالفرد لديها وعي بذاتها وحافز للبقاء وتنظيم للحياة .

وعلى ذلك فإن المنهج الظاهراتى ، وهو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع فى رأى فيركانت ، يؤدى إلى الكشف عن جوهر المجتمع والسلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية ، و هذا الجوهر يتمثل فى الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان مثل الاستعداد للمساعدة وللشجار وللتعاطف و للمحاكاة و للإيحاء وللثقة ... إلخ . فهذه الاستعدادات هى الشروط المسبقة apriori pcconditions للمجتمع الإنسانى و يمكن إختزال الحياة الاجتماعية بأسرها إليها . ونظرا لأنها إستعدادات فطرية فإنها قابلة للاكتشاف بشكل مباشر إذا اتبعنا المنهج اللائم . ونظراً لأنها خصائص أصلية للخبرة العقلية فإنها لاتخضع إلا التحليل الظاهراتى الذى يكتشفها و يرجع كافة خصائص الخبرة الإنسانية إليها .

جارفينكل Garfinkel :

يعرف اتجاه هارولد جارفينكل الفنيومينولوجى باسم اتجاه المنهجية الشعوبية ethnomethodology [1] . ويتصف هـــذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتية بموقفه النقدى والرافض للاتجـاه الوضعى فى علم الاجتماع . وقد بدأ جارفينكل برفض تركيز علم الاجتماع على دراسة المظاهر appearances أو الأحداث والسلوك الظاهر لأن ذلك فى رأيه عديم القيمة ولا يشكل جوهر الحياة الاجتماعية ، ودعى بدلا من ذلك إلى التركيز على دراسة المعانى الخفية أو المضمرة أو الضمنية tacit التى توجد فى عقول الأفراد عن مختلف المواقف الاجتماعية والتى لايفكر فيها أحد وتعتبر من الأشياء المسلم بها Taken for granted ومع ذلك تحدد كل تصرفات الناس بما فى ذلك العلماء وهى المسئولة عن وجود تفاعل اجتماعى يتصف بالثبات . فأساس الحياة

(1) Harold Garfinbel, Studios in Ethnomethodology, Englwood Cliffs, N. J. Prentice - Hall 1967.

الاجتماعية عند جارفينكل وسبب تماسكها هو الفهم الضمنى الذى يشترك فيه الناس (دون أن يعبروا عنه) لكل الأمور اليومية العادية والتافهة . فهناك بناء من القواعد والمبادىء الخفيه والمشتركة بين الناس يتصرفون بناء عليها حتى دون أن يعرفونها . ولهذا فإن علم الاجتماع الذى يتبع المنهج الشعوبى يجب أن يجعل موضوع اهتمامه الأفراد العاديين ويدرس الأنشطة اليومية الروتينية لهم ليكشف عن المعانى الخفيه التى وراءها والتى تعتبر جوهر الحياة الاجتماعية .

فهو يهدف إلى فهم الموقف الاجتماعى من الداخل كما يبدو للناس الذين يعيشونه أو كما يحسون به .

ورأى جارفينكل أن العالم الاجتماعى يقع خارج نطاق الزمن . فهو لايهمه أن يعرف كيف تتكون هذه المعانى عند الأفراد أو لماذا تتكون هذه المعانى أو التعريفات للواقع الاجتماعى فى ذهنهم فى فترة زمنية معينة دون أخرى أو لماذا تختلف باختلاف المجموعات الاجتماعية أو باختلاف المكان ، ولكن هدفه هو الوصول إلى تعميمات عامة جداً لاترتبط بزمن معين ولا بثقافة معينة[1] .

وقد رأى جارفينكل أن أهم جانب فى الحياة الاجتماعية هو ذلك الجانب غير المرئى الذى لا نحس به ربما لأنه مألوف جداً ووظيفة عالم الاجتماع الحقيقية هى الكشف عنه وجعل الناس يدركونه وذلك عن طريق مخالفة تلك القواعد أو المبادىء الضمنية غير المدركة بطريقة مفاجئة تجعلنا ندرك أنها هى التى وراء سلوكنا . إن مخالفه هذا المألوف فى رأية هى التى تكشف عن وجوده . والمثال على ذلك ما يأتى :

---

(1) Alvin Gouldner, Opt. ct, p. 391.

أن تأتى مجموعة من الشباب وسط ميدان شديد الزحام وقت الظهيرة فى مدينة مثل أمستردام ومعهم مائة دجاجة حية ويقومون بإطلاقها وسط الميدان لتجرى فى كل اتجاه . سوف يؤدى ذلك إلى دهشة سائقى السيارات وتشتيت انتباههم وقد تقع حوادث وسيتجمع الجمهور وسيرتبك المرور ويتوقف سير الروتين العادى ويضحك الناس عندما يتدخل رجال الشرطة ويجرون خلف الدجاج لجمعه من الطريق .

إن هذا الحدث سوف يجعل الناس تدرك فجأة أهمية قاعدة خفية لا يلاحظونها تحكم سلوكهم فى حياتهم اليومية : لايجب إطلاق الدجاج فى الطرقات أثناء فترات الازدحام خلال النهار !(١)

ولابد أن أعترف هنا للقارىء أننى كنت أكن احتراماً غامضاً للفلسفة الفينومينولوجية وللاستفادة منها فى فهم الواقع الاجتماعى ، وأننى عندما سمعت لأول مرة بهذه التسمية لمنهج جديد فى علم الاجتماع ينبع من الاتجاه الظاهراتى (المنهجية الشعوبية) توقعت أن أقرأ شيئاً عميقا ومفيدا ، وظللت أحاول أن ألم بما قدمه جارفينكل من إسهام ولكننى اكتشفت أن كل ماكتبه وماكتب عنه لا يمكن أن يزيد عن هذه السطور القليلة السابقة مكررة بعشرات الصيغ ومدعمة بعشرات الأمثلة التوضيحية وندمت ندما شديداً على الوقت الذى أنفقته فى هذه القراءة ، ولكن خفف من حدة ندمى أن زال سحر التسمية من عقلى ولم أعد أجهل المضمون الفارغ لهذه البدعة النظرية وقوى إعتقادى بأن هناك جهدا مقصودا لشغل طلاب الاجتماع والمثقفين بأفكار جديدة ينفقون وقتا هائلا فى محاولة فهمها ثم مناقشتها ونقدها ورفضها وماأن ينتهوا من ذلك حتى تفرض عليهم أفكار

---

(1) Alvin Gouldner. Opt.. ct.. p.. 392..

أخرى وهكذا لايلتفتون إلى القضايا الأساسية للمجتمع ولايصلون إلى فهم علمى حقيق له . ورأيت من واجبي أن أقدم هذه الصورة من الأفكار للقارىء العربي حتى يستفيد منها درساً وحتى لا ترهبه الأسماء الكبيرة أو التسميات البراقة التى تتخفى وراء ستار علمى .

ولكن لماذا ينتج المجتمع الغربي هذه الأفكار ؟ ولماذا تتبنى المؤسسات العلمية أصحابها ولماذا تروج دور النشر لها و من الذى يمول عملية إنتاج هذا النوع من الفكر ؟

نستطيع أن نجد إجابة على مثل هذه الأسئلة لدى المستنيرين والعقلاء من علماء الاجتماع الغربيين فى أوربا وأمريكا .

يقرر عالم الاجتماع البريطانى بارى سمارت Smart أننا يجب أن نحلل العوامل السياسية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التى تشجع على قبول وتشجيع ظهور مثل هذه الأعمال غير المفيدة وتقدم لها التمويل اللازم . ويرى سمارت أن تشجيع المؤسسات العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فى الويات المتحدة الامريكية لهذا النوع من الدراسات (١) إنما يرجع إلى أن جارفينكل ومنهجه الشعوبى يركز الاهتمام على مواقف الحياة اليومية وكيفية تصور الناس لها بحيث يصرف الاهتمام تماماً عن أى شىء يتصل بالبناء الاجتماعى وعن أزمات هذا البناء . فهو يقدم علم اجتماع محور إهتمامه هو الكلام والكلام عن الكلام بدلا من الاهتمام بطبيعة ما يفعله الناس وبالعلاقة الجدلية بين الفكر والفعل (٢).

---

(١) قامت القوات الجوية الأمريكية عن طريق مركز البحوث بها بتمويل عدة مؤتمرات عقدت بجامعات كاليفورنيا وكولورادو عن المنهجية الشعوبية واشترك فيها عدد كبير من العلماء الاجتماعيين : أنظر فى ذلك : Gouldner. opt. ct.p;411

(٢) Barry Smart. opt. ct. pp. 108—109.

ويرى عالم الاجتماع الأمريكى آلفن جولدنر أن جارفينكل يقدم بفكره بديلا للعنف فى مقاومة الوضع القائم فى المجتمع الأمريكى ، ذلك أنه يدعو إلى نوع من الفوضوية قد يروق للشباب الساخط على النظام الاجتماعى . فالمنهجية الشعوبية دعوة إلى تغيير الذات بدلا من تغيير النظام أوهو مواجهة فردية صغيرة micro-Confrontation ومقاومة غير عنيفة للوضع القائم لا تزيد عن كونها تمرداً رمزياً يستجيب لمشاعر الشباب حتى لا يعبروا عنها بالثورة أو العنف .

تعليق عام على الاتجاه الفينومينولوجى : —

يلاحظ نقاد الفينومينولوجى أن هذا الاتجاه يتصف أساساً بالتركيز على دراسة المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع بوصفها أساساً للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع . ويتعارض ذلك تمام التعارض مع التحليل العلمى الواقعى للمجتمع الذى يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات ، وأن القدر المتاح من المعانى والخبرات المشتركة بين الأفراد فى المجتمع الواحد أو فى مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات فهناك صراعات عديدة بين الشباب والشيوخ ؟ النساء والرجال ؟ الأغنياء والفقراء ؟ الأميون والمتعلمون ؟ أصحاب السلطة والقوة والخاضعين لهم ؟ دعاة السلام ودعاة الحرب ؟ الاشتراكيون والرأسماليون ؟ العالم الثالث والبلدان المتقدمة (١) . أى أن المسلمة الأساسية التى تنص عليها التحليلات الفينومينولوجيه عن طبيعة الواقع الاجتماعى (الخبرات الفكريه المشتركة) لا تدعمها الأدلة الإمبيريقية بل هناك أدلة تنفيها .

---

(١) Gunter Remmling(ed)Towards The Sociology of Knowledge Routledge and Kegan Paul Paul. London. 1973. p. 29.

وقد تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجى مسألة الصراع الطبقى العنيف فى مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يشيروا إليه أو يفسروه على الرغم من أنه كان يفرض نفسه على الجميع ، مثال ذلك تجاهل أحد أقطاب هذا الاتجاه وهو ألفرد شوتز Schutz لضرب العمال بالمدفعية فى فينا عندما كان دولفوس Dollfus رئيساً للوزراء ، كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعى الاقتصادى للمجتمع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كانا منفصلين عن هذا الواقع ولا يتأثران به(١) .

وقد كانت النتيجة الحتمية لكل ذلك تحويل علم الاجتماع الفينومينولوجى إلى دراسات ميكروسوسيولوجية Micro - sociological (أى دراسات اجتماعية للوحدات الصغيرة وليس للبناء الاجتماعى) تركز أساساً على الخصائص الكلية للأفعال والمعانى الشائعة (كما هو الحال فى المنهجية الشعوبية) مما يؤدى إلى قصر اهتمام علم الاجتماع على دراسة ذلك الحيز المحدود من الحياة الخاصة كما لو كان منعزلا تماماً عن كل ما يحيط به(٢) .

ويشترك الاتجاه الفينومينولوجى مع الاتجاه الوظيفى وخاصة عند بارسونز فى أنه يعانى من تضخم لفظى يتزايد باستمرار galloping verbal inflation على حد تعبير دافيد مارتن . كما أنه يتصف بقدرة على صف مجموعة من الحقائق البديهية التى نعرفها جميعاً truisms سوياً دون أن يضيف إلى معرفتنا شيئاً جديداً(٣) .

Ibid. p. 29. (١)

(٢) أنظر نقداً تفصيليا للاتجاه الفينومنيولوجى المنهجى الشعوبى فى :

Hans Peter Dreitzel (ed), Recent Sociology No 2. Patterns of Communicative Behaviorl. Eight Articles That Demonstrate What Ethnomethodology is All About, New York :Macmillan 1970.

(3) Martin David. The Sociology of Knowledge In. Remmling (ed) Opt. ct, p. 313.

ومما لا شك فيه أن ظهور علم الاجتماع الفينومينولوجي قد زاد من حدة أزمة علم الاجتماع الغربي ، فعلى الرغم من أن أصحابه قد قدموه كمحاولة لإيجاد بديل للنظريات القائمة إلا أن النتيجة النهائية لظهوره هي إضافة إتجاه جديد يزيد من تعدد وتنوع الاتجاهات في النظرية الاجتماعية(١) .

موجز القول أن الاتجاه الفينومينولوجي يصور الواقع الاجتماعي على أنه مجرد المعاني والخبرات الفردية المشتركة ويهمل تماماً الأساس الاجتماعي — الاقتصادي للمجتمع ويجعل وحدة تحليله أفكار الأفراد ويسلم بثبات البناء الاجتماعي ضمنياً عن طريق إستبعاده من مجال الدراسة ويجعل الإنسان عاجزاً حيال هذا الواقع الاجتماعي ويدعوه إلى التأمل في ذاته واكتشافها وتغييرها بدلا من دعوته لتغيير واقعه الاجتماعي ، والاتجاه الفينومنيولوجي لا يعتمد على أي متغيرات تاريخية في تفسيره للظاهرات الاجتماعية ولا يميز بين المجتمعات في إطار الزمان أو المكان. والأدلة الواقعية تنفي صحة المسلمات الأساسية التي ينهض عليها هـــذا الاتجاه . وأخيراً فإن العلماء الاجتماعيين النقديين يعتبرون الاتجاه الفينومنيولوجي اتجاهاً محافظاً من الناحية الإيديولوجية .

(1) Peter Hamilton. Knowledge And Social Structure. Routledge and Kegan Paul. London. 1974 p 80

الفصل الحادى عشر

السلوكية الاجتماعية

Social Behaviorism

أول من استخدم هذا المصطلح عالم الاجتماع الأمريكى جورج هربرت ميد صاحب الاتجاه المعروف باسم التفاعل الرمزى Symbolic interaction . وقد استخدمه بعد ذلك دون مارتندال فى كتابه « طبيعة وأنماط النظرية الاجتماعية » ليشير به إلى مجموعة من النظريات المتنوعة ولكنها تشترك فى خاصية أساسيه هى اعتبار السلوك الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع ، مما جعلها تختلف عن النظريات الوضعية العضوية ونظريات الصراع التى أهتمت بالبناء الاجتماعى والنظريات الشكلية Formalisms التى اهتمت بالعلاقات المتبادلة ، كما حاولت هذه النظريات السلوكية الاجتماعية أن تبتكر أساليباً أمبيريقية جديدة للدراسة الاجتماعية[1].

ومن أعلام المدرسة السلوكية الاجتماعية جبريل تارد Tarde و فرانكلين هنرى جيد نجز Giddings (أمريكى) وإدوارد روص Ross (أمريكى) وتشارلس هورتون كولى Cooley (أمريكى) ووليام توماس Thomas (أمريكى) وجورج هربرت ميد Mead (أمريكى) و ماكس فبر (ألمانى) وتورستون فبلن Veblin (أمريكى) وجون كومونز Commons (أمريكى) وروبرت ماكيفر MacIver (أمريكى) وفلورين زنانيكى . كما أن أعمال بارسونز الأولى يمكن أن تدرج تحت هذه الاتجاه .

(*) يسمى هذا الاتجاه فى بعض المؤلفات بالاتجاه السيكولوجى .

(1) D, Martindale, Ort Cit, p, 285,

ويرى مارتندال أن هذا الاتجاه قد ظهر وتبلور فى الفترة مابين ١٨٩٠ و ١٩١٠ وهى الفترة التى بدأ علم الاجتماع فيها يتخذ وضعاً أكاديميا معترفا به وأصبحت له مؤسساته وأصبح مهنة متخصصة . وكان على علماء الاجتماع أن يحددوا لأنفسهم مجالا متميزا ومهاما محددة . ومن هنا بدأ أصحاب هذا الاتجاه برفض الكيانات الاجتماعية الكلية كوحدة للتحليل الاجتماعى (المجتمع الكلى أو المجتمع الإنسانى) وركزوا بدلا من ذلك على السلوك بوصفه وحدة التحليل . وارتبطت بذلك محاولة تقديم منهج مناسب لدراسة هذا السلوك يجعل من علم الاجتماع علماً أمبيريقيا يعتمد على إستخدام أساليب مثل الإحصاء والمقاييس و دراسة الحالة وتاريخ الحياة والأساليب المقارنة[1] .

ومن الواضح أن هذا الاتجاه قد حول الاهتمام من دراسة الكيانات الكلية الاجتماعية إلى دراسة الكيانات الصغيرة أى أنه يمثل فى نفس الوقت اتجاه دراسة الوحدات الصغرى micro-sociology وسوف نلاحظ عند عرضنا لأعمال ممثلى هذا الاتجاه أنه يرتكز على نفس المسلمات الرئيسية عن طبيعة الواقع الاجتماعى (واقع فكرى يتسم عموما بالثبات) وطبيعة الإنسان (عديم القدرة على تغيير واقعه) التى ارتكزت عليها النظريات الكلاسيكية المثالية والنظريات الحديثة (مثل الوظيفية والفينومنيولوجيا) كما أنه يتخذ نفس الموقف من الأوضاع القائمة فى المجتمع (تجاهل الصراع الاجتماعى والتسليم بمشروعية النظام) .

وعلى الرغم من اشتراك ممثلى هذا الاتجاه فى هذه الخواص الرئيسية إلا أن بينهم اختلافات فى التفاصيل التى يهتمون بها مما جعل مارتندال يصنفهم إلى ثلاث إتجاهات فرعية داخل السلوكية الاجتماعية هى :

---

(2) Ibid. P. 435.

١ — السلوكية الجماعية Pluralistic Behaviorism

٢ — التفاعل الرمزى Symbolic Interaction

٣ — الفعل الاجتماعى Social Action

ولكننا نرى أنه يمكن إضافة ثلاث إتجاهات فرعية أخرى لهذه الاتجاهات الثلاث لأنها تشترك معها فى نفس الخصائص العامة هى :

١ — الاتجاه الموقفى Situational appoach ويمثله ويليام أيزاك توماس Thomas (١٨٦٣—١٩٤٧) الذى اعتبر القيم والاتجاهات هى الوقائع السلوكية التى يجب أن يهتم علم الاجتماع بدراستها ويجب أن يتم ذلك فى إطار الموقف الذى يحدث فيه السلوك[1] .

٢ — إتجاه التبادل Exchaunge approach ويمثلها جورج هومانز Homans الذى حاول الجمع بين الاتجاهات الموقفية والفعل الاجتماعى والوظيفية والذى أعتبر السلوك الاجتماعى موضوع علم الاجتماع . وكذلك آلفن جولدنر وبلاو Blau .

٣ — نظرية المجال field Theroy ويمثلها كورت ليفين Lewin (١٨٩٠ — ١٩٤٧) وتعتبر نظريته نظرية سيكولوجية تماما حيث كان موضوع إهتمامه الفرد وكيفية تأثر إدراكه وإستجاباته بالعوامل التى توجد فى المجال أو للموقف الذى يحدث فيه السلوك .

---

(١) يمكن الرجوع إلى :

Morris Janowitz, ed., W. I Thomas on Social Organization and Social Personality Chicago ; University. of Chicago Press, 1966.

وسوف نكتفي هنا بعرض نموذجين للسلوكية الاجتماعية هما السلوكية الجمعية والتفاعل الرمزي .

أولا : إتجاه السلوكية الجمعية

يعتبر إتجاه السلوكية الجمعية أقدم الاتجاهات في مدرسة السلوكية الاجتماعية وترجع نشأته إلى أعمال عالم الاجتماع الفرنسي جبريل تارد (١٨٤٣ — ١٩٠٤) وقد أطلق على هذا الاتجاه تسميات مختلفة تدل جميعها على مضمونه مثل : إتجاه التقليد — الإيحاء ، أو الاتجاه السيكولوجي أو الاتجاه السيكولوجي الاجتماعي : ولكن جيد نجز عالم الاجتماع الأمريكي أسماه السلوكية الجمعية Pluralistic Behaviorism .

ويسلم أصحاب هذا الاتجاه بأن النواة الأولية في بناء المجتمع تتكون من شخصين يؤثر أحدهما في الآخر تأثيرا روحيا ، والعلاقة التي تنشأ بين هذين الشخصين هي العنصر الضروري الوحيد للحياة الاجتماعية وهي موضوع دراسة علم الاجتماع الذي يجب أن يهتم بما يدور بين عقول الأفراد من تفاعل ويبحث معتقدات وأفكار ورغبات هؤلاء الأفراد وكيفية تعبيرها عن نفسها في صورة سلوك يمكن ملاحظته أو وحدات من الأفعال المتكررة Repeated unit acts .

ولا يهتم أصحاب هذا الاتجاه بالبعد التاريخي للحياة الاجتماعية ولا بالبناء الاجتماعي الكلي بل إن الأمر يصل بهم إلى حد المطالبة بتغيير اسم علم الاجتماع إلى علم نفس المجتمع[1] .

(I) F.H. Giddings. Studies in the Theory of Human Society. (New York, Macmilan, 1922) P. 252.

وسوف نعرض فيما يلي بإيجاز لأهم أصحاب هذا الاتجاه : تاردو جيدنجز .

١ — جبريل تارد :

رأى جبريل تارد (١٨٤٣ — ١٩٠٤) مؤسس هذا الاتجاه أن أساس الحياة الاجتماعية هو المعتقدات والرغبات التى تتخذ مسميات مختلفة مثل : العقائد والعواطف والقوانين والعادات الجمعية والأخلاق . . . إلخ .

ووظيفة علم النفس دراسة العلاقات المتبادلة بينها فى عقل الفرد ولكن وظيفة علم الاجتماع دراسة العلاقات المتبادلة بينها فى عقول الأفراد ، ووسيلة دراستها الإحصاء الذى يساعدنا على تعداد الأفعال المتشابهة والتى تمثل التعبيرات الظاهرة للمعتقدات والأفكار .

ورأى تارد أن هناك ثلاث عمليات اجتماعية أساسية يحدث بمقتضاها التفاعل بين المعتقدات والأفكار هى : التكرار (التقليد) والمعارضة والتكيف . وألف تارد ثلاث كتب يعالج كل منها إحدى هذه العمليات هى : قوانين التقليد Les Lois de I'imitation والمعارضة العامة L'oppasition Universelle والمنطق الاجتماعى la Logique Sociale [1] .

والحياة الاجتماعية فى رأى تارد تعتمد على تفاعل عاملين : الاختراع والتقليد فالاختراع ، وهو فى جوهره ظاهرة فرديه ، يضمن للمجتمع التجديد والتقدم والتقليد يضمن للمجتمع الاستمرار . وقد كتب تارد فى كتابه قوانين التقليد : « إن المجتمع لا يستطيع أن يعيش ولا أن يتقدم إلى الأمام ولا أن يتطور دون أن يعتمد على ينبوع الروتين والتقليد الذى لاينضب والذى يتزايد باستمرار على تعاقب الأجيال » .

---

(1) Martindale. Opt. Cit. P. 307.

وشبه تارد الميل الثقافى لدى الإنسان للتقليد بتقليد القرود وتقليد الخراف. وبناء على ذلك عرف تارد المجتمع بأنه «مجموعة من الناس تربط بينهم روابط إما لأنها يقلدون بعضهم بعضاً وإما لأن بينهم نوعا من التشابه والصفات العامة وهى فى مجموعها لاتخرج عن كونها صورا قديمة لنموذج واحد[٢]».

والأسرة تعتبر فى رأى تارد المسئولة عن انتقال الأفكار والمعتقدات وعن ظهور أشكال اجتماعية أكثر تعقيداً.

والمعارضة عند تارد تعنى الصراع بين موجتين من موجات التقليد تأتيان من مصادر مختلفة. فالصراع فى المجتمع هو صراع الأفكار والمعتقدات ولا صلة له بصراع المجموعات الاجتماعية أو صراع المصالح. وتتخذ المعارضة صوراً مختلفة مثل الحرب والتنافس والمناقشة.

أما التكيف فيعنى الوصول إلى حالة من الاستقرار بعد تقبل الاختراعات الجديدة وانتشارها عن طريق التقليد.

وفسر تارد ظهور الأشكال الاجتماعية المختلفة تفسيرا سيكولوجيا مستخدماً مفهومى الاختراع والتقليد. فالأفراد الموهوبين المخترعين كونوا مجموعة النبلاء التى احتكرت الاختراعات والتى كانت مصدراً مشعا لموجات التقليد ثم حلت محلهم المدينة كمصدر للاختراعات وأخيراً أصبحت الأمة هى المصدر العام للاختراع وموجات التقليد[١]

---

(١) السيد محمد بدوى. مبادىء علم الاجتماع. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧١ ص ١٤٩ — ١٥٠.

(1) Martindale. Opt. Cit. P. 308.

ويعد تارد مسئولا عن ذيوع الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع ومن ظهور علم النفس الاجتماعى كفرع مستقل للدراسة وكان له تأثير كبير على ظهور دراسات التغير الاجتماعى والضبط الاجتماعى وعلم الإجرام . وقد تأثر به الكثير من علماء الاجتماع الامريكيين الشهيرين أمثال جيدنجز وروص وأجبورن ونيمكوف وعبروا عن آرائه ومسلماته الأساسية بطرق مختلفة .

وسوف نتناول هذه المسلمات الأساسية بالنقد بعد انتهائنا من عرض أراء ممثلى الاتجاهات المختلفة داخل مدرسة السلوكية الاجتماعيه نظراً للتشابه الكبير بين كافة ممثلى هذة المدرسة فى الأسس التى ترتكز عليها نظرياتهم وإن اختلفوا فى النقاط الفرعية التى يركز عليها كل منهم .

٢ — فرانكلين هنرى جيدنجز F. H. Giddings

إتفق جيدنجز مع تارد فى تسليمه بأن هدف علم الاجتماع هو دراسة العلاقات المتبادلة بين سيكولوجية الأفراد وأن وحدة التحليل الأساسية هى وحدات الفعل أو السلوك و أن أنسب أسلوب للدراسة هو الإحصاء .

وركز جيدنجز (١) اهتمامه على نوع معين من العواطف أو الأفكار التى توجد فى عقول الأفراد وهى ما أسماه بالشعور بالنوع Consciosness of kind ورأى أن هذا

(١) من أهم مؤلفات جيدنجز :

The Principles of Sociology (New York; Macmillan, 1926).
The Elements of Sociology. 1916.
The Scientific Study of Human Society. 1924.

الشعور هو أساس المجتمع الإنساني وهو الذى يحدد العلاقات بين أفراده[٢] وعلى هذا فالمجتمع يمثل أساساً ظاهرة نفسية . والشعور بالنوع هو الذى يجعل كل شخص يدرك وجود غيره على أساس التشابه بينهما فى النوع (سواء كان هذا الادراك عضويا أو عاطفيا أو يتعلق بالرغبة) .

ورأى جيدنجز أن الشعور بالنوع « يجعل الأفراد يتصرفون بطريقة معنية بحيث تتحقق بينهم فى لحظة معنية غواطف مشتركة ، كما يتوصلون إلى أحكام متشابهة . وقد يسلكون فى بعض الأحيان نفس المسلك . من ثم يمكن أن يؤدى هذا التفاعل إلى ظهور هذا العقل الاجتماعى . وهذا الوعى بالنوع هو الذى يجعل أى تجمع للأفراد يتحول إلى مجتمع .

وقد ميز جيدنجز فى كتابه علم الاجتماع الاستقرائى Inductive Sociology بين خمس أنواع من الشعور بالنوع :

(١) التعاطف العضوى . (٢) إدراك التشابه .

(٣) التعاطف المتبادل . (٤) الحب .

(٥) الرغبة . وتحدد طبيعة كل من هذه الأنواع من الشعور بالنوع (أو التماثل العقلى) كل ما هو أساسى بالنسبة للمجتمع مثل التنظيم الاجتماعى أو المؤسسات والطبقات الاجتماعية . ويترتب على هذا الشعور بالنوع تماثل فى الاستجابات لدى الأفراد الذين لديهم هذا الشعور . ويمكن تصنيف الشخصيات

---

(١) مصطفى الخشاب . علم الاجتماع ومدارسه . الكتاب الثالث . الدار القومية للطباعة والنشر : القاهرة . ١٩٦٦ . ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) نيقولا تيماشيف . مرجع سبق ذكره ص ١٣٠ — ١٢٢ .

التي توجد في المجتمع على أساس التماثل بينهم في الاستجابات إلى أربعة أنماط من من الشخصية : النمط القوى the forceful والنمط المرح the Convivial والنمط المتزمت the austere والنمط الواعي العقلاني the rationally Conscious . ويرتبط بهذه الأنماط الأربعة من الشخصية أربعة أنماط عقلية هي : الفكرى الحركى the ideo—motor والفكرى العاطفى the ideo—emotional والعاطفى المتزمت the dogmatic emotional والمثقف النقدى the Critical intellectual . وبناء على هذه التقسيمات السيكولوجية للناس في المجتمع قسم جيد نجز المجتمع إلى ثلاثة أنواع من الطبقات : طبقات الحيوية وطبقات الشخصية والطبقات الاجتماعيه .

ولا تدخل النواحى الاقتصادية في تحديد أى من هذه الطبقات ولكنها جميعاً تعتمد على الخصائص السيكولوجية والبيولوجية . ورأى جيدنجز أنه يمكن تقسيم الناس في المجتمع من حيث الحيوية إلى طبقة ذات خصوبة عالية (تتميز بارتفاع معدلات المواليد وإنخفاض معدلات الوفيات وتوجد بالريف) ، وطبقة ذات خصوبة متوسطة وتضم رجال الأعمال والمهنيين وطبقة ذات خصوبة منخفضة تتميز بارتفاع معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات وتضم العمال في المدن . كما يمكن تقسيم الناس إلى طبقات حسب شخصيتهم ، فهناك طبقة العباقرة وطبقة الموهوبين وطبقة العاديين وطبقة المعوقين . أما الطبقات الاجتماعية فتتحدد على أساس الإسهام في الحياة الاجتماعية . فهنـــاك الطبقة الاجتماعية الحقيقية والطبيعية والتى تمثلها الأرستقراطية وتتميز بدرجة عالية من الشعور بالنوع وهناك الطبقة الزائفة التى تتصف بدرجة منحطة من الشعور بالنوع .(1)

---

(1) Martindale. Opt. Ct. P. 319—320.

ثانياً : إتجاه التفاعل الرمزى Symbolic interaction

يتفق اتجاه التفاعل الرمزى مع اتجاه السلوكية الجمعية فى المسلمات الأساسية التى يعتمدان عليها فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعى ووحدات التحليل الاجتماعى الصغرى ، ولكنهما يختلفان من حيث أن اتجاه السلوكية الجمعية الذى ظهر فى أوربا قد تأثر إلى حد كبير بعلم النفس التجريبى ، بينما تأثر اتجاه التفاعل الرمزى الذى ظهر فى أمريكا بالفلسفة البراجماتية (النفعية) ، كما أن اتجاه السلوكية الجمعية قد جعل موضوع التقليد محور اهتمامه بينما ركز اتجاه التفاعل الرمزى على الاتجاه والمعنى attitude and meaning ولذلك جعل الشخصية أو الذات محور دراسته.[1]

ومن أبرز ممثلى اتجاه التفاعل الرمزى تشارلز هورتون كولى Charles Horton Cooley وجورج هربرت ميد George Herbert Mead.

تشارلز كولى :

رأى كولى أن التصورات التى يكونها الناس عن بعضهم البعض تشكل الحقائق الأساسية بالمجتمع ، وعلى هذا عرف المجتمع بأنه « ظاهرة عقلية أو علاقة بين أفكار شخصية » ورأى أن مهمة علم الاجتماع دراسة العلاقة بين الذات Self والمجتمع عن طريق تحليل التخيلات أو التصورات التى توجد لدى الناس عن بعضهم البعض[2]. وقد عبر كولى عن ذلك بقوله :

« إن المجتمع ... عبارة عن علاقة بين أفكار شخصية . فلكى يوجد مجتمع مالابد

---

(1) Don Martindale. Opt. P. 339.

(2) Charles Horton Cooley. Hmuan Nature and the Social Order (New York; Charles Scribner's Sons, 1902, pp. 121—22.

أن يلتقى الأشخاص سوياً فى مكان ما ، وهؤلاء الأشخاص يلتقون سوياً على المستوى الفكرى فى العقل ... وليس هناك مجال آخر يمكن التقاء الأشخاص فيه غير هذا المجال المشترك ... فالمجتمع يوجد فى عقلى على شكل التقاء أفكار معينة مثل « أنا » و « توماس » ، « وهنرى » ، وسوزان . . . الخ . وهو يوجد فى عقلك بنفس الكيفية وهكذا يوجد فى كل عقل » .

ورأى كولى أن الذات عبارة عن بناء تخيلى imaginative reconstruction للكيفية التى يدرك بها الشخص تفسير الآخرين لمظهره .

وقد أشار كولى للذات بتعبير الذات المرآة Looking—glass self . ورأى أن هذه الذات تتكون من ثلاث عناصر أساسية :

تصور كيف تبدو بالنسبة للشخص الآخر ، وتصور حكمه على هذا المظهر الذى يراه منا ، وشعور ما بالذات كالفخر أو الخزى .(1)

ولكى نكشف عن تصورات الناس يجب أن نتبع أسلوب الاستبطان التعاطفى sympathetic introspection ، أى أن يضع الباحث نفسه فعلا أو تصورا فى موقف مبحوثية ثم يستخدم خياله فى إعادة بناء العلاقة بين المنبهات التى توجد فى هذا الموقف وبين مايلاحظة من نشاط سلوكى . والمادة التى يحللها علم الاجتماع تتكون من تخيـــلات الناس عن بعضهم البعض وكذلك من الأفكار التصورية والتفسيرية للباحث . ورأى كولى أنه يمكن الجمع بين الطريقة التعاطفية الاستبطانية وبين الطريقة الإحصائية فى البحث الاجتماعى .

وقد طور كولى مفهومه عن الذات المرآة وطبقه على المجموعات الإنسانية وكيفية

---

(1) Ibid. pp. 183—184.

التنظيم الاجتماعى . وقد ميز بين نوعين من المجموعات : ما أسماه بالمجموعات الأولية وما أسماه بالمجموعات الثانوية . وقـــد عرف المجموعة الأولية primary group كما يأتى :

أعنى بالمجموعة الأولية تلك التى تتصف بالعلاقات الحميمة والمباشرة face—to face والتعاون بين أعضائها . وهى أولية من عدة نواح أهمها أنها أساسية فى تشكيل مثل الفرد وطبيعته الاجتماعية . والنتيجة السيكولوجية للعلاقة الحميمة هى إمتزاج الأفراد فى كل مشترك بحيث تصبح ذات كل فرد هى الحياة المشتركة للمجموعة . وربما كانت أبسط طريقة تصف بها هذا الشكل المشترك هى أن نسميه « النحن » We ، ففى هذه المجموعة يكون تعبير « نحن » هو التعبير الطبيعى عن التعاطف والتوحد المتبادل بين الأعضاء . فالعضو يعيش فى شعور المجموع ويجد أهدافه الأساسية فى ذلك الشعور ».(1)

ومن أمثلة هذه المجموعات الأولية الأسرة وجماعة الصبية وجماعة الجوار وجماعة المسنين . والمجموعة الأولية ذات أهمية كبرى فى تكوين الطبيعة الاجتماعية للفرد وفى تكوين مثله . وهذه المثل التى تنشأ فى المجموعة الأولية هى التى تشكل وحدة وبناء العقل الاجتماعى . ومثلما يمكن تصنيف الشخصية إلى أنماط على أساس ماتحويه من أفكار ومثل ، يمكن تصنيف البناء السياسى والدينى والأسرة والفن واللغة إلى أنماط (1). وقد كان لكولى تحيزاته السياسية الواضحة بحيث رأى بعض المفكرين أن نظريته تعتبر محافظة إلى حد بعيد من حيث أنه كان يرى أن شكل

---

(1) C. Cooley, Social Organization (New York; Schocken Books, 1962). P.23.

(2) Theodore Abel. The Foundation of Sociological Theory. New York.

المجموعة الأولية هو الأمثل بالنسبة للمجتمعات [1] كما أنه دافع عن الاستعمار الأمريكي مستخدماً فى ذلك نظريته عن الذات المرآة حيث رأى أن الوعى بالذات لدى الأمريكين أرقى منه لدى غيرهم .[2]

جورج هربرت ميد

اتخذ ميد (١٨٦٣ — ١٩٣١) نفس الاتجاه السلوكى فى تفسيره للعمليات التفاعلية بين الأفراد فى المجتمع . وقد رأى ميد أن العقل نتاج للاتصال الإنسانى وأن الوعى بالذات والشخصية إنما هما نتاج للقدرة الإنسانية على الاتصال باستخدام الإشارات الفيزيقية والأصوات الرمزية . وقد رأى ميد أن وحدة التحليل يجب أن يكون الفعل الاجتماعى وعرف الفعل الاجتماعى بأنه فعل متبادل بين فردين أو أكثر . وقرر ميد أن اللغة تمثل الخاصية المميزة للإنسان وأنها قد ظهرت نتيجة للتفاعل بين الأفراد ، وأول صورة لها هى الإشارات gestures التى يعبر بها الإنسان عن انفعالاته . وتصبح هذه الإشارات وسيلة هامة فى التفاعل الرمزى حيث تكتسب معنى يتفق عليه كل أعضاء المجموعه . والإشارات هى أساس اللغة كما أنها أساس النشاط العقلى [1] . والوظيفة الأساسية للإشارات هى تسهيل السلوك العقلانى وجعل التنظيم الاجتماعى الذى يتسم بالثبات شيئاً ممكنا .

ومن خلال التفاعل الرمزى بين الأفراد ينشأ الوعى بالذات لدى كل فرد . وهذا الوعى بالذات يحدث عندما يستطيع الفرد أن يفسر عقليا المعنى الرمزى لإشاراته . ولايستطيع الفرد أن يشعر بذاته إلا من خلال إشارات الآخرين التى تحمل معنى رمزيا . أى أن الوعى بالذات يتم عن طريق أن يجعل

---

(1) Philip Rieff, Introduction to Cooley's Social Organization· P. 23.

(2) Schwindinger. opt. cit.

الشخص ذاته موضوعا Object للملاحظة تماما مثلما يجعل الآخرين موضوعات لهذه الملاحظة . (١)

والذات تتكون لدى الفرد من خلال عملية التفاعل فى المجموعة . فالذات لا يولد بها الشخص ولكنها تنشأ عن طريق الخبرة والنشاط الاجتماعى وعلى هذا فإن أساس الذات يتكون فى مرحلة التطبيع الاجتماعى أثناء الطفولة . ويمر تكوين الوعى بالذات بثلاث مراحـــل تطورية : مرحلة المحاكاة فى الأفعال Imitative acts ومرحلة اللعب The Play stage ومرحلة الإلمام بقواعد اللعبة The game stage والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من العمر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الاخرين المحيطين به مثل الآباء والإخوة والأخوات . أما المرحلة الثانية فإنها تبدأ عندما يصل الطفل إلى سن الثالثة وتتسم بميل الطفل إلى اتخاذ أدوار الآخرين حيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشرطة . وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى الخروج عن نطاق نفسه أى أنه يبدأ فى الاهتمام باتجاهات الاخرين نحوه بوصفه موضوعا . واتخاذ دور الآخر Role taking هو العملية الأساسية فى تكوين الذات (٢) . وفى مرحلة اللعب هذه يكتسب الفرد مجموعة من « الذوات Selves » يتم التكامل بينها فى المرحـــلة الثالثة The game stage وهى المرحلة التى تظهر فيها الذات الموحدة Unified self وفى هذه المرحلة يصبح الطفل قادرا على تبنى اتجاهات كل أعضاء المجموعة التى ينتمى إليها وعلى تصور دور كل فرد فى المجموعة والقيام به . وقد أسمى ميد

---

(1) George H. Mead, Self and Society, ed. Charles W. Morris (Chicago; University of Chicago Press, 1934) P. 7.

(2) Don Martindale. Opt. Ct. P. 357.

المجموعة الاجتماعية التى يكون الفرد من خلالها ذاته الموحدة بالآخر المعمم Generalized other . ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه .

تعليق عام على نظريات السلوكية الاجتماعية :

انتشرت الاتجاهات المختلفة للسلوكية الاجتماعيه وتبلورت فى الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين وكان لعلمائها تأثيرات كبيرة على الكثير من مجالات الدراسة والبحث فى علم الاجتماع . والسمة العامة المشتركة بين اتجاهات السلوكية الاجتماعية هى تركيزها على تحليل الوحدات الصغرى فى المجتمع Micro — Analysis (الفرد والمجموعة الصغيرة) وعلى دراسة الجوانب السلوكية والسيكولوجية للأفراد (الاتجاهات والقيم والأفعال .. الخ) وتجاهل تحليل الوحدات الكبرى للمجتمع Macro — Analysis . وبذلك اختزلت السلوكية الاجتماعية الحياة الاجتماعية بأسرها إلى مجرد حالات سيكولوجية مجتزأة تماما من سياقها العام، كما أن أسلوب دراستها تركز على الاستبطان وملاحظة السلوك وأغفلت تماما الأسلوب التاريخى .

والنتيجة الحتمية لكل ذلك أن السلوكية الاجتماعية قد استبعدت النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى من نطاق الدراسة أو جعلته موضوعا غير مشكل Non — Problematic ويعنى ذلك فى المقام الأول اتخاذ موقف إيجابى غير نقدى من الأوضاع القائمة تماما مثلما فعل أصحاب الاتجاه الوضعى ومن تلاهم من العلماء وتوجيه اهتمام الباحثين إلى دراسة التفاصيل الصغيرة فى الحياة الاجتماعية وصرف اهتمامهم عن دراسة القضايا الأساسية للمجتمع . كما أن مفهوم أصحاب السلوكية الاجتماعية عن التغير الاجتماعى انحصر فى نطاق التغير السيكولوجى للأفراد وليس التغير فى الأنساق الاجتماعية الكبرى .

وقد كشف بعض العلماء الأمريكيين الراديكاليين عن التحيزات الأيديولوجية والسياسية لكثير من أصحاب اتجاهات السلوكية الاجتماعية . فقد استخدم كولى مثلا فكرة الشعور بالذات The feelings of self ليبرر بها استعمار البلاد الأنجلو ساكسونية لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، حيث قرر أن الأمريكيين والبريطانيين يتسمون بالاعتماد على الذات والمثابرة وضبط النفس مما يجعلهم أكثر رقيا بالنسبة لغيرهم . كما استخدم نفس هذه الادعاءات فى تبرير قمع واستغلال المجموعات القومية والعنصرية فى الولايات المتحدة ذاتها . كما أن جيد نيجز دافع عن الحرب الامبريالية ضد اسبانيا وعن توسيع رقعة الإمبراطورية الأمريكية عن طريق الغزو . إشترك مع جيد نجز فى ذلك كثير من السلوكيين الاجتاعيين أمثال روص وكولى .

الفصل الثانى عشر

الاتجاهات الراديكالية

شهدت الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية ابتداء من ستينات القرن العشرين اتجاهاً متزايداً بين المتخصصين فى علم الاجتماع وخاصة الشباب منهم نحو نقد وإعادة تقييم لنظريات علم الاجتماع السائدة وعلى وجه الخصوص النظرية الوظيفية وماتضمنته من مسلمات وما تحتوى عليه من مضمون أيديولوجى وماتشير إليه من إجراءات عملية تطبيقية .

إن أهم نقد وجه لنظريات علم الاجتماع التقليدى أو علم إجتماع للمؤسسة establishment sociology كما يسميه الراديكاليون هو أن هذه النظريات ليست سوى تبريراً أيديولوجياً للنظام الرأسمالى الإمبريالى وأنها تدعيم باسم العلم للوضع القائم status quo وقد تبلور التيار الراديكالى فى علم الاجتماع بوصفه نقداً جذريا لعلم الاجتماع التقليدى وبوصفه دعوة لإحداث تغيير جذرى فى النظام الاجتماعى القائم فى الغرب يؤدى إلى استبداله بنظام آخر جديد .

ويرى المؤرخون لعلم الاجتماع الراديكالى (١) أنه قد ظهر بقوة فى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لعوامل متعددة سادت المناخ السياسى والاجتماعى فى هذه البلد أهمها فقدان الشباب لثقتهم فى النظام الأمريكية واكتشافهم لزيف ادعاءات القوى الحاكمة عن أنها تهدف للتقدم والسلام والرخاء والعدالة الاجتماعية .

---

(1) J. D. Colfax and J. L. Roach (eds.) Radical Sociology. Basic Books, New York, 1970, P. P. 3—21

فقد رأى الشباب كيف أن كل ما تفعله القوى الحاكمة مضاد تماماً لإدعاءاتها فالبطالة تتزايد والتفاوت الطبقى يتزايد وقمع المعارضين للحكم يتخذ أعنف الصور حتى يصل إلى الاغتيال والسياسة الخارجية تعتمد على إبادة الجنس البشرى فى فيتنام وعلى التدخل المسلح فى أمريكا اللاتينية وآسيا . كما شاهد الشباب زيف الديموقراطية التى يدعيها الحكام وكيف يقتل المنادين بالحرية باسم القانون والنظام . وكان من جراء ذلك أن فقدت الشعارات الرائجة عن الحرية والديموقراطية والعدالة معناها بالنسبة لهم .

وبدأ المثقفون وبخاصة الطلبة يثيرون أسئلة لم تكن تثار من قبل حول الطبيعة السياسية للمؤسسات التعليمية التى كانت تدعى أن مهمتها الأساسية كشف الحقيقة وإجراء البحوث الحرة . بدأ طلاب علم الاجتماع بالذات يتساءلون عن الدور السياسى لعلم الاجتماع ، فقد لاحظ هؤلاء الطلاب أن علماء الاجتماع لم يولوا الأحداث الجارية فى المجتمع أى اهتمام . ففى الوقت الذى كان المجتمع الأمريكى مسرحاً للغليان السياسى والاجتماعى حيث بدأت ثورة الملونين على استغلالهم ومطالبتهم بحقوقهم المدنية وثورة الشباب على الحرب فى فيتنام واضرابات العمال لزيادة الأجور — فى هذا الوقت كان علماء الاجتماع يتشدقون بمفهومات الإجماع القيمى Consensus value التى ابتدعها تالكوت بارسونز ومفهومات الوظيفة الكليه Pan—functianalism التى ابتدعها دافيز . وكان أخصائيو التدرج الاجتماعى يتحدثون عن الأبعاد الوظيفية للامساواة الاجتماعية ويدافعون عن التفاوت الطبقى . وكان أخصائيو العلاقات العنصرية يبررون استغلال الملونين ويصرفون الناس عن الاهتمام بأسبابه الحقيقية مدعين أن أسباب التعصب العنصرى ترجع إلى عوامل سيكولوجية يمكن علاجها فيسود السلام الاجتماعى بين البيض والملونين .

ولاحظ طلاب علم الاجتماع أن هذا العلم ، مثل الجامعات التى تقدمه ، يلعب دوراً

هاماً فى خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة . فقد لعب علماء الاجتماع دوراً كبيراً فى رسم السياسة الحكومية وتنفيذها من خلال وظائفهم كمستشارين ومديرين وخبراء إداريين . فعلى الرغم من أن علماء الاجتماع لم يكن باستطاعتهم تصميم الأسلحة أو ابتداع وسائل لنقل المواد الخام من بلدان العالم الثالث إلى الصناعات الرأسمالية مثل غيرهم من العلماء فإنهم كانوا يستطيعون تقديم النصح للمؤسسة العسكرية الرأسماليه فيما يتعلق بأساليب حشد التأييد لبرامجها وتقديم تبريرات علمية لإستغلال وتخدير فقراء أمريكا والعالم الثالث باسم التنمية الاجتماعية والديموقراطية . وقد حصل هؤلاء العلماء المشهورين على المكافآت السخية لجهودهم فى شكل مناصب وأموال طائلة ينفقونها على أبحاثهم .

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى والأكاديمى كانت أعداد الشباب الذين يلتحقون بأقسام الاجتماع تتزايد وكان الكثيرون منهم يهدفون من وراء ذلك إلى فهم المجتمع الذى يعيشون فيه من أجل الإسهام فى حل بعض مشكلاته ، ولكن هذه الآمال مالبثت أن خابت حيث أكتشف هؤلاء الشباب أن أقسام الاجتماع بدلا من أن تزودهم بالمعرفة والمهارات اللازمة لمعالجة القضايا الاجتماعية توجهم إلى دراسة مسائل أكاديمية شكلية وأنهم يمرون بعملية تطبيع اجتماعى أو « غسيل مخ » تجعلهم يستبدلون مسئوليتهم الاجتماعية بمسئولية مهنية محدودة .

وفى الوقت الذى كانت فيه حركات الاحتجاج ضد السياسات الداخلية والخارجية للحكومة الأمريكية وللحكومات الأوربية الغربية تتخذ شكلا منظما أخذت حركات نقد مضمون وأهداف علم اجتماع الغربى تتبلور بشكل واضح وحدث تداخل بين النوعين من الحركات (السياسية والأكاديمية) ونظم شباب علم الاجتماع مجموعات عمل ومؤتمرات لكشف العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة وطالبوا بأن يحدد

المشتغلون بعلم الاجتماع موقفهم من القضايا الرئيسية للمجتمع بوضوح . ومن أمثلة هذه المجموعات فى الولايات المتحدة حركة تحرير علم الاجتماع Sociology libera- tion movement التى ضمت طلاب الدراسات العليا وأعضاء من هيئة التدريس بأقسام الاجتماع بالجامعات الأمريكية والتى نظمت حلقات دراسيه تحت شعار : المعرفة لمن ؟ والتى شاركت فى مؤتمرات الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ودعت العلماء التقليديين إلى اتخاذ مواقف علمية وإنسانية من قضايا المجتمع الأساسية . ومن أمثلتها أيضا رابطه علماء الاجتماع الراديكاليين Union of radical Sociologists وطالبت هذه الجماعات من خلال ماتنشره من دوريات ومؤلفات وما تعقده من مؤتمرات بأن يصبح علم الاجتماع قوة مؤثرة فى الصراع من أجل التغيير اجتماعى الجذرى ودعت إلى الجمع بين الجانب الأكاديمى النظرى وبين الممارسة بحيث يلعب العالم الاجتماعى نفسه دوراً فى إحداث التغيير الجذرى فى المجتمع .

وقام الراديكاليون من دارسى علم الاجتماع (1) بتحليل الموقف السياسى لعلم الاجتماع التقليدى وكشفوا عن حقيقة أن النظام يستخدم علم الاجتماع لتحقيق أهدافه السياسية على المستويين الداخلى والخارجى عن طريقين : الطريق الأول جعل علماء الاجتماع يزودون المؤسسات الحكومية والرأسمالية بالمعلومات التى تساعد على رسم سياستها وتنفيذها بإجراء بحوث عن الإتجاهات والرأى العام والأسواق والضبط الاجتماعى وزيادة الإنتاجية والربح وتخفيض التوتر بين العمال والإدارة وتقبل الفقراء والملونين لفقرهم وللغبن الواقع عليهم وجمع معلومات عن المجتمعات الأجنبية لتستفيد منها أجهزة المخابرات فى تدبير المؤامرات . أما الطريق الثانى فهو إضفاء صفة الشرعية على النظام القائم عن طريق الدعاية الأيديولوجية له باستخدام النظرية

---

(1) Albert Szymanski. Toward a Radical Sociology, in Colfax and Roach. Radical Sociology. Opt. Ct. P.P. 93—107.

الاجتماعية ذاتها كما حدث فى حالة النظرية الوظيفية التى يتزعمها تالكوت بارسونز والتى تقدم تعريفات محافظة للواقع الاجتماعى وتدعو إلى خضوع الجماهير للنظام الحاكم بدعوى الإجماع القيمى . ولكى يحقق علم الاجتماع هذه الأهداف فإنه يخضـــع لتنظيم دقيق داخل الجامعات ومراكز البحوث ويحظى علماء الاجتماع بالتأييد والمكانة ومن خلال عملية التعلم يتم تطبيع الطلاب بحيث ينعزلون عن المجتمع ويصبحون فى خدمة القوى الحاكمة والمسيطرة .

وقد بذلت محاولات لتحديد أهداف يتبناها علم الاجتماع الراديكالى بدلا من الأهداف المحافظة لعلم الاجتماع التقليدى ومن هذه الأهداف :[1]

١ — فهم المجتمع والعلاقة بين الإنسان والمجتمع على أساس علمى سليم وذلك بتطبيق المنهج العلمى تطبيقاً سليماً ورفض العبودية للمفهومات التى يروج لها علماء الاجتماع التقليديين أو للبحوث الامبيريقية المجتزأة التى لا تعتمد على التحليل البنائى للمجتمع مع التركيز على بناء القوة فى المجتمع وعلى آليات التغير الاجتماعى الجذرى.

٢ — عدم تقبل النظريات السائدة بشكل آلى وإخضاعها الدائم للنقد والتحليل والكشف عن مضمونها السياسى .

٣ — الالتزام الصريح الواضح بالقيم الإنسانية وجعل علم الاجتماع وسيلة تساعد على تنمية قدرات الإنسان الحقيقية عن طريق خلق الظروف الملائمة لإشباع احتياجاته وتحريره من الاستغلال .

ولكن كل ذلك لا يشير إلا إلى موقف الراديكاليين النقدى من النظريات الاجتماعية

(1) Albert Szymanski in Colfax and Roach (eds.) Ibid. P. 98.

التقليدية وأهداف علم الاجتماع الراديكالى وماتحتاج إليه هو معرفة النظرية الاجتماعية البديلة التى يقدمونها .

الواقع أن التعرف على النظرية الاجتماعية الراديكالية أمر بالغ الصعوبة . وتنبع هذه الصعوبة أساساً من اختلاف معنى الراديكالية عند مستخدميها . «فبعض علماء الاجتماع يعتبرون أنفسهم راديكاليون لمجرد أنهم يخالفون الاتجاه العام السائد فى الفكر الاجتماعى أو فى منهج البحث الاجتماعى . والبعض الآخر يعتبرون أن مجرد التعبير عن المعارضة الأخلاقية للسياسات الاقتصادية أو السياسية مبرراً كافياً لتصنيف أنفسهم على أنهم راديكاليون . وهناك آخرون يرون أن أى موقف نقدى من الأنظمة الاجتماعية يعتبر موقفاً راديكاليا حتى ولو كان هذا النقد لا يؤدى إلى أكثر من الدعوة لمجرد إحـــداث بعض الإصلاحات التكنوقراطية»[1] .

ومن الواضح أن أمثال هؤلاء العلماء الاجتماعيين ليس لديهم نظرية اجتماعية متبلورة يمكن اعتبارها نظرية راديكالية .

وهناك من يرى أن الراديكالية مرادف للماركسية ، وعلى هذا فإن كل من يتبنى النظرية الماركسية فى المجتمعات الغربية يعتبر راديكالياً . ولكن من الممكن القول أيضاً أن هناك من العلماء الاجتماعيين من يدعو إلى التغيير الجذرى للمجتمع دون أن يكون ماركسيا بالضرورة ، كما أن هناك من يتبنى الماركسية فى المجتمعات الاشتراكية دون أن يكون راديكاليا حيث تستخدم الماركسية فى كثير من الأحيان

---

(1) Herman and Julia Schwendinger. The Sociologists of the Chair. Basic Books. Inc. New York 1974. P. XXi.

للحفاظ على الأوضاع القائمة فى هذه المجتمعات والحيلولة دون إحداث تغيير ثورى فيها ينقلها إلى مرحلة تالية من التطور الاجتماعى .

ونحن نرى أن تعريف الراديكالية يجب أن يستبعد كل أولئك الذين يقتصرون على مجرد نقد بعض الأفكار السائدة فى علم الاجتماع أو بعض الأوضاع السائدة فى المجتمع دون المساس بالمسلمات الأساسية التى تنهض عليها النظريات الاجتماعية أو بالاسس التى تنهض عليها الأنظمة الاجتماعية . كما أن هذا التعريف يجب أن يستبعد أيضاً أولئك الذين يتخذون فقط موقف الرفض من كل ما هو قائم سواء فى العلم الاجتماعى أو فى المجتمع دون أن يقدموا بديلا له يعتمد على التحليل العلمى السليم .

ونرى أن يقتصر تعريف الراديكالية على « الموقف النقدى من المسلمات الاساسية التى تنهض عليها النظريات الاجتماعيه التقليدية وما يرتبط بها من مناهج ومن الأسس التى تنهض عليها الأنظمة الاجتماعية مع تقديم مسلمات بديلة وتصورات للانظمة الاجتماعية التى يجب أن تحل محل الأنظمة القائمة على أساس من التحليل العلمى الصحيح المعتمد على الأدلة الإمبيريقية والتاريخية » .

وقد قدم ثلاثة من علماء الاجتماع البريطانيين[1] تصورا لأهم خصائص النظرية الاجتماعية الراديكالية التى تميزها عن النظريات المحافظة والليبرالية نجملها فيما يلى :

---

(1) Ian Taylor, Paul Paul Walton and Jock Young. Critical Criminalogy. Routledge & Kegan Paul. London. 1975. PP.

أولا : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الإنسان :

تؤكد النظرية الراديكالية على حقيقة أن قدرات الإنسان غير محدودة وأن بإمكانه دائماً تغيير الواقع المادى والاجتماعى الذى يعيش فيه وكذلك تغيير نفسه ليصبح أكثر إنسانية .

ثانياً : من حيث افتراضات النظرية عن طبيعة الواقع الاجتماعى :

تؤكد النظرية على حقيقة أن هذا الواقع دائم التغير وأنه لايتسم بالسكون أو الثبات كما تدعى النظريات المحافظة والليبرالية ، وبالتالى فإن مهمة النظرية الاجتماعية تقديم فهم علمى سليم للقوانين التى تحكم هذا التغير بحيث يستطيع الإنسان أن يحدث هذا التغيير فى مجتمعه وفقا لها .

ثالثاً : من حيث افتراضات النظرية عن آليات التفاعل الاجتماعى داخل المجتمع :

تؤكد النظرية على أنه طالما كانت هناك مصالح متعارضة ومتضاربة داخل المجتمع فإنه لابد أن يكون هناك صراع به وأن فكرة الإجماع القيمى والاتفاق الجمعى خرافة .

رابعاً : من حيث طبيعة النظرية الاجتماعية ذاتها :

تؤكد النظرية الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية لايجب أن تقتصر على مجرد الوصف بشكل سلبي لما هو قائم بالمجتمع ولكن لابد أن تتضمن بالضرورة توجيهات للممارسة العملية Praxis أى أنها يجب أن تشجع على إحداث التغييرات الاجتماعية الراديكالية وأن تقدم أساليب للبحث الاجتماعى الهادف إلى التغيير

فالنظرية الاجتماعية الراديكالية لا يجب أن تقنع أبداً بمجرد وصف الأوضاع القائمة ولكن عليها أن تقدم أساليب عملية لتغيير المجتمع إلى الصورة المثلى التى توصلت إليها من خلال تحليل المجتمعات القائمة .

إن النظرية الاجتماعة الراديكالية لايجب أن تنفصل عن الممارسة، بل يجب أن أن تشير إلى كيفية تغيير الواقع الاجتماعى أثناء دراسته .

خامساً : من حيث طبيعة المجموعات الاجتماعية التى تخدمها النظرية الاجتماعية :

تؤكد الاتجاهات الراديكالية على أن النظرية الاجتماعية يجب أن تكون موجهة لتلك المجموعات والفئات الاجتماعة التى من مصلحتها إحداث التغيير فى المجتمع وليست تلك المجموعات المستفيدة من الأوضاع القائمة .

وليس من الضرورى أن تكون هذه المجموعات هى البروليتاريا فقط كما تؤكد على ذلك الماركسيةالتقليدية ولكن يمكن أن تشمل كل الفئات المقهورة (النساء والملونين والأقليات عموما . إلخ) . ويجب أن تكون النظرية الاجتماعة مرشداً لكل هذه الفئات فى ممارسة نضالها ضد الاستغلال .

هذا ويمكننا القول أن الاتجاهات الراديكالية فى النظرية الاجتماعية تستمد كثيراً من مسلماتها من النظرية الماركسية مع تطويعها للظروف الاجتماعية الحديثة السائدة فى الغرب ، ولكن أصحاب هذه الاتجاهات يختلفون من حيث درجة اعترافهم باعتمادهم على النظرية الماركسية فى تكوين تصوراتهم النظرية عن المجتمع وفى درجة تقبلهم أو نقدهم للنظرية الماركسية التقليدية .

ومع أن الراديكاليين يختلفون فيما بينهم حول كثير من تفاصيل النظرية

الاجتماعية إلا أن هناك خصائص عامة مشتركة بين الراديكاليين يمكن أن نجملها فيما يلي[1] :

١ — أن الاتجاه الراديكالى فى علم الاجتماع الغربى الرأسمالى جزء من اليسار الجديد سواء على المستوى الأكاديمى أو المستوى السياسى .

٢ — أن الغالبية العظمى من أصحاب الاتجاهات الراديكالية من الشباب وبخاصة الطلبة والمدرسين فى الجامعات وهم لايشغلون مناصب عليا فى المؤسسات التعليمية أو الجمعيات العلمية ، وأن ظهورها ارتبط بظهور الحركات الطلابية فى أمريكا وأوربا مثل حركة SNCC(اللجنة الطلابية للتنسيق القومى سنة ١٩٦٠ و SDS (حركه الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطى و FSM (حركه حرية الكلمة) .

٣ — أن الاتجاهات الراديكالية اليسارية الجديدة ليست فقط أكاديميه ولكنها أيضا سياسيه ، فهى تتحدى المؤسسات القائمه وأساليب الحياة السائدة فى البلدان الرأسماليه وحتى فى البلدان الاشتراكية التقليديه .

٤ — أن هذه الاتجاهات لاتقتصر على بلد بعينها ولكنها ظاهرة تشمل المجتمعات الغربية الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا و ألمانيا وبعض البلدان التى تدور فى فلكها مثل البرازيل التى ظهرت فيها إتجاهات معاديه للاستعمار .

---

(1) Arthur Lothstein (ed.) All We Are Saying. The Philosophy of The New Left. Gapricon Books. New York. 1971.

٥ — أن هذه الاتجاهات تتخذ موقفاً معارضاً من التسلطية Anti - authoritarian سواء فى الغرب أو الشرق والذى يتضح فى المؤسسات القائمة على البيروقراطية والتدرج الهرمى للسلطة كما يوجد فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة والذى يعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتكدس الثروة فى أيدى القلة والأساس الطبقى للعلاقات الاجتماعية . وتطالب الاتجاهات الراديكالية بخلق مجتمعات خالية من العلاقات الطبقية تعتمد على التسيير الذاتى وجماعية اتخاذ القرارات على المستوى الجماهيرى . وعلى هذا فهى تسعى إلى القضاء على تلك الأنظمة الاقتصادية التى تشجع على الفردية والملكية الخاصة والعمل المأجور Wage -labor وبصفة عامة تدعو الراديكالية إلى إعادة بناء الخبرة الإنسانية على أساس مبادىء اجتماعية غير مغتربة de - alienated تعتمد على العلاقات الإنسانية الحقيقية .

٦ — تتخذ هذه الاتجاهات موقفاً معارضاً تماماً للعنصرية racism والإمبريالية وترى أن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة جميعها إمبريالية وعنصرية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية . ويؤكد اليسار الجديد على أن العنصرية والإمبريالية لن ينتهيا إلا بالقضاء على الأساس الطبقى للعلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة . كما يؤكد هذا الاتجاه على أن العنصرية تخدم الهدف الامبريالى للرأسمالية الحديثة ، فاستغلال دول العالم الثالث واستنزاف ثرواتها يستندعلى أسس عنصرى ويؤيد هذا الاتجاه حركات التحرر والاستقلال فى العالم الثالث ويطالب بإنشاء علاقات دولية جديدة خالية من الاستغلال تشجع على تطور ونمو بلدان العالم الثالث بعد القضاء على الاحتكارات الرأسمالية الدولية . كما يؤكد هذا الاتجاه على ضرورة تحليل السياسات الخارجية للدول الرأسمالية وتحليل الدور الذى تلعبه المؤسسات المختلفة وبخاصة الجامعات فى تحقيق الأهداف الاستعمارية للرأسمالية العالمية .

٧ ـــ تحدد الاتجاهات الراديكالية تصورات لمجتمع جديد يحل محل المجتمع القائم ويتصف بالخصائص الآتية :

(ا) أن يكون العمل فيه غير مغترب أى أنه لايتحدد بالاحتياجات الخاصة لرأس المال الاحتكارى ولكنه يتحدد بالاحتياجات الاجتماعية العقلانية .

(ب) أن تكون الثقافة فيه غير قمعية non - repressive بحيث تتحرر فيه كل القيم الروحية للإنسان وتجد وسائل للتعبير عنها .

(ح) أن يكون التنظيم فيه يعتمد على اللامركزية وعلى جماعية اتخاذ القرارات داخل الجماعات المحلية بطريقة مستقلة وبحيث تكون وسيلة تحقيق الذات هى العمل من أجل الصالح العام .

(د) التحرر من السيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادى وسيادة ثقافة دولية عامة تقوم على المحبه والتفاهم المتبادل .

(ﻫ) القضاء على الملكية الخاصة بحيث تحل محلها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج واستخدام المصادر الاقتصادية من أجل سعادة كل سكان العالم .

(و) ظهور وحدات اجتماعيه جديدة مثل الأسرة الممتدة والكميونات . الخ

هذا وقد انصبت معظم كتابات الراديكالية على نقد النظريات الاجتماعية التقليدية وإثبات الصلة الوثيقة بينها وبين الأيديولوجيا البورجوازيه واستخدام هذه النظريات كوسيلة لتدعيم وتبرير الأنظمة الرأسمية القائمة . واستمد الكثير من الراديكاليون أفكارهم من كتابات عالم الاجتماع الامريكى الشهير رأيت ميلز النقدية للمجتمع الامريكى وللاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع واعتبروه مؤسس الاتجاه الراديكالى الحديث فى علم الاجتماع .

ويرى بلاكبورن Blackburn [1] أن النظريات الاجتماعية التقليدية وعلم الاجتماع الأكاديمى بأسره تقدم تفسيراً وتبريراً للأوضاع الاجتماعية القائمة فى الغرب وأن هذه النظريات تتعمد استبعاد كل المفهومات النقدية وتستخدم استخدامات سياسية . ومن أمثلة المفهومات النقدية التى تخلو منها النظريات الاجتماعية الغربية : الرأسمالية ، الاستغلال ، التناقض ، الاغتراب والطبقة . وبدلا من هذه المفهومات النقدية تستخدم هذه النظريات مفهومات أخرى مثل المجتمع الصناعى (مقابل الرأسمالى) واللاتوازن المتبادل reciprocity imbal ance (مقابل الاستغلال) والضرر الوظيفى dysfunction مقابل التناقض) . وقد أوضح بلاكبورن الطابع الأيديولوجى للنظريات الاجتماعيه التقليديه من خلال مناقشة لكيفية معالجة هذه النظريات لموضوعات التنمية الاجتماعيه والتغير الاجتماعى والثورة . فقد بين أن علماء الاجتماع يؤكدون ، مثلما فعل آرون وبارسونز ، على أنه ليس هناك تناقض بين مصالح البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة وذلك على الرغم مما تؤكد الأدلة من استغلال البلدان المتقدمة لدول العالم الثالث .

ومن جهة أخرى تعالج النظرية الاجتماعية الوظيفية موضوعات التكامل والنظام الاجتماعى والاستقرار الاجتماعى وتهمل موضوع التغير وتحلل كل جزء من النسق الاجتماعى على أساس مدى إسهامه فى المحافظة على الوضع القائم .

ويرى بلاكبورن أنه ليس هناك فرق حقيقى بين النظرية الوظيفية أو نظرية التوازن من جهة وما يسمى بنظريات الصراع من جهه أخرى فكلاهما يسعيان إلى

---

(1) Robin Blackburn; "A brief guide to bourgeois ideology" in Cockburn, A. and Blackburm, R. (eds) Student Power. Penguin. 1967.

تحقيق التكامل وتجنب التناقضات . ويؤكد بلاكبورن على أن علم الاجتماع ليس لديه نظرية كافية عن التغير الاجتماعى والثورة ويدعو إلى ضرورة إقامة التحليل الاجتماعى للمجتمع على أساس النظرية الماركسية . وفند بلاكبورن دعاوى أصحاب النظريات الاجتماعية فى الولايات المتحدة وبريطانيا عن أن نظرياتهم موضوعية وغير منحازه وبين كيف أن كل استنتاجاتهم عن البنــاء الاجتماعى وخاصة فيما يتعلق بتوزيع القوة الاقتصادية أو الاجتماعية استنتاجات مضللة وتتعارض تماماً مع الأدلة الواقعية . وقدم الكثير من الأدلة على زيف إدعاء نظريات التوازن بأن مصادر التوتر والصراع الطبقى قد أختفت فى المجتمع الرأسمالى الغربى الحديث .[1]

وينتقد آلفن جولدنر أصحاب الاتجاهات الراديكالية على أساس أنه لم تتبلور لديهم بعد نظرية اجتماعية واضحة . فعلى الرغم من أنهم يتفقون على ضرورة إحداث تغييرات جذرية فى المجتمع فإنهم غير متفقين على النظرية الاجتماعية التى يمكن أنه توجههم فى إحداث هذه التغيرات : إن المجتمع القديم يبقى على نفسه من خلال نظريات وأيديولوجيات تسيطر على عقول الناس وتجعلهم يخضعون له . ومن المستحيل تحرير الناس من المجتمع القديم أو إقامة مجتمع إنسانى جـــديد دون البدء من الآن بتشييد ثقافة مضادة تشمل على نظريات اجتماعيه جديدة ومن المستحيل عمل ذلك دون نقد النظريات الاجتماعيه السائدة الآن[2] ويرى جولدنر أن بعض الراديكاليين الذين يرفضون النظريات الاجتماعية على

---

(1) Robin blackburn (ed), Ideology in Social Science. Fontana/ Collins. 1976.

(2) Gouldner, A. The Coming Crisis of Western Sociology. Heinemann. London. 1971. P. 4.

السائدة يدعون بتبنى النظرية الماركسية التقليدية ولكنهم فى الحقيقة لا يعرفون الكثير عنها . وعلى هذا فإن هناك فجوة واسعة بين أهداف الراديكالية الثورية السياسية وبين مستوى النظرية لديهم . ويدعو جولدنر الراديكاليين إلى التعمق فى تحليل النظريات الاجتماعية التقليدية ونقدها من أجل الوصول إلى نظريات راديكالية متكاملة تفسر الواقع الاجتماعى الفعلى وتساعد على تغييره وفى ذلك يقول :

« ليس هناك من سبيل لتجاوز الحاضر والماضى الذى يستمد الحاضر منه وجوده دون نقد مستفيض له . وليس هناك من سبيل لتجاوز علم الاجتماع المعاصر دون نقد لنظريته وطقوسه ومؤسساته وأفكاره » .

---

(1) Ibid P. 18.

مراجع عربية فى النظرية الاجتماعية

أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية (القاهرة . دار المعارف ١٩٧٠)

أحمد أبو زيد : العلوم الإنسانية والصراع الإيديولوجى — عالم الفكر ج ٢ ع ٢ ١٩٧١ .

السيد محمد بدوى : فلسفة أوجست كونت (مترجم) تأليف ليفى بريل : ترجمة السيد محمد بدوى ومحمود قاسم : القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢

— قواعد المنهج فى علم الاجتماع (مترجم) تأليف إميل دوركايم : ترجمة السيد محمد بدوى ومحمود قاسم (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١)

— مبادىء علم الاجتماع : (الاسكندرية : دار المعارف : ١٩٧٢)

حسن الساعاتى : مبادىء علم الاجتماع : (القاهرة : مكتبة مصر : ١٩٧١).

حسن سعفان : تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية (القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٦)

سمير نعيم أحمد : قضايا علم الاجتماع : (مترجم) تأليف أوسيبوف ترجمة : سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠)

علم الاجتماع بين الاشتراكية والرأسمالية : الطليعة : س ٧ ، ع ٢ فبراير ١٩٧١ ص ٦٩ — ٧٤

عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى (القاهرة : مكتبة وهبة ١٩٧٦)

— علم الاجتماع (القاهرة : مكتبة غريب ١٩٧٧)

محمد عاطف غيث . مقدمة قضايا علم الاجتماع : تأليف ج أوسيبوف ترجمة سمير نعيم وفرج أحمد (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠)

ـ مقدمة : نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف : ترجمة محمود عودة وآخرين (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠)

ـ الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر (الاسكندرية : دار الكتب الجامعية ١٩٧٢]

محمد الجوهرى : نظرية علم الاجتماع [مترجم] تأليف نيقولا تيماشيف : ترجمة : محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد محمد الحسينى (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٢)

محمود عودة : علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية : (القاهرة : مكتبة سعيد رأفت ١٩٧٦)

مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦)

BIBLIOGRAPHY

ABEL. T. The Foundation of Sociological Theory (New York. Random House, 1970).

AFANASYEV. V. Marxist Philosophy (Moscow : Progress Publishers, 1968).

ARON. R. Main Currents in Sociological Thought (England : Benguin Books, 1965).

BERGER, P. and LUBKMAN, T. The Sociol Construction of Reality (London : Allenlane, The Penguin Press. 1967).

BERLINE, J. Karl Marx. His Life and Environment (New York, Oxfond, 1948).

BERNAL, J.D. Science in History. (New York. Howthorn Boobks 1965).

BERNARD, S, Historical Sociology (New York. Citadel Press. 1959).

BLACKBURN, R. A Brief Guide to Bourgeois Ideology. in Cockburn, A. and Blackburn, R. (Ed). Student Power. (Benguin Books. 1967).

— Ideology In Social Science (fontana / Collins 1976).

BOTTOMORE. T.B. Karl Marx Early Writings, (New York. 1941).

— Sociology ·as· Social Criticism (London, George Allen & Uniwin, 1975).

CHESNOKOV, D. L. Historical Materialism. (Moscow. Progess Publishers, 1959) .

COLFAX, J. Dand Roach (ed) Radical Sociology. (New York. Basic Books).

— The Function of Social Conflict. (Free Press, New York 1956) .

COOLEY, C. Human Nature and the Social Order (New York : Charles Scribner. 1902).

COSER, L. Masters of Sociological Thought. (Harcourt Brace-jovannavich, Inc. New York 1977).

DAVID, M. The Sociology of Knowledge. In Remmling (ed) .

DOUGLAS, J. Understanding of Every Day Life. (London. Routledge & Kegan Paul. 1971).

DREITZEL. H. P. (ed) Recent Sociolpgr No. 2. Patterns of Communicative Behavior; Eight Articles That Demonstrate What Ethnemethodology is All About, (New York. Macmillan 1970).

DURKHEIM, E. The Duvision of Labor in Society. (Glencoe, Free Press, 1933).

— Suicide. (Free Press. New York. 1951).

— Rules of Sociological Method. (New York, Free Press, 1964).

FRIEDRICHS. R. W; A. Sociology of Sociology. (The Free Press, New York. 1970) .

GARFINKEL, H. Studies in Ethnomethodology. (Englwood Cliffs ; Prentice-Hall. 1970)

GIDDINS, A. Capitalism and Modern Social Theory (Cambridge University Press. London 1971).

G IDDINGS F. Studies In The Theory of Human Society (New York. Macmillan, 1922) .

CIRTH, H. and Mills. W. (eds) From Max Wobor : Essys in Sociology (New York, Oxford University Press, 1940).

GOFFMMN, E. Behavior in Public Places. (New York : Free Press 1963).

GOOD and HATT, P. Methods in Social Research. (New York Mcgraw Hill, 1951)

GOULDNER, A. The Coming Crisis -of- Western Sociology. (London. Heineman. 1971).

HAGEDORN, R. and LABOVITS, S. An Introduction into Sociological Orientations. (New York. John Wiley. 1973).

HAMILTON. P. Knowledge and Social Structure. (Routledge & Kegan Paul. London. 1941.

HARRINGTON. M. The Twilight of Capitalism. (The Macmillan Fress New York 1977).

HAWTHORN. G. Enlightenment and Despair. A History of Sociology (Cambridge University, Press. London 1976).

HORTON. P. and HUNT. L: Sociology (New York. Mac Grow Hill. 1964).

KOLFAX. D, and ROACH. J ; Radical Sociology. (New York, Basic Books, 1970).

LARSON. C. Ma Jor Themes in Sociological Theory. (New York. David Mac-Kay Company, 1973)

LEVINGSTON. A (ed) Mind and Society. (New York. Harcourt Brace, 1935).

LOCHWOOD, D. Some Remarks on The Social System (British Journal of. Sociology. 1956).

LOTHSTEIN. A. (ed) All We Are Saying, The Philosophy of The New Left (New York. Capricon. 1971).

MANHEIM. K. Sociology of Knowldge from The Stand Point of Modern Phenomenology. in Remmling (ed.)

MARTINDALE, D. : Nature and Types of Sociological Theorey. (London. Routledge — Kegan Paul. 1967).

MEAD, G. : Mind, Self and Society (Chicago, University of Chicago Press, 1934).

MILLS, C. W. The Sociologtcal Imagination. (London, Oxford University Press 1969).

MITCHEL. D. A Dictionary of Sociology. (Routledge & Kegan Paul. London. 1968).

— A Hundred Years of Sociology. (Aladine Publishing Company, Chicago, 1971).

MARX, K. and ENGLES. F. The German Ideology. (London. 1965).

MERTON, R. Social Theory and Social Structure (New York. Free Press, 1949).

NISBET. R. The Sociological Tradition. London. 1970).

OSIPOV. G. Sociology. (Moscow, Progres Publishers. 1969).

PARSONS. T. Vilfredo Parieto, in The International Encyclopedia of Social Sciences

— The Social System (Glencoe, Free Press 1951).

QUINNEY : Crime Control in Capitalist 'Society in Ian Taylor-etal (eds). Critical Crimnnology (London, Routledge Kegan Paul, 1976).

REMMLING, G. Towards The Sociology of Knowledge (Routledge & Kegan Paul. London, 1973

REX. J. Key Problems of Sociological Theory (London. Paul Kegan. 1976).

SALMON'S A, "German Sociology" in George Gurvitch and Wilberte. Moore; Twentieth Century Sociology (New York: The Philosophical Library, 1945).

SCHELER M. The Nature of Sympathy. (Trans. Peter Heath. London : Routledge and Kegan Paul, 1973).

SCHUTZ. A. and T. Luckman. The Structure of the Life World (Evanston : Northwestern University Press. 1973).

SCHWENDINGER. H. J. The Sociologists of The Chair (Basic Books. New York. 1974).

SJOBERG. G. and ROGER NETT : A Methodology for Social Research (New York. Harper of Row, 1968).

SMART. B, Sociology, Phenomenology and Marxian Analysis (Routhedge & Kegan Paul. London, 1976).

SOCIOLOGY LIBERATION MOVEEMENT HANDBILL, 1968, in Paul Horton and Gerald Lesli : Studies in the Sociology of Social Problems (New York. Appleton — Century Crafts. 1971).

STAUDE. J. Max Scheler : An Intlectual Portrait (New York, 1967).

TAYLOR, I. Deviance and Society (London. Michael Joseph. 1971).

TAYLOR, I. WALTON, -P- and YOUNG J. The New Criminology. (London. Routledge, 1973)

TAYLOR. I., et al : Radical Crimiuology (L ndo , Routledge, 1976).

WEBER. M. The Protestant Ethic and The Spirit of Capitalism (Scribner, New York, 1958).

— Basic Concepts in Sociology. (New York, The Citadel Press, 1964).

ZEITLIN. I. Ideology and The Development of Sociological Theory (Prentic. Hall, New — Delhi, 1969).

محتويات الكتاب

الباب الأول

طبيعة النظرية فى علم الاجتماع

الباب الثانى

النظريات الكلاسيكية ونقدها

الباب الثالث

صياغات حديثة لمسلمات قديمة

الناشر
مكتبة سعيد رأفت

